مصر
في
عصري المماليك والعثمانيين

(٦٤٨ - ٩٢٣هـ) - (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ)
(١٢٥٠ - ١٥١٧م) - (١٥١٧ - ١٧٩٨م)

الدكتور
عبد العزيز محمود عبد الدايم
رئيس قسم الآثار الإسلامية
كلية الآثار - جامعة القاهرة

١٩٩٦

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصـــــر

في

عصرى المماليك والعثمانيين

(٦٤٨ - ٩٢٣هـ)-(٩٢٣-١٢١٣ هـ)

(١٢٥٠ - ١٥١٧ م) - (١٥١٧ -١٧٩٨ م)

الأستاذ الدكتور

عبدالعزيز محمود عبدالدايم

رئيس قسم الآثار الإسلامية

كلية الآثار - جامعة القاهرة

الناشــر

دار نهضـــة الشـــرق

جامعة القاهرة



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم



المصـــادر

شهدت الأمة الإسلامية أشرس هجوم حضارى تتعرض له أمه من الأمم خلال أكثر من قرنين من الزمان، وأقصد بذلك الهجوم الصليبى الذى شنته أوربا تحت اسم الصليب على غربى البلاد الإسلامية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، وهجوم المغول على شرقى البلاد الإسلامية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وكان هدف الجميع القضاء على الإسلام كدين وحضارة ومن المعروف تاريخياً أن الشعوب المناضلة كالشعب العربى الإسلامى التى ألفت الحرب والجهاد، واعتادت فى وطنها الأول حياة الخشونة والبداوة، هذه الشعوب كثيراً ما تتعرض للزبول عندما تتحول إلى حياة الإستقرار والإغراق فى الحضارة فتجذب لمهاجمتها جيرانها الهمج الأقل تحضراً فيحاولون النفوذ إلى هذا الكيان الحضارى وتدميره للإنتقام لقصورهم هم فى هذا المضمار، ~~ولتغطية عقدة~~ النقص ، وهذا ما يفسر ما يرد فى المصادر التاريخية عن محاولات البدو المتكررة النفوذ إلى الأماكن الأكثر تحضراً ومحاولاتهم تدميرها، وهذا ماحدث فى بلاد الإسلام خلال فترة إمتدت أكثر من ثلاثة قرون إذ هاجمتها أقوام أقل تحضراً، حاولت القضاء على شعوبها وحضاراتها ومعتقداتها ومنجزاتها، ولسوء الحظ نجحوا فى ذلك إلى حد ما، وكان نجاح المغول فى القسم الشرقى أكثر من نجاح الصليبيين فى القسم الغربى، لأن المسلمين فى غرب العالم الإسلامى كانوا أكثر تماسكاً فتمكنوا من طرد الغزاة والحفاظ على تراثهم الحضارى، فى حين عجز المسلمون فى شرق العالم الإسلامى عن الوقوف بوجه المغول، لعنف هجومهم وقسوتهم، وعدم وجود قيادة موحدة تجمع شملهم فدمرت معالم حضارتهم، ولم تعد الحياة إلى تلك

المناطق إلا تدريجيا وبعد فترة طويلة نسبيا من الزمن.

ونتيجة لهذه الأحداث التى أصابت أنحاء العالم الإسلامى فى العراق على أيدى المغول وفى الأندلس على أيدى الصليبيين فضلاً عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدى الصليبيين والمغول جميعاً لم يجد علماء المشرق والمغرب بلداً أمناً تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التى غدت "محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء" كما يقول السيوطى المؤرخ.

ومما لاشك فيه أن سقوط بغداد على أيدى المغول وإندراس قسم كبير من التراث العقلى الإسلامى على أيديهم وعلى أيدى الصليبيين جعل العلماء ينتبهون لخطر ما حدث ومحاولة منع حدوثه فى المستقبل بحفظ تراث الأمة ومنعه من الإندثار والضياع، وعلى رأس هذا التراث :

الوثائق أو المكاتبات الرسمية التى تأتى فى المرتبة الأولى بين مصادر التاريخ الإسلامى عامة وتاريخ مصر فى العصر المملوكى خاصة، لما تحتويه من مادة تاريخية أصيلة غير قابلة للتحريف وهى تصدر عن ديوان الإنشاء الذى كان يقوم بتبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة وهى المكاتبات التى ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها، فضلاً عن إعداد الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء.

ومن أهم أماكن تواجد الوثائق المملوكية القاهرة فى (دار الوثائق) وغيرها من مدن مصر ومدن بلاد الشام ومن أهم وثائق القاهرة وثائق الأوقاف التى تفيد فى معرفة تخطيط العمائر الدينية والمدنية وأسلوب إدراتها والموظفين العاملين بها ورواتبهم وغيرها من المعلومات.

كذلك من أماكن تواجد الوثائق المملوكية المدن الإيطالية التجارية مثل البندقية وجنوا وبيزة وغيرها. ذلك لأن هذه البلدان كانت على علاقة إقتصادية واسعة مع دولة المماليك فى كل من مصر والشام ودارت بين الطرفين مراسلات كثيرة أغلبها تجارى اقتصادى، ولكن فيها السياسى والإدارى.

هذا بالإضافة إلى أنه لدينا نصوص [illegible] مكاتبات [illegible] فى كتب

المؤرخين المعاصرين والمتأخرين.

الآثار :.

تعتبر الآثار سواء الثابتة منها كالمنشآت المعمارية الدينية والمدنية أو المنقولة كالتحف المعدنية والخشبية والعاجية والخزفية من أهم المصادر التى يعتمد عليها فى كتابة التاريخ عامة وعصر المماليك بصفة خاصة، فعلم الآثار يعنى بدراسة الماضى على ضوء جميع المخلفات التى تصل إلينا منه فتقدم للمشتغلين بالتاريخ أثمن المساعدة لاستكمال الأخبار الصحيحة وسد الفراغ فى المصادر الأدبية للتاريخ فهى تصحح أحياناً بعض الأخطاء التاريخية، وهى سجلاً تاريخياً للأعمال التى قام بها الولاة والأمراء والسلاطين وتعبر على درجة الإتقان الفنى والتيارات الفنية التى كانت تترك بصماتها، كما تفيد الآثار فى دراسة تاريخ العمران فتحدد المعالم البارزة من المدينة وتخطيطها.

هذا بالإضافة إلى الكتابات الأثرية التى تلى الوثائق فى الأهمية التاريخية بما تتضمنه من نصوص وألقاب وتواريخ فهى وثائق أصيلة معاصرة الأحداث التى تسجلها لم تشوهها الروايات والنقول فهى تتضمن تواريخ ثابتة للمنشآت وأسماء منشيئها من الخلفاء والسلاطين والأمراء وأحياناً أسماء المهندسين والمزخرفين الذين أشرفوا على إنشائها وزخرفتها.

وأحياناً يستمد منها بعض المعلومات الإقتصادية فكان سلاطين المماليك يسجلون بعض مراسيمهم الخاصة بإلغاء بعض الضرائب أو تخفيف بعض المكوس على جدران منشآتهم المعمارية، ومثال ذلك السلطان المؤيد شيخ عندما أزال مظلمه مكس الفواكه نقش ذلك على لوح رخامى ثبت على باب مسجده بجوار باب زويلة .

والمسكوكات : أو العملات تعتبر مصدر من الدرجة الأولى فى تاريخ المماليك فهى تساعدنا على تتبع التطور السياسى بدقة، ولاسيما من الناحية الزمنية ،

فالكتابات المنقوشة على السكة تتضمن أسماء السلاطين والخلفاء وألقابهم - فهي سجل للألقاب والنعوت - وتاريخ الضرب والمدينة التي ضربت فيها العملة.
كما تفيدنا العبارات الدينية المنقوشة على وجه العملة أو على ظهرها في معرفة المذهب الديني، وتساهم الكتابات المسجلة على العملات في تصحيح بعض الأخطاء التاريخية.

ومن الناحية الإقتصادية فإن العملة تساعد في دراسة الحالة الإقتصادية للعصر الذي كانت تستعمل فيه، وتساعد في معرفة نوع النقد الذي كان يشتد الإقبال عليه وأسبابه الإقتصادية، كما أن العثور على عدد من العملات المضروبة في عصر ما في بلاد مختلفة يشير إلى الآفاق التي كانت تمتد إليها التجارة في هذا العصر.

ومما لاشك فيه أن الأسماء والنعوت والألقاب الواردة على العملات والمواد التي تتخذ منها وموازينها تكشف النقاب عن كثير من الأوضاع السياسية والدينية والإقتصادية.

المصادر التاريخية :

- **ابن شداد** :عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي (٦٣١ - ٦٨٤هـ / ١٢٣٣ - ١٢٨٥م) الذي كان سفير الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق إلى المغول، والذي رحل إلى مصر بعد سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحظي بمكانة كبيرة عند الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون وأهم مؤلفاته "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، و "تاريخ الظاهر بيبرس"(١) وهو عبارة عن مشاهداته لما بذله السلطان الظاهر بيبرس من إستعدادات وجهود ضد المغول والصليبيين.

- **ابن واصل** :جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله الحموي الشافعي (٦٠٤ - ٦٩٧هـ / ١٢٠٧ - ١٢٩٧م) ولد في حماه وطاف بلاد كثيرة ... وبيت المقدس وحلب والقاهرة طلباً للعلم وشهد حملة لويس التاسع

الصليبية على مصر وإحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك وغزوات المغول وسقوط الخلافة العباسية، ثم انتقالها إلى القاهرة، واتصل بالظاهر بيبرس وأرسل سفيراً عنه إلى منفرد بن فردريك ملك الصقليين وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ولابن واصل مؤلفات كثيرة ما يهمنا منها كتابه "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" وخاصة الأجزاء الأخيرة التى تناول فيها الأيام الأولى من حياة السلطان الظاهر بيبرس.

- **ابن عبد الظاهر** : القاضى محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان ولد فى القاهرة سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) وتوفى سنة (٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)، كان كاتباً فى ديوان الإنشاء فى عهدى قطز وبيبرس .

ومن أهم مؤلفاته "الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر" الذى تناول فيه جهود بيبرس ضد المغول والصليبيين وكتاب "تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور" الذى تحدث فيه ابن عبد الظاهر عن سيرة السلطان المنصور قلاوون وجهوده ضد الصليبيين الذى كلله بالإستيلاء على طرابلس أما كتاب ابن عبد الظاهر الثالث فهو "الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية" الذى تناول فيه تاريخ الأشرف خليل ابن قلاوون.

- **بيبرس الدوادار** : هو بيبرس المنصورى الخطائى الدوادار المتوفى سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٥م) بدأ حياته بتولى بعض المناصب الإدارية فى عهد السلطان

---

(١) مخطوط بمسجد السليمية بأدرنة تحت رقم ٢٣٠٦.

سيف الدين قلاوون ، وشغل منصباً هاماً فى البلاط المملوكى فى عهد إبنه الناصر محمد بن قلاوون فقد كان رئيساً لديوان الإنشاء ولقب بالدوادار وترقى فى مناصب الدولة حتى أصبح نائباً للسلطنة فى الكرك سنة (٧١١هـ / ١٣١١م) ومن آثاره العلمية مؤلفين هامين سجل فيهما الأحداث التى عاصرها وشاهدها وهما "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة وهو تاريخ إسلامى عام لم يصل إلينا منه إلا الجزء التاسع الذى يتناول السنوات من (٦٥٥هـ إلى ٧٠٩هـ / ١٢٥٧ -

١٣٠٩م) ويعتبر من المصادر الهامة فى دراسة التاريخ السياسى لسلاطين دولة المماليك فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، أما المؤلف الثانى فيعرف باسم "التحفة الملوكية فى الدولة التركية" وينتهى بعام (٧١١هـ / ١٣١١م).

- **ابن أيبك الدوادارى** : أبو بكر بن عبد الله : الذى شغل بعض المناصب الهامة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتوفى بعد سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٦م) وبالرغم من أنه لم يكن من ذوى الرتب العالية فقد استطاع عن طريق والده وأصدقاء والده الوصول إلى المصادر الأصلية التى استقى منها معلوماته مثل رجال الدولة والجيش والعلماء، هذا فضلاً عن ملاحظاته الشخصية وأهم مؤلفاته كتاب "كنز الدرر وجامع الغرر" ويقع فى تسع أجزاء يهمنا منها الجزء الثامن الذى يعرف باسم "الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية" والجزء التاسع الذى يعرف بإسم "الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر" ـ محمد ن قلاوون.

ؤلف مجهول : نشر تاريخه زترستين ك . ف بعنوان ـ تاريخ سلاطين ... بك ـ وهو يؤرخ للفترة الممتدة من سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) إلى سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) ونستطيع أن نقول عنه أنه كان معاصراً للسلطان الناصر محمد بن قلاوون وأنه كان أحد الأجناد البسطاء فى الجيش المملوكى.

- **النـويرى** : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم النويرى المتوفى سنة (٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الذى كان ذا حظوة عند السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ووكله فى بعض أموره، وشغل نظارة الجيش فى طرابلس، وتنقل فى عديد من الوظائف مما مكنه من الإطلاع على خبايا الأمور الأمر الذى يظهر بوضوح فى كتابه "نهاية الأرب فى فنون الأدب".

- **أبو الفـداء** : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على بن محمود بن

محمد بن عمر بن شاهنشا الأيوبى المتوفى سنة (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) كان أحد ورثة الأسرة الأيوبية، وأحد أمراء الأسرة الحاكمة فى مدينة حماه بل وحاكما لها مما أعطاه مكانة رفيعة فى المجتمع المملوكى، هذا فضلا على تمرسه على أيدى كبار المؤرخين وصلته الوثيقة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون مما مكنه من الإطلاع على الشئون السياسية والأمور العسكرية والقضايا الدقيقة المتعلقة بالسلطنة المملوكية، وكان عالماً فى عدة فنون نظم الحاوى فى الفقه، وتقويم البلدان فضلا عن تاريخه "المختصر فى أخبار البشر" الذى يعتبر من أقدر المصادر على تفسير وتحليل ووصف الأحداث التاريخية بالبراهين والأدلة لأنه شارك فى كثير من الحملات الحربية.

- **ابن أبى الفضائل** : المفضل مؤرخ قبطى يعتقد بأنه لم يكن من الشخصيات التى يرجع إليها فضل التوجيه فى المجتمع المصرى ومن ثم لم يشر إليه أحد من قريب أو بعيد من كتاب ذلك العصر.

وكتابه "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد" يشتمل على ما كان من أواخر سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٧م)، نهاية التاريخ الذى وصفه القبطى ابن العميد ـ المسكين جرجس ـ أخبار الأيوبيين ـ إلى شوال سنة (٧٥٩هـ / ١٣٥٧م) ومن المرجح أنه توفى بعد هذه السنة.

- **ابن أيبك الصفدى** : خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى ت (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ولد فى صفد بفلسطين وإليها نسبته ولع بالأدب وتراجم الأعيان وولى ديوان الإنشاء بمصر ودمشق، ووكالة بيت المال بدمشق فتوفى فيها من أهم مصنفاته الكثيرة "الوافى بالوفيات"، "أعيان العصر"، "تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب"، "قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة".

- **الصفدى** : الحسن بن أبى محمد عبد الله الهاشمى الصفدى أحد المقربين إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فكان أحد موظفى الإدارة المملوكية فقد أرسل للإشراف على زراعة الأراضى السلطانية بضاحية سرياقوس وكتابه

"نزهة المالك والمملوك فى مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك".

- **ابن فضل الله العمرى** : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى المتوفى سنة (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) : شغل والده وشقيقه بعض المناصب الإدارية الهامة فى الدولة المملوكية فقد كان والده كاتباً للسر، وشغل مؤرخنا نفس الوظيفة بالشام وقد غضب عليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون فاعتقله وصادره وقطع يده وسجنه كان أديباً مؤرخاً من أثاره "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار"، "التعريف بالمصطلح الشريف".

- **الجزرى** : محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن إبراهيم ابن عبد العزيز الجزرى الدمشقى ـ شمس الدين أبو عبد الله المتوفى سنة(٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م) كان أحد الشهود الرسميين وتولى الشهادة قبل القضاء ما يقرب من ستين عاماً ثم ترك وظيفته ورفض قبول أى وظيفة رسمية، درس الحديث على أيدى علماء دمشق والإسكندرية والقاهرة، وحدث به بعد أن أجازوا له ألف كتباً فى الحديث وشغف بفن التاريخ، وكتب فيه كتاباً بذل فيه جهد كبير هو "حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه.

- **اليونينى** : موسى بن محمد بن عبد الله البعليكى اليونينى، الحنبلى ـ قطب الدين أبو الفتح، أصله من بعلبك ولد وتوفى بدمشق، صار شيخ بعلبك بعد وفاة أخيه على توفى سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٦م) إختصر "مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان" لسبط بن الجوزى المتوفى سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وأسماه "مختصر مرآة الزمان" وذيل عليها ذيلاً عرف بإسم "ذيل مرآة الزمان" فى أربعة مجلدات.

- **الذهبى** : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ـ شمس الدين، أبو عبد الله المتوفى سنة (٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) تركمانى الأصل، من أهل ميا فارقين مولده ووفاته فى دمشق، رحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان، ويعتبر من العلماء الشوام الذين كان لهم دور بارز فى الكتابة عن تاريخ دولة المماليك، كف بصره سنة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) من تصانيفه "تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام"

وينتهي بأحداث سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، وكتاب "دول الإسلام" في جزءان وينتهى بأحداث سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٤م) وهو تلخيص لكتاب تاريخ الإسلام.

- **ابن الوردى** : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المصرى، الحلبى، الشافعى، المعروف بابن الوردى - زين الدين. المتوفى سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ولد بمعرة النعمان بسورية، وولى قضاء منبج ومات بالطاعون فى حلب من أهم تصانيفه الكثيرة فى اللغة والأدب تاريخه المعروف باسم "تتمة المختصر فى أخبار البشر" أراد به كما هو واضح من عنوانه أن يكون تتمه لتاريخ أبو الفدا الذى سبقت الإشارة إليه والمعروف بـ "المختصر فى أخبار البشر" غير أن الجديد الذى اشتمل عليه تاريخ ابن الوردى يعتبر ضئيلاً لأن الفرق بينهما ثمانية عشر عاماً فقط، وتتمثل أهميته فى أنه من المصادر المعاصرة لحكم الناصر محمد بن قلاوون.

- **ابن شاكر الكبتى** : محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكبتى، الدارانى الأصل، الدمشقى الشافعى - صلاح الدين المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٣م) ولد فى داريا من قرى دمشق ونشأ وتوفى بدمشق، كان فقيراً جداً، واشتغل بتجارة الكتب، فربح منها مالاً طائلاً، اهتم بكتابة التراجم فكانت فى رأيه التاريخ الحقيقى لذلك فهو يعرف بمؤلفه "فوات الوفيات" الذى أراد أن يكمل به كتاب ابن خلكان "وفيات الأعيان" وضمنه ٥٧٢ ترجمة، ومن مؤلفات ابن شاكر التاريخية الهامة "عيون التواريخ" ويقع فى ست مجلدات بدأه منذ عصر النبى - صلى الله عليه وسلم - متبعاً نظام الحوليات وانتهى بالأحداث التى وقعت قبل وفاته بأربع سنوات أى حتى سنة (٧٦٠هـ / ١٣٥٩م).

- **ابن كثير** : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن زرع القرشى البصروى ثم الدمشقى، الشافعى المعروف بابن كثير أبو الفداء عماد الدين المتوفى سنة (٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)، ولد بجندل قرية من أعمال بصرى الشام وإنتقل مع أخ له إلى دمشق سنة (٧٠٦هـ/٠٠٠٠) ورحل فى طلب العلم وعمل بالتدريس، ألف تاريخاً طويلاً عرف باسم "البداية والنهاية فى التاريخ" كما ألف فى تفسير القرآن

الكريم والحديث وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

- **ابن الفرات** : محمد بن عبد الرحيم بن على بن محمد ، ناصر الدين الحنفى المعروف بابن الفرات المتوفى سنة (٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)، ولى خطابة المدرسة المعزية بالقاهرة واهتم بتسجيل الأحداث السياسية والإقتصادية ونظم الحكم وغيره من الوثائق الرسمية وكتابه المشهور باسم "تاريخ ابن الفرات" أو "تاريخ الملوك" اسمه فى الأصل "الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك".

- **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد، ولى الدين الحضرمى الإشبيلى الأصل التونسى ، ثم القاهرى، المالكى المتوفى سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م). ويتميز ابن خلدون بأنه لم يكتب تاريخه المشهور "العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" - تاريخ ابن خلدون - إلا بعد أن تنقل فى البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين، وتقلب فى خدم دواوينهم، أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، كما سفر لأحد أولئك السلاطين وهو محمد الخامس سلطان غرناطة عند بيترو ملك قشتالة المسيحية ثم وفد ابن خلدون إلى مصر سنة (٧٨٣هـ/١٣٨٢م)، وكان قد انتهى من تاليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة، وحج أكثر من مرة، ودرس بالجامع الأزهر والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو، بل تولى منصب قاضى القضاة المالكية بمصر، كما رافق الحملة المملوكية التى قادها السلطان فرج بن برقوق إلى الشام سنة (٨٠٤هـ/١٤٠١م) لدفع يتمورلنك عن دمشق وشارك فى وفد المفاوضة للصلح بين الدولتين المملوكية والمغولية، واجتمع بتيمورلنك وأعجبه كلامه وبلاغته.

- **المقريزى** : أحمد بن على بن عبد القادر أبو العباس الحسينى العبيدى تقى الدين المقريزى المتوفى سنة (٨٤٥هـ / ١٤٤١م) أشهر مؤرخى العصور الوسطى من المصريين ولد سنة (٧٦٦هـ/١٣٦٤م) فى حارة برجوان وهى من

أعظم حارات القاهرة إمتلاء بالعمران والحياة، وجاءت أسرة المقريزي إلى القاهرة من بعلبك فى حياة أبية، وعرف باسم المقريزي نسبة إلي حارة المقارزة في مدينة بعلبك، وانكب على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره وأظهر نجابة ومقدرة، ثم التحق بالوظائف الحكومية، فكان أول عهده بها ديوان الإنشاء بالقلعة، حيث ظل يعمل موقعاً ـ أى كاتباً ـ حتى سنة (٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) ، ثم عين بعد ذلك نائباً من نواب الحكم ـ أى قاضياً ـ عند قاضى القضاة الشافعية، فإماماً لجامع الحاكم، ومدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية وفى سنة (٨٠١هـ / ١٣٩٨م) اختاره السلطان برقوق ـ وكان حفياً به مشجعاً إياه ـ لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين وفى سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) انتقل المقريزى إلى دمشق ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان النورى، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين الأشرفية والإقبالية هناك، ثم عينه السلطان فرج بن برقوق كذلك نائباً للحكم بدمشق إستيفاء لشرط الواقف أن يكون المتنظرون على أوقافها قضاة بها. لكن المقريزى أبى قبول هذه الوظيفة على الرغم من عرض الوظيفة عليه مراراً من قبل السلطان ، ويبدو أنه سئم الخدم الحكومية وضاق بتكاليفها، وأنه ملك من الموارد التى ربما ورثها عن أهله ما أغناه عن تضييع وقته فى كسب العيش، عن طريق الدواوين ومجالس الحكم ، المهم أنه عاد إلي القاهرة خالياً من عمل أو وظيفة لينكب على الدرس والإشتغال بالعلم وخاصة التاريخ وليمضى بقية حياته بحارة برجوان : ومن مؤلفاته تاريخ القاهرة المسمى "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، ويعرف بخطط المقريزى ثم كتاب عن الخلافة الفاطمية فى مصر وهو "إتعاظ الحنفاء فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"، ثم كتاب عن تاريخ الأيوبيين والمماليك عرف باسم "السلوك لمعرفة دول الملوك".

كذلك ألف المقريزى فى التراجم والسير كتابين أولهما "المقفى الكبير" وقدر له أن يكون فى ثمانين مجلداً لم ينجز منها سوى ستة عشر فقط والثانى هو كتاب "درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة" وكان الغرض منه أن يكون

لتراجم معاصرية غير أنه لم يفرغ منه.

كما ألف في قبائل العرب التي نزلت مصر "البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب".

كما اهتم بالتاريخ الاقتصادى والنميات وتاريخ المجاعات والطواعين ففى النقود كتب "شذور العقود فى ذكر النقود" وفى مجال الأوزان والأكيال كتب "رسالة فى الأوزان والأكيال"، أما عن المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) فكتابه عنها "إغاثة الأمة بكشف الغمة".

وهكذا كان المقريزى واسع القراءة والمعرفة والإطلاع كثير الدأب والمثابرة وكان رجلاً فاضلاً ديناً، مجداً أميناً فى عمله، كما شهد بذلك معاصروه وكما يشهد به ما خلفه من كتابات .

- **ابن حجر العسقلاني** : هو أحمد بن على بن محمد الكتانى العسقلانى، أبو الفضل شهاب الدين المتوفى سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، ولد فى مصر القديمة سنة (٧٧٣هـ/١٣٧٣م) وأصل أسرته من عسقلان بفلسطين حفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع، رحل فى طلب العلم إلى اليمن والحجاز والشام واشتهر فى التدريس والفتيا ولى سنة (٨٢٨هـ/١٤٢٤م) منصب قاضى القضاه الشافعية ـ المذهب الرسمى للدولة المملوكية ـ وظل متقلدا لهذا المنصب الخطير إحدى وعشرين سنة، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مراراً فى أثناء تلك الفترة الطويلة ـ ألف فى الحديث والفقه والتراجم فمن مؤلفاته التى زاعت شهرتها "فتح البارى فى شرح صحيح البخارى" فقد أرسل شاه رخ بن تيمورلنك وغيره من ملوك البلاد الإسلامية فى طلبه، و"إنباء الغمر بأنباء العمر" الذى يعتبر من أهم المصادر الأصلية لعصره فهو تاريخ للدولة المملوكية فى حياته ومن مؤلفاته " الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة" و "الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة" و "رفع الأصر عن قضاة مصر".

- **العينى** : محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد أبو محمد بدر الدين العينى

الحنفى أصله من حلب ومولده فى عينتاب - بين حلب وأنطاكية - قبيل المقريزى بأربع سنوات سنة (٧٦٢هـ/١٣٦١م) وأختير لوظيفة الحسبة سنة (٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) بدلاً من المقريزى فظلا متخاصمين بقية أيام حياتهما من أجل ذلك ، فى سنة (٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) جعله السلطان الأشرف برسباى الذى كان يحب العينى لتمكنه من اللغة التركية قاضيا للقضاة الحنفية إلى جانب الحسبة مدة إثنى عشر سنة متوالية، وأضيفت إليه فى أثنائها نظر الأحباس.

عاش العينى إحدى وتسعين سنة فقد توفى سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) بعد سنتين عزله عن القضاء بأمر السلطان جقمق تاركاً ثروة ضخمة من المؤلفات ... ة والتاريخية أهمها "عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان" الذى يعتبر من أهم مصادر التاريخية لعصر المماليك، لما يحتويه من المعلومات الأصلية والغزيرة ولأن العينى يشير فيه إلى المصادر التى أخذ عنها مادته التاريخية مثل ابن كثير، وبيبرس الدوادارى والنويرى وغيرهم ومن مؤلفاته أيضا "السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد أبى النصر شيخ" و "سيرة الملك الأشرف" و "الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر" و "الجوهرة السنية فى تاريخ الدولة المؤيدية" هذا غير مؤلفاته العديدة فى الفقه والحديث وطبقات الشعراء .

- ابن عرب شاه : أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم أبو محمد شهاب الدين المعروف بابن عربشاه: ولد فى دمشق سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) ولما غزا تيمورلنك ديار الشام غادرها وأسرته إلى سمرقند سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م) وزار بلاد المغول والحجاز وتركيا حيث اتصل بالسلطان العثمانى محمد بن عثمان وجاء إلى القاهرة سنة (٨٤٣هـ/١٤٣٩م) فرحب به مؤرخوها مثل ابن حجر والسخاوى وأبو المحاسن وأعجب بلباقته السلطان جقمق فدعاه للإقامة بالبلاط السلطانى، غير أنه وشى به عند السلطان بأنه يعمل ضد مصالح الدولة المملوكية بل ضد مصالح جمقق نفسه فقبض عليه وسجن بسجن المقشرة سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) ورغم تبرئته وإطلاق سراحه بعد خمسة أيام إلا أن قضى بقية حياته مهموماً منزويا إلى أن توفى سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) كان يجيد

الفارسية والتركية والمغولية فضلاً عن العربية من أهم مؤلفاته التاريخية. "عجائب المقدور فى أخبار تيمور" و "التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر "جقمق الذى صوره فيه بأنه صورة مجسدة للفضيلة والكتاب يشتمل على تفاصيل تاريخية قيمة.

- **ابن شاهين الظاهرى** : خليل بن شاهين الظاهرى - غرس الدين - ولد ببيت المقدس سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) حيث كان أبوه أحد أمراء المماليك بتلك النيابة الشامية ثم قدم ابن شاهين إلى القاهرة حيث درس الحديث على ابن حجر ثم التحق بفرقة أولاد الناس - الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك - وبفضل أنه كان حماً للسلطان برسباى استطاع أن يجمع فى يده بين وظائف النائب والحاجب والمشد بالإسكندرية سنة (٨٣٨هـ/١٤٣٤م) وتنقل فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام حتى أنعم عليه جقمق سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) بأعلى رتب فى دولة المماليك وهى أمير مائه مقدم ألف وتوفى سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) من أهم مؤلفاته كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" الذى أوضح فيه الوظائف الحربية والإدارية لدولة المماليك .

- **الخالدى** : محمد العمرى الخالدى بهاء الدين : عمل فى ديوان الإنشاء وتدرج فى وظائفه مثل ابن فضل الله العمرى صاحب كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" والقلقشندى صاحب كتاب "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا". عاش فى عهد السلطان برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) وكتب على أساليب الكتابة إلى مختلف الملوك فى الشرق والغرب كتاب اسمه "المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا"

- **أبو المحاسن** : يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الحنفى. أبو المحاسن جمال الدين، ولد بالقاهرة سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) بدار الأمير منجك اليوسفى، قرب مدرسة السلطان حسن، وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان برقوق، وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى (يونانى) اشتراه برقوق وجعله ضمن مماليكه - ثم اعتقه ورقاه إلى فرقة الخاصكية - إحدى فرق

المماليك السلطانية - وقلده العديد من المناصب الرفيعة فى الدولة المملوكية - وفى عهد السلطان فرج ابن برقوق تولى نيابة دمشق فكان رجلاً عارفاً حاز ما محباً للحلم والعلماء، وكانت له مشاركة فى بعض المسائل الفقهية ، وأسهم فى مدافعة تيمورلنك عن مدن الشام وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية، ثم تولى تغرى بردى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام - واتهم بالخيانة فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركمان، حيث أقام مدة منفياً، ثم عفا عنه السلطان فرج وطلب إليه العودة إلى القاهرة وولاه أتابكية العساكر بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة، وما زال تغرى بردى على نيابتها معززاً مكرماً إلى أن جاء الأجل فقضى نحبه سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) حيث ترك ستة أبناء وأربع بنات منهن خوند فاطمة التى تزوجها السلطان فرج بن برقوق سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) وكان أبو المحاسن أصغر أولئك الأولاد والبنات جميعاً، إذ توفى أبوه وهو فى الثانية من عمره فتولى تربيته قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفى زوج أخته الثانية واسمها بيرم حتى توفى ابن العديم سنة (٨١٩هـ/١٤٢١م) فتزوجت بيرم من قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى الذى لم يلبث أن توفى هو الآخر سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) فصار أبو المحاسن فى رعاية جماعة من أكابر مماليك أبيه فتعهدوا بنفقته وتنشئته وتعليمه على أحسن وجه، فدرس علوم عصره على علماء بمصر والشام والحجاز مثل المقريزى والعينى وابن حجر وابن عرب شاه بالقاهرة، وابن ظهيرة وابن العليف بمكة، والمرعشى وابن الشماع بحلب وغيرهم من مشاهير علماء المسلمين. غير أنه أحب التاريخ من دون العلوم التى درسها وأجيز له فيها فلازم المقريزى والعينى - من أجل ذلك ونهج نهجها وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره فضلاً عن معرفته باللغة التركية، ثم خلال له الجو بوفاة كل من المقريزى سنة (٨٤٥هـ/١٤٤٢م) والعينى سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) ولم يوجد من ينازعه فى زعامة المؤرخين.غير أن إنتهاء الزعامة إلى ابن تغرى بردى لم تجعل منه نديماً دانيا لسلطان من سلاطين المماليك، مثلما كان

العينى مع السلطان الأشرف برسباى، غير أنه تقلدا كثيراً من الوظائف الهامة في عهود مختلفة، وكان مولده ونشأته وقراباته ومصاهراته وصداقاته، ما جعله من رواد البلاط السلطانى فكان من المترددين إلى حضرة السلطان برسباى وصحبه فى حلقات وسرحات الصيد والنزهة، وكان ضمن رجال العلم والأدب الذين انتظمت زيارتهم لمجلس السلطان جقمق مرة كل أسبوع ، وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائده ومصاهرة، بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال حتى إن زياراته لبلاطه لم تعد المرة أو المرتين فى العام كله، ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشقدم الرومى الأصل مثله، وعاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباى وليكتب فى حوادثها بما يدل على أنه لم يلق فى بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولاً.

وتمكن أبو المحاسن خلال حياته الطويلة أن يكتب كثيراً من المؤلفات فى التاريخ والتراجم بلغ عددها إثنا عشر كتاباً وصلنا منها سبعة فقط أهمها كتاب فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى حتى سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) وهو "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" الذى ألفه من أجل صديقه السلطان المرجو الأمير محمد بن جقمق الذى توفى سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م) قبل أن يتحقق ذلك الرجاء، وما أورده ابن تغرى بردى فى هذا الكتاب من الأحداث كان أقرب إلى الحقيقة مما أورده غيره من المؤرخين بسبب قربه من بلاط السلاطين والأمراء كما ألف كتاباً آخراً حافل بتراجم الأعيان والنابهين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما، وأراد به أن يكون ذيلاً وتكمله لكتاب الوافى بالوفيات لخليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وهذا الكتاب هو "المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى" ثم اختصره فى كتاب اسمه "الدليل الشافى على المنهل الصافى" ثم جعل لهذا المختصر مختصراً اسمه "مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة" ولأبى المحاسن كتاب آخر اسمه "حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور" وهو ذيل لكتاب السلوك لأستاذه المقريزى بدأه حيث إنتهى المقريزى سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) وانتهى به إلى سنة

(٨٥٥هـ/١٤٥١م) ومن مؤلفاته أيضا كتاب "نزهة الرائى" فى التاريخ وكتاب "البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر" هذا غير كتب عديدة فى فنون وعلوم متنوعة منها على سبيل المثال رسالة فى معانى اللغة التركية وهى "الإنتصار للسان التتار".

وتتصف مؤلفات أبى المحاسن أيضا بأنها سليمة من الناحية اللغوية فابن الصيرفى يقول فى ترجمته عنه أنه كان "كلما فرغ من تصنيف يتوجه به إلى من يعرف العربية، فيصلحه له ويصير له به مزيه" غير أن السخاوى فى ترجمته له فى الضوء اللامع اتهمه بإختلاط ألفاظه وأقلامه.

- ابن الصيرفى : على بن داود بن إبراهيم، نور الدين، الجوهرى الإسرائيلى المعروف بابن الصيرفى - وابن داود ولد بالقاهرة سنة (٨١٩هـ/١٤١٦م) كان أبوه داود صيرفى بدواوين الدولة المملوكية توفى سنة (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) تولى على خطابة جامع الظاهر برقوق وكان شيخه ابن حجر يصلى خلفه هناك واشتغل بالتجارة بعد وفاة أبيه بسوق الجوهريين فلقب بالجوهرى، وابتنى بعض الدور بحكر الشامى بالقاهرة وأسكنها بالأجرة - ثم تقلبت به الأحوال فنفذ غالب ما عنده واحتاج، فولاه قاض القضاة محب الدين بن الشحنه الحنفى نائبا للحكم (قاضياً) واشتغل بنسخ الكتب فنسخ كتب ابن حجر وأبى المحاسن والسخاوى فى التاريخ، ومن ثم كان اشتغاله بالتأليف فى التاريخ فألف "نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان" بدأه بسلطنة برقوق سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) واختتمه عند السنة الثامنة من سلطنة جقمق (٨٥٠هـ/١٤٤٦م) وله "إنباء الهصر بأبناء العصر". وكانت وفاته سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٤م).

- **السـخاوى :** محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبو الخير شمس الدين السخاوى أصله من بلدة سخا من قرى الغربية وولد سنة (٨٣١هـ/١٤٢٧م) بحارة بهاء الدين المجاورة لباب الفتوح كان أبوه وجده يتكسبان بتجارة يسيرة فى سوق الغزل ويكثران من حضور مجالس رجال الدين، ولذا كان معظم شيوخ السخاوى من رجال الدين أصحاب أبيه مثل ابن حجر الذى كان شديد العناية به حتى أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه فى حفل عرس السخاوى (٨٤٨هـ/١٤٤٤م) وجهد فى توظيفه بوظائف تدريس الحديث، وكان السخاوى على صلة قوية بالأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى زمن السلطان خشقدم وأعظم شخصية فى الدولة المملوكية مدة حكم قايتباى فعينه على إحدى وظائف تدريس الحديث ومن تأليفه الكثيرة كتاب "التبر المسبوك فى ذيل السلوك" تكملة لتاريخ المقريزى المشهور وكان تأليفه له إجابة لرغبة الأمير يشبك ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" الذى يعتبر فخر مؤلفات السخاوى وله "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ". وكانت وفاة السخاوى بالمدينة المنورة سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م).

- **ابن إيـاس :** محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ـ أبو البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلاً منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان و البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلاً منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان و البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلاً منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان و البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلاً منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان و البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلاً منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان مشاهير أولاد الناس كثير

العشرة للأمراء وأرباب الدولة .

وهكذا يتضح أن ابن إياس نشأ فى وسط مملوكى بحت، وأنه كان يمت بصلة القرابة إلى بعض رجال الدولة فى عصرى قايتباى وقانصوه الغورى، وأنه كان يعتمد فى معيشته على دخله من إقطاعه الوافر باعتباره أحد أولاد الناس غير أن الغورى أخرج أولاد الناس ومن بينهم ابن إياس عن إقطاعه بسبب تأزم أحواله المالية، فذهب عنه إقطاعه الوافر إلى أربعة من المماليك غير أنه لم يبقى بغير إقطاع مدة طويلة، إذ وقف السلطان الغورى أوائل سنة (٩١٥هـ/١٥١٠م) بقصة وهو فى طريقه للعب الكرة بميدان القلعة يشكو فيها حاله فاستجاب السلطان لشكاوته ورد عليه إقطاعه وظل على ذلك حتى وفاته سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٤م) وكان مجداً فى كتابة التاريخ دءوباً على تدوين الحوادث دقيق الملاحظة شديد الاستقصاء للحقائق الأمر الذى يشهد عليه ضخامة مؤلفاته التى منها "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" وهو كتاب شامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى ويعتبر أحد المصادر الهامة لعصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثمانى بمصر ومن مؤلفاته "عقود الجمان فى وقايع الأزمان" و "نزهة الأمم فى العجايب والحكم" وغير ذلك من مؤلفات فى الفلك والبيئة وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية وملوكها.

- السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضرى السيوطى - جلال الدين أبو الفضل - من أسرة ينتهى نسبها إلى شيخ من المتصوفة إسمه همام الدين الخضيرى - نسبة إلى محلة الخضيرية ببغداد، ثم جاء هذا الشيخ إلى أسيوط وعاش بها فى العصر الأيوبى، وأقامت أسرته بها جيلاً بعد جيل، وأخرجت رجالاً نابهين فى المجتمع الأسيوطى فى العصور الوسطى منهم نائب الحكم (القاضى)، والمحتسب، والتاجر، والمتمول الخير، أما محمد والد عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من أقام من تلك الأسرة بأسيوط فرحل فى حداثته إلى القاهرة لطلب العلم والتعليم، وأفاد من صلة والده بالأمير شيخو ـ الذى ساعده فى أثناء قيامه بإخماد ثورة الأحدب بالصعيد سنة

(٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م) فى عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد ـ فتولى درس الفقه بالجامع الشيخونى ـ بسويقة منعم فيما بين الصليبه والرميلة بالقاهرة ـ وخطب بجامع ابن طولون، وألف كثيراً فى الفقه والنحو وتوفى ـ سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م).

ولد جلال الدين عبد الرحمن بالقاهرة (٨٤٩هـ/١٤٤٥م) أى كان عمره ست سنين عند وفاة والده وإستطاع أن يختم القرآن وهو دون الثامنة، ثم أخذ فى طلب العلم بأنواعه، كالتفسير والحديث والفقه، والنحو والمعانى والبيان والبديع والفرائض والقراءات والطب، وبلغ فيها درجات متفاوتة من الكمال حتى فاق أشياخه كلهم إلا الحساب والمنطق فإنه كرههما وثقلا عليه لعدم ملاءمتهما طبيعته، وتولى تدريس الفقه بالجامع الشيخونى بسعايه شيخه البلقينى سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م)، ثم تصدى للإفتاء وإملاء الحديث بجامع ابن طولون سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، ثم أضيفت إليه وظيفة تدريس الحديث والإسماع بالخانقاه الشيخونية سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م) بمساعدة الأمير إينال، كما تولى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام، ثم انتقل منها إلى مشيخة الخانقاة البيبرسية سنة (٨٩١هـ/١٤٨٦م) وهى أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافاً فى عصره بسعاية الخليفة العباسى المتوكل على الله عبد العزيز.

ولما بلغ السيوطى الأربعين سنة إعتزل الناس فى روضة المقياس على النيل وانقطع للعبادة وتحرير مؤلفاته التى أربت على الخمسمائه، فألهاه التكاثر عن الاتقان وجاءت أكثر مؤلفاته جمعاً لا تأليفاً، وكانت مؤلفاته التاريخية ليست سوى شيء قليل بالقياس إلى كتبه فى غير التاريخ من العلوم، فمن هذه المؤلفات التاريخية كتاب "حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة" وهو تاريخ للبلاد المصرية والقاهرة عاصمتها مع بعض فصول إضافية فى النظم المملوكية وطبقات العلماء والصوفية فى مصر وقد كتبه السيوطى فى عصر السلطان قايتباى، ومن مؤلفاته التاريخية أيضا "تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين" وكتاب "تاريخ السلطان الأشرف قايتباى" وكتاب "تاريخ أسيوط" التى كان أبوه

من سكانها ، وكتاب "كوكب الروضة" عن جزيرة الروضة جنوبى القاهرة ، وكتاب "الشماريخ فى علم التاريخ" وهو عن سبب إتفاق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ للتاريخ الإسلامى، وإجماعهم على اعتبار المحرم أول الشهور، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية.

والحق أن السيوطى لم يكن مؤلفاً فى معظم كتبه، بل إنه جمع فأوعى فقط واختصر ولخص فحسب، وظل السيوطى منزوياً فى بيته بالروضة حتى مات سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م).

- **عبد الباسط الملطى** : هو : عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى، زين الدين الحنفى : سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة، والده الأمير خليل بن شاهين ووالدته الأمير أصيل شقيقه زوجة السلطان برسباى، ولد سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) بملطية بأطراف آسيا الصغرى حيث كان والده متوليا نيابتها من قبل السلطان جقمق، تنقل مع أبيه إلى حلب، والخليل، والقدس ودمشق وبغداد والقاهرة ومكه وطرابلس، فتلقى علوم عصره على شيوخ مختلفين، ومنهم أبوه الذى أقرأه الكثير من الكتب فى شتى العلوم، كما علمه اللغة التركية، كما رحل إلى المغرب فى طلب العلم فدرس النحو والكلام والطب ثم استقر بالقاهرة بعد وفاة أبيه خليل سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) فنزل بالخانقاة الشيخونية وتصوف وتعرف على السيوطى والسخاوى الذى اعتبره من تلاميذه فى التاريخ، ولم تشر المصادر إلى عمل رسمى تولاه فى الدولة المملوكية ومن مؤلفاته "نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين"، و "نيل الأمل فى ذيل الدول" وهو ذيل لتاريخ الذهبى ويتضمن حوادث السنوات من (٧٤٤هـ/١٣٤٣) إلى (٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م) وله كتاب "الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم" وهو ذيل لتاريخ أبو المحاسن كما ألف فى الطب "شرح القانونشة" والفقه كما نظم كثيراً من الشعر وتوفى عبد الباسط بعد أن مرض بالسل مرضاً ألزمه داره أكثر من سنة سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م).

- **ابن الطولونى** : حسن بن حسين الطولونى ولد سنة (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) من

أسرة اشتغل كثير من أبنائها بالهندسة والمعمار منذ أيام الدولة الأيوبية، فكان منهم دائماً "معلم المعلمين" أى كبير المهندسين وزادت مكانة تلك الأسرة حين تزوج السلطان برقوق من أخت أحمد بن الطولونى – معلم المعلمين، ثم تزوج برقوق من ابنه أحمد بن طولون بعد طلاق عمتها وجعله من أمراء المماليك برتبة أمير عشرة، وظل على ذلك حتى وفاته سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م) ، المهم أن مؤرخنا نشأ على مهنة آبائه وكافأة السلطان إينال على مساعدته فى اعتلاء دست السلطنة المملوكية بأن عينه فى وظيفة "معلم المعلمين" فظل متولياً لها سبعة عشر عاماً، تخللتها عهود السلاطين إينال وابنه احمد، وخشقدم، وبلباى، وتمربغا، وقايتباى الذى عزله لوشاية لم تذكرها المصادر ، ولكنه لم يلبث أن أعاده بسعاية الأمير يشبك وظل على وظيفته حتى ولاه السلطان محمد بن قايتباى نيابة القلعة كذلك غير أن ابن الطولونى أصيب بالعمى وعزل عن وظيفته المعمارية التى استقر فيها بعده ابنه شهاب الدين أحمد الذى حمل مع فئات المعلمين والصناع إلى اسطنبول بأمر السلطان سليم وتوفى ابن الطولونى سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) ومن مؤلفات ابن الطولونى التاريخية كتاب "النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية" وهو مختصر يبدأ بظهور الإسلام وينتهى بحوادث السلطان طومان باى أخر سلاطين المماليك بمصر.

– **ابن زنبل الرمال :** أحمد بن على بن أحمد بن زنبل المحلى الرمال لا توضح المصادر عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثمانى فى وقت ما، وأنه رافق جيش السلطان سليم أثناء الحروب التى أنهت دولة المماليك بمصر والشام، وأنه حضر جنازة طومان باى أخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان سليم العثمانى اشتغل بالرمل والتنجيم فلقب "بالرمال" وكتب فيها "المقالات فى السحر والرمل" و"قانون النجامة" ، كما كتب فى التاريخ كتاب "تاريخ أخذ مصر من الجراكسة" وهو سجل واف لحوادث الفتح العثمانى لمصر وتشير المصادر إلى أن ابن زنبل توفى بعد سنة (٩٦٠هـ/١٥٥٢م) .

- **ابن طولون الدمشقي :** محمد بن على بن أحمد (المدعو محمد) الشهير بابن طولون الدمشقى، الصالحى، الحنفى – شمس الدين أبو عبد الله – ولد سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م) بصالحية دمشق بالسهم الأعلى قرب المدرسة الحاجبية ؛ وإليها نسبته، توفيت أمه أزدان الرومية وهو فى سن الطفولة، تعلم على شيوخ دمشق ومنهم عمه القاضى جمال الدين يوسف الحنفى مفتى دار العدل بها، والمؤرخ الدمشقى محيى الدين النعيمى، والمحدث جمال الدين ابن المبرد، ثم رحل فى طلب العلم إلى مكة سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) فسمع بها على الحافظ عز الدين بن فهد وأجازه السيوطى إجازة بالمكاتبة من القاهرة، بلغت عدة شيوخه خمسمائة، وله مشاركة فى سائر العلوم حتى فى التعبير والطب وله نظم وليس بشاعر، واشتغل ابن طولون بوظائف عديدة من تدريس وإقراء وإمامة وخطابة، ومشارفة وفقاهة ومشيخة، بمختلف معاهد دمشق وجوامعها وزواياها وخوانقها، كانت أوقاته كلها معمورة بالعلم والعبادة وظل على وظائفه برغم ماجرى على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح العثمانى ولم يتزوج ولم يعقب وتوفى بدمشق فى ١١ جمادى الأولى سنة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، من مؤلفاته التاريخية "مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان" وهو الكتاب الذى يعد من المصادر الهامة فى كتابه تاريخ مصر فى أواخر العصر المملوكى وأوائل العصر العثمانى، لإنفراده بحقائق تاريخية هامة فى الفتح العثمانى وأسبابه وحوادثه، واشتماله على ما رآه من حوادث ذلك الفتح بدمشق، مما لم يتح لإبن إياس أن يراه وهو بالقاهرة، ومنها أيضا كتاب "الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام" الذى طبع بعنوان "قضاة دمشق" وله "إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى".

كما ألف فى التراجم عدة كتب أهمها كتاب "سلك الجمان فيما وقع لى من تراجم ملوك بنى عثمان".

واعتبر محمد بن طولون أن مؤسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون جده الأعلى، لذلك قام بكتابة كتابين عن تاريخ الدولة الطولونية أحدهما هو كتاب

"العقود اللؤلؤية فى الدولة الطولونية" وثانيهما كتاب "حور العيون فى تاريخ ابن طولون" وهو تلخيص لكتاب أبى محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى "سيرة أحمد بن طولون" هذا وغير ذلك كثير فى مختلف العلوم والمواضيع والصناعات.

المماليك

بداية ظهور المماليك فى العالم الإسلامى :

اتخذ لفظ المماليك معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً نتيجة للأسر فى الحرب أو الشراء من التجار(١) ، ويرجع ظهور المماليك فى العالم الإسلامى إلى ما قبل قيام دولتهم سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) بأمد طويل، وكان الخلفاء العباسيون أول من استخدم المماليك – أو الرقيق الأبيض – وإعتمروا عليهم في توطيد نفوذهم والمعروف أن الدولدة العباسية قامت علي أكتاف الفرس، ولكن الخفاء العباسيين وبخاصة أيام الخليفة المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ/٨١٣ – ٨٣٣م) أخذوا يخشون إزدياد نفوذ الفرس ويتشككون فيهم فأرادوا أن يحملوا أنفسهم بجيش من المماليك الترك ويعتمدون عليهم في دعم نفوذهم وسلطانهم.

لذلك كان المأمون أول من استكثر من شراء المماليك، ثم حذا حذوه الخليفة المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧هـ/٨٣٣ – ٨٤٣م) إذ شكل فرقاً عسكرية من الأتراك وعني بإقتنا أبناء الجنس صغاراً حتى بلغت عدة مماليكه بضعة عشر ألفاً، وإمتلأت بغداد بأولئك العسكر الجدد الذين. ألبسهم المعتصم أفخر الملابس، وسمح لهم بركوب الخيل فى شوارع بغداد، مما أدى إلى اصطدامهم بالناس فى الطرقات ، وإثارة سخط أهل العاصمة ، مما حمله على أن ينشىء لهم مدينة خاصة فى سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م إلى الشمال من بغداد هى مدينة سامراء أو سر من رأى، والواقع أن المعتصم أراد باستخدام الجنس التركى أن يتخلص من النفوذ الفارسى والعربى فى الجيش والحكومة سواء لذا لجأ

---

(١) عن الرق، تاريخه ومصادره وموقف الحضارات السابقة والديانات السماوية من الرق: انظر : د. عبد العزيز محمود عبد الدايم. الرق فى مصر فى العصور الوسطى ـ القاهرة مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٣م.

إلى تملك الأتراك بالشراء وتربيتهم وإعدادهم للجيش، إعتقاداً منه خطأ بأنهم مجردون من الطموح الذى إتصف به الفرس، ومن العصبية التى عرف بها العرب، ولكن سرعان ما أخذ أولئك الأتراك المماليك فى التدخل فى شئون الدولة حتى أمست فى أيديهم يفعلون بها ما يشاءون، بعد أن نجحوا فى أن يضعفوا النفوذ العربى وكذا النفوذ الفارسى.

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك فى كثير من أرجاء الدولة الإسلامية فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات فى الاستقلال من جهة أخرى إلى إعتمادهم على ما يشترونه من مماليك فى تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم، وسرعان مايحظى هؤلاء المماليك الصغار بعطف سادتهم فيتحررون ويزداد نفوذهم حتى يسيطرون على مقاليد الأمور فى البلاد التى استوطنوها.

وكانت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التى شهدت هذا التطور نحو إزدياد نفوذ المماليك حتى تملكوا البلاد، فعلاقة المماليك بمصر أبعد عهداً من قيام دولتهم بها.

وقد كان أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م) أحد أبناء هؤلاء المماليك الأتراك، كان أبوه طولون مولى نوح بن أسد بن سامان السامانى عامل بخارى وخراسان، أهداه نوح فى جملة مماليك إلى الخليفة المأمون وهو بمرور سنة (٢٠٠هـ/٨١٥م) فتدرج طولون فى حياة المماليك بالمجتمع العباسى حتى صار رئيس الحرس الخليفى وتمكن من تربية ابنه أو متبناه أحمد تربية عسكرية إسلامية أهلته لأن يصبح حاكماً على مصر سنة (٢٥٤هـ/٨٦٨م) نيابة عن زوج أمه باكباك صاحب إقطاعها.

ونتيجة لطمع أحمد بن طولون فى أن يحقق لنفسه شيئا من الإستقلال بمصر انتهز فرصة ثورة عيسى بن الشيخ بن السليل الشيبانى عامل فلسطين والأردن على الخلافة، فأرسل يستأذن الخلافة فى الإكثار من قواته وتكوين الجيش من الموالى والعبيد، فأذن له الخليفة بل كتب إلى ابن المدبر عامل

الخراج يأمره بأن يمده بحاجته من المال، وتجلت همة ابن طولون وعبقريته وبعد نظره فى تكوين الجيش، فأكثر من شراء المماليك الديالمة سكان جنوب بحر قزوين وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف مملوك، وبلغ مشترى عبيده السود أربعين ألفاً وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة.

ويذكر المؤرخون أن ابن طولون كان شديد الحرص على العناية بهم وتوفير أسباب الراحة لهم مع التدريب الشاق ليكونوا على استعداد تام، ونتيجة لضخامة هذا الجيش المكون من "المماليك والعبيد" اضطر أحمد بن "طولون إلى بناء ثكنات لهم وهى القطائع التى شرحها لنا المؤرخ أبو المحاسن أنها كانت "بمعنى الأطباق التى للمماليك السلطانية الآن" أى فى عصر المماليك، وكانت أشهر أسواق الرقيق فى الدولة الطولونية رحبة دار أحمد بن المدبر، ونشير إلى أن كثيراً ممن دخل الجيوش الطولونية رقيقاً تحرر فيما بعد.

ثم جاءت الدولة الأخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م) فسارت على سنة أسلافها الطولونيين فى اتخاذ المماليك الذين ينخرطون فى سلك الجيش بعد عتقهم وكان الجيش يتألف من ترك وسودانيين ومغاربة ومماليك وأجناس مختلفة وقد بلغت عدة ذلك الجيش أربعمائة ألف جندى عدا حرسه الخاص الذى بلغ عدده ثمانية آلاف مملوك، وكانت مماليكه تحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك ولما جاء الفاطميون إلى مصر (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) كانوا فى حاجة إلى جيش كبير يوطد أركان دولتهم فيها ويسهل عليهم ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى بلاد الشرق، وكان جيشهم يتألف من عدة عناصر أهمها المغاربة الذين قامت الدولة على أكتافهم وقد كانوا عدة طوائف منها الكتامية والباطلية والمصامدة والجودرية، وكذلك الصقالبة الذين أتوا بهم من المغرب وكذلك الأتراك، ونتيجة للصراعات والتنافس بين الأتراك والمغاربة اضطر الخليفة الحاكم إلى الاستكثار من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين وفى عهد المستنصر مال إليهم بصورة كبيرة لأن أمة كانت أمة سوداء فبلغ عددهم خمسين ألف عبد ضد طوائف العسكر الأخرى.

ويعتبر الفاطميون هم أول من وضع نظاماً تربوياً للمماليك فى مصر، ويروى المقريزى أن الأساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيراً من أسرى الحروب، وجرت العادة "أن الأسرى ينزل بهم فى المناخ - جهة الإسماعيلية بالقاهرة اليوم (ميدان التحرير الآن) فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى، وتحمل بالنساء والأطفال إلى القصر بعدما يعطى منهم الوزير طائفة ويفرق ما بقى من النساء على الجهات والأقارب فيستخدمونهن ويربونهن حتى يتقن الصنائع، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ويقال لهم الترابى، وفيهم من صار أميراً من صبيان خاص الخليفة"، ولكن لم تخصص هذه الطائفة للحياة الحربية وميادين القتال بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر.

وهناك نظام تربوى أخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحجرية وهم فرقة من أولاد الأجناد وعناصر المماليك ، بلغ عددها خمسة آلاف راجل، أسكنها المعز فى سبع حجر وتقع ما بين باب النصر إلى باب الجوانية وهى تشبه كما يقول المقريزى الطباق، ولكل حجرة اسم تعرف به وهى المنصورة والفتح والجديدة، وكان هؤلاء المجندون يخضعون لنظام دقيق فجعل لكل مائة زماماً ونقيباً وزم الكل بأمير، وقسموا إلى قسمين "الحجرية الكبار" و "الحجرية الصغار" ولعل هذا التمييز راجع إلى سن المجندين أو إلى التفوق والشجاعة فى التدريب على الحرب، وقد كان على هؤلاء المجندين أن يتعلموا إمتطاء صهوة الجواد بمهارة ، ولذلك أعد لهم إصطبل برسم دوابهم يعرف باسم "إصطبل الحجرية" بجوار باب الفتوح وكان ما بين الإصطبل والحجر فضاء متسعاً، وكان يجب على هذه العناصر أن تكون دائماً متحفزة للحرب فإذا دعى أحدهم "لايكون له مايمنعه" على القتال، ومتى عرف ... بالشجاعة رقى إلى مرتبة الإمرة أو التقدمة مثال ذلك على ابن السلار.

ولما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين (٥٦٧ - ٦٤٨هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠م)

سار الأيوبيون على سنة السلاجقة وأتا بكتهم فى الإكثار من المماليك الأتراك واستخدامهم فى الجيش ، فكان جيش صلاح الدين يتكون من عدة فرق منها المماليك والأمراء النورية نسبة إلى السلطان نور الدين محمود منهم مملوكة عز الدين جرديك الذى قتل شاور الوزير الفاطمى ومنهم غرس الدين قليج وشرف الدين برغش وعين الدولة بن الياروقى، كما كان لبعض القواد فرق من المماليك تنسب إليهم وخدمت فى جيش صلاح الدين منها المماليك الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وعدتهم خمسمائة مملوك، مالوا إلى صلاح الدين عقب وفاة عمه سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) وناصروه فى الخلاف الواقع بينه وبين القادة النوريين فيمن يتولى الوزارة الفاطمية، وكان يضرب بهم المثل فى الشجاعة والإقدام ومن أعيانهم الفقيه عيسى الهكارى، وبهاء الدين قراقوش وزير أشغال صلاح الدين وصاحب الأخبار الطوال فى بناء عمائرة الحربية .

وقام صلاح الدين بشراء مجموعة من المماليك الأتراك وكون منهم فرقة لنفسه يقال لهم المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبة "الملك الناصر" الذى أضفاه عليه الخليفة العاضد حين ولاه الوزارة أو جند الحلقة، ومن كبار أمرائهم علم الدين كرجى، وسيف الدين سنقر الدورى، وأيبك الساقى وركن الدين منكورش، وفارس الدين ميمون القصرى، وكان قائدهم الأمير أبى الهيجاء وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م حدث كثير من المنازعات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبى، وذلك راجع إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثاً خاصاً يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت الأيوبى، وهو ما جرى عليه العرف فى دول الشرق والغرب أوائل العصور الوسطى، كما يرجع إلى حرص صلاح الدين أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم مثل أخيه العادل وأقدر القادرين على إمتلاك ناصية الدولة بعدة بناء على وصية علم الدين سليمان بن جندرله، وظل النزاع بين أبناء البيت الأيوبى قائماً حتى تمكن العادل من توحيد كلمة بنى أيوب.

وكان من الطبيعى أن تزداد أعداد المماليك الأتراك فى أثناء النزاع بين

أبناء صلاح الدين وعمهم العادل، وأن يستمر بنو أيوب فى جلب الرقيق لتغذية جيوشهم، ولذا يحفل التاريخ الأيوبى بأسماء فرق المماليك، فنجد المماليك العزيزية نسبة إلى العزيز صلاح الدين الذين وصفوا بأنهم ملوكاً فى الأرض، والعادلية نسبة إلى العادل، والأشرفية نسبة إلى الأشرف موسى بن العادل، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل ، وهكذا.

وكان أكثر الأيوبيين إستجلاباً للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧هـ/ ١٢٤٠ - ١٢٤٩م) الذى أجمع المؤرخون على القول بأنه أكثر من شراء المماليك حتى كان معظم جيشه منهم، ورباهم تربية عسكرية واهتم بهم وقبض على الأمراء الذين كانوا فى خدمة أبيه وأخيه واعتقلم واستعاض عنهم بأن أعطى مماليكه الأمريات والمناصب، فصاروا بطانته والمحيطين به، ولكنهم سرعان ما كثر فسادهم وعبثهم وشرهم بعدما كانت تأخذهم "الرعدة عندما يشاهدونه خوفاً منه ولا يبقى أحد منهم مع أحد"، حتى ضج الأهالى من عبثهم وإعتداءاتهم، ففكر الملك الصالح أيوب فى نقلهم إلى جزيرة الروضة فأسكنهم بها، كما اتخذها مقراً لملكه سنة (٦٣٨هـ / ١٢٤١م).

وكان معظم المماليك (الرقيق الأبيض) الذين جلبهم السلاطين الأيوبيون من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وأسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر بالإضافة إلى مماليك جلبوا من البلاد الأوربية.

وكان للنصر الكبير الذى حققه المماليك على الصليبيين ـ الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ـ فى المنصورة فى يوم الثلاثاء ٨فبراير سنة١٢٥٠م الموافق ٤ ذى القعدة سنة٦٤٧هـ حتى ذكر المقريزى أنهم أبلوا بلاء حسناً وبات لهم أثر جميل بعد أن "كادت الكسرة أن تكون فإن الملك ريدا فرنس وصل بنفسه(١) إلى باب قصر السلطان إلا أن الله لطفه، أخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التى تعرف بالبحرية

ونتيجة لسوء معاملة المعظم تورانشاه ابن الصالح ايوب لزوج أبيه شجر الدر واتهامه لها بأنها أخفت ثروة أبيه، وإحضاره الشر للمماليك بعد أن سيطر عليه شعور بأنهم يزاحمونه الحكم ويقاسمونه سلطته، أن قتله المماليك فى المحرم عام ٦٤٨هـ ابريل ١٢٥٠م، ويعتبر تورانشاه أخر سلاطين الأيوبيين في مصر فقد استقر رأى المماليك على تولية شجر الدر زوجة الصالح التى كانت من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك لذلك اعتبرها المقريزى "هى أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك".

---

(١) المقصود هنا Count of Antois وليس ملك فرنسا.

انظر : جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة د. حسن حبشى ص١١٤.

قيام دولة المماليك

نهاية الدولة الأيوبية فى مصر :

تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب من الوصول إلى منصب السلطنة سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) بفضل مماليكه الذين دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثانى (٦٣٥ – ٦٣٧هـ/١٢٣٧ – ١٢٤٠م) بن الملك الكامل الذى كان طفلاً غراً ليس له صفات أبيه، وكان الملك الصالح ذا شخصية قوية، شهد عصره **حدثين خطيرين أولهما** : أستمرار تحرك وزحف المغول فى الأراضى الإسلامية بعد وفاة جنكيزخان سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، فقد أوغل باطو بن دوش خان فى أذربيجان حتى أزال الدولة الخوارزمية وقتل سلطانها جلال الدين خوارزم شاه سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) بعد أن قاومتهم مقاومة عنيفة ، وكان من نتائج القضاء على الدولة الخوارزمية أن تفرق جندها وساءت أحوالهم، وكان إنهيار المقاومة الخوارزمية إيذان بقرب الخطر المغولى على جوف البلاد الإسلامية، فتقدم الجنود الخوارزمية يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يريد استخدامهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة فقصد فريق منهم بلاد سلاجقة الروم فاستخدمهم السلطان علاء الدين كيقباذ السلجوقى إلى أن مات سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) وفى عهد ابنه السلطان غياث الدين ساءت علاقته بالخوارزمية فهربوا من بلاده وعبروا الفرات وعددهم إثنا عشر ألف فارس، وقد اتصل بعض هؤلاء الخوارزمية بجيش الملك الصالح نجم الدين أيوب فى الشام ومصر، فأفاد من خدمتهم وخاصة فى الشام بعد أن استمالهم فقد تزوج مقدمهم حسام الدين بركة خان من أخت الصالح من أمه .

وحدث أن وصلت إلى الشام فى ذلك الوقت إحدى الحملات الصليبية - التى كان من رجالها سيمون دى منتفرات - فتقدم الملك الصالح ومعه هؤلاء الخوارزمية إلى بيت المقدس فدخلوها فى صفر سنة (٦٤٢هـ / ١١ يوليو سنة ١٢٤٤م)(١).

وتم تحرير مدينة القدس وعادت نهائياً إلى المسلمين على أيدى الخوارزميين، ولم يقدر لجيش مسيحى أن يدخل أبوابها إلا بعد حوالى سبعة قرون أثناء الحرب العالمية بقيادة اللبنى .

وثانى الحدثين الخطيرين اللذين شهدهما عصر الصالح نجم الدين أيوب هو : حملة لويس التاسع على مصر، ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس استثار الغرب الأوربى من جديد، فبدأت الدعوة لحرب صليبية جديدة قوية، وكان أكبر المتحمسين لها الملك القديس لويس التاسع الذى خرج على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر، ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج من غرب أوربا بقصد الإستيلاء على مصر، فقد سبق أن تعرضت مصر قبل ذلك بثلاثين سنة لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة بزعامة حنا برين، ولكن حملة لويس التاسع على مصر كانت أعظم خطراً، لكونها أكثر عدداً وعدة وأوفر تنظيماً، فضلاً عن أنه كان على رأسها ملك من أعظم ملوك الغرب الأوربى وأشدهم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية.

وقد حاول لويس عند التمهيد للحملة أن يزيل ما بين البابا إنوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثانى من خلاف، ولكنه لم يوفق، وقد دعا البابا فى نفس الجلسة التى أعلنت فيها الحملة الصليبية على مصر إلى حملة صليبية أخرى على فردريك بإعتباره خارجاً على الكنيسة محروماً منها .

---

(١) انظر : عبد العزيز عبد الدايم : بيت المقدس فى العصر الأيوبى - القاهرة - دار الثقافة العربية ١٩٨٩م ص ١٦٦ - ١٦٨ .

ومن أسباب خطورة حملة لويس التاسع أنه أتى إلى مصر فى الوقت الذى كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب يعانى مرضاً خطيراً ولا يقوى على الحركة لمنازلتهم، فاستولى الصليبيون على دمياط بعد أن انسحب الأمير فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة إلى المعسكر السلطانى بأشموم طناح ، ونزوح أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين، وتركوا مراكب التعدية فعبرت جيوش لويس عليها بدون عناء وإحتلوا المدينة بسهولة .

أخطأ لويس التاسع بتأخره فى التقدم جنوباً، إذ كان يجب عليه أن يتقدم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان، وقبل أن يفيق المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط، غير أنه أقام فى دمياط ستة أشهر منتظراً وصول مراكبه التى بعثرتها العواصف، كما أن جهله وجهل قواته بالطريق المؤدى إلى القاهرة جعله يستغرق شهراً كاملاً فى قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة مما أتاح للمسلمين الفرصة لجمع شملهم وضم صفوفهم .

وفى الوقت الذى شرع الصليبيون فيه فى الزحف من دمياط إلى المنصورة توفى الصالح أيوب (سنة ٦٤٧هـ/٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م)، فقامت زوجته شجر الدر الأرمينية الأصل والتى كانت على جانب وافر من الذكاء والجمال ، والتى قدرت خطورة الموقف بتدبير شئون الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين، وفى الوقت نفسه أرسلت إلى ابن زوجها وولى عهده تورانشاه تحثه على الرحيل من ولايته فى حصن كيفا بأطراف العراق والقدوم إلى مصر ليعتلى السلطنة بعد أبيه، واستمرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً .

وعلى الرغم من هذه الإحتياطات علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب فرأى لويس التاسع أن يسرع بتوجيه ضربته قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم

فزحف جنوباً حتى وصل إلى قناة أشموم طناح، فصار على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم التى تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة ولمواصلة التقدم جنوباً، تعين على الفرنسيين أن يعبروا أما فرع دمياط أو قناة أشموم، وفى تلك الأثناء تقدم أحد أهالى بلدة سلامو وعرض على الصليبيين أن يدلهم على مخاضة كبيرة جهة أشموم طناح ف مقابل مبلغ من المال فعبرت الخيالة الصليبية دون أن تلقى مقاومة أثنـ عبورها واندفعت فى إتجاه المنصورة واقتحمتها مقدمة الجيش الصليبى بقيادة روبرت كونت أرتوا شقيق لويس التاسع Robert Count d' Artois، وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد فخر الدين يوسف قائد الجيوش المصرية، فانهزم المسلمون وتفرقوا وفى تلك المرحلة الحرجة ظهر المماليك البحرية وثبتوا أمام هذا الهجوم العنيف وحالوا بين الصليبيين وبين ما أرادوا من الاستيلاء على قصر السلطان وحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة، ثم إن المماليك لم يتركوا الصليبيين يعودون إلى دمياط سالمين، وإنما طاردوهم وأنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبى بأكمله تقريباً بين أسرى وقتلى، وتمكن المسلمون من أسر الملك لويس التاسع وأسر من معه من الأشراف والفرسان فى قرية منية ابى عبد الله [ميت الخولى عبد الله] بالقرب من المنصورة، ثم سيق لويس التاسع إلى مدينة المنصورة حيث سجن بدار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وهكذا وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة إلى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية، ولم يبق إلا المفاوضات من أجل الصلح .

وفى تلك الأثناء وصل إلى مصر المعظم تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب وقد أعلن تورانشاه سلطاناً فى دمشق وهو فى طريقه إلى مصر، فتيمن الناس بطلعته وترقبوا خيراً على يديه، ولكن المصادر أجمعت على

أن السلطان الجديد لم يكن رجل الساعة، وعلى أنه جمع بين سوء الخلق والجهل بشئون الحكم والسياسة، كما أنه كان سلطاناً جديداً يريد أن يشعر بسطوته وخطورة منصبه، لذلك وجد تورانشاه فى المماليك البحرية – أصحاب الفضل فى تخليص البلاد من خطر الصليبيين – أنهم يزاحمونه الحكم ويقاسمونه سلطانه فأرتاب فيهم ، وتوجس خيفة من نفوذهم ، فأعرض عنهم وقرب إليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق ، وأحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده ، ولذا نقموا عليه وأضمروا له الأسوء .

ولم يقتصر تورانشاه على مناوأة أمراء جيشه وكبار رجال دولته، بل تنكر لزوج أبيه شجر الدر، التى حفظت له عرشه وملكه بعد وفاة أبيه، فبعث إليها يتهددها ويطالبها بمال أبيه، فكانت تجيبه بأن الأموال صرفت كلها فى شئون الحرب وشئون البلاد العامة، ويقال أنها داخلها منه خوف شديد فمضت إلى القدس حيناً من الزمن مخافة غدره ولما بدا منه الهوج والخفة كما كانت المماليك البحرية تشكو لهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التى أدتها له من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة وكان المماليك البحرية الصالحية يخلصون لشجر الدر لأنها من حريم أستاذهم الذى اشتراهم، وبحكم رابطة الزمالة (المعبر عنها فى المصادر المعاصرة بالخشداشية) وهى من أقوى الروابط فى التاريخ المملوكى، فأجمع المماليك على أن يقتلوا تورانشاه قبل أن يقتلهم هو، وقام بتنفيذ هذه الخطة أربعة من الأمراء منهم فارس الدين اقطاى، وبيبرس البندقدارى عند نزول تورانشاه فى فارسكور وبعد فراغه من طعام إفطاره، تقدم إليه بيبرس وضربه بالسيف فأطار أصابع يده، وعندئذ أسرع تورانشاه ليحتمى بكشك خشبى كان قد أعد لإقامته فأغلق بابه واحتمى بأعلى البرج، فأضرم البحرية

النار فى البرج، وعندئذ ألقى تورانشاه بنفسه فى النيل وقد إشتعلت النار فى ثيابه أملاً فى أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به أقطاى فقتله دون أن يتقدم لنجدته أحد فمات على قول المقريزى جريحاً غريقاً محترقاً ثم إنتشلت جثة السلطان من النيل، وتركت ملقاه فى العراء على شاطئه ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على دفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسى وعندئذ دفنت فى مكانها، وبقتل تورانشاه فى (صباح يوم الأثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ الموافق ٢ مايو سنة ١٢٥٠م) ينتهى عصر دولة الأيوبيين فى مصر، بعد أن حكموا البلاد إحدى وثمانين سنة، واقاموا على العرش شجر الدر التى تعتبر من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك لذلك إعتبرها المقريزى "أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك" فباشرت سلطتها إستناداً على أمومتها لابن متوفى من أبناء السلطان الصالح أيوب واعتماداً على تأييد المماليك الصالحية لها .

شجر الدر أولى سلاطين المماليك :

كانت شجر الدر أرمينية، على جانب وافر من الذكاء والجمال، بعثها الخليفة المستعصم بالله العباسى من بغداد إلى نجم الدين أيوب فى القاهرة فولدت له إبنه خليلاً وأصبحت أم ولد فى حريمه، وتوطدت مكانتها لديه بمولد ابنها حتى لقد سميت "أم خليل" وصحبته فى رحيله إلى بلاد المشرق فى حياة أبيه السلطان الكامل، ثم ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر داود صاحب حلب بالكرك سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) ولما اعتلى الصالح أيوب عرش السلطنة الأيوبية فى مصر إرتفع شأن شجر الدر، ثم اعتقها أيوب وتزوجها، ويبدو أن قتلة تورانشاه وجدوا أن الأمور ليست مهيأه بعد لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة، فأجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب وأضعين فى الإعتبار

أنها كانت زوج استاذهم الصالح، وأم ولده خليل الذى مات طفلاً، وأنها أبدت استعداداً لتولى السلطنة عندما أوصت بكتمان خبر وفاة زوجها أيوب، واشرفت بحزمها على إدارة المعركة قبل أن يصل ابن زوجها تورانشاه .

ولكن قيام امرأة فى حكم المسلمين "لم يقع قبلها ولا بعدها"، وقد أحست شجر الدر نفسها بحرج موقفها، فكانت لا توقع باسمها على المناشير، وإنما جعل توقيعها "والدة خليل"، كذلك نقش اسمها على السكة "المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل وكان الخطباء فى المساجد يقولون فى الدعاء لها " واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح" أى أن شجر الدر تحرجت أن تذكر اسمها صراحة فى المناسبات الرسمية .

وكانت أولى المشاكل التى واجهت شجر الدر فى سلطنتها هى مشكلة الصليبيين الذين ما زالوا يحتلون دمياط، فأرسلت الأمير حسام الدين أبو على محمد الهذبانى لإنهاء المفاوضات التى بدأت معهم على عهد تورانشاه، فاتفق مع الملك لويس على تسليم دمياط، وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا وقامت ملكة فرنسا مرجريت دى بروفانس Margret de Provence التى رافقت زوجها فى تلك الحملة وبقيت بدمياط تجمع مبلغ نصف الفدية .

وبذلك نجحت شجر الدر فى تخليص البلاد من الحملة الصليبية السابعة التى اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى فى مصر على أن هذا العمل الرائع لم يكف لتدعيم مركز شجر الدر، وقد كان التقليد المتبع فى عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسى وأرسل إليه التقليد بذلك، فكتب أمراء المماليك

إلى الخليفة العباسى المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنة شجر الدر، غير أن الخليفة عاب عليهم إقامة امرأة فى السلطنة وكتب إليهم قائلاً : "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً" .

ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم - وهو الأمير عز الدين أيبك أتابك العسكر السلطنة، ولقب بالملك المعز، وتزوج من شجر الدر التى خلعت نفسها من السلطنة بعد أن ظلت فى الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها مهارة نادرة وكفاية ممتازة .

الملك المعز عزالدين أيبك التركماني:(٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م)

تولى المعز أيبك السلطنة ، وتلقب بـ "الملك المعز"، ولم يكن أيبك أكبر أمراء المماليك سناً، أوأقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذا إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاى، والظاهر بيبرس مما جعل بعض المؤرخين مثل أبى المحاسن يتهمه "بضعف النفوذ والشوكة، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكى يتمكنوا من عزله متى شاءوا، كذلك يرى بعض المستشرقين مثل بلوشيه Blochet أن أيبك كان يحكم بصفته زوج الملكة .

ورغم ذلك فقد مدحه أبى المحاسن عندما ترجم له فى المنهل الصافى ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة ، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق .

كان أيبك أحد المماليك الصالحية، ولكنه لم يكن من فرقة المماليك البحرية ترقى فى خدمة الصالح أيوب حتى تولى وظيفة الجاشنكير فى بلاط السلطان وفى سلطنة شجر الدر صار أيبك قائداً للجيش أى أتابكا للعسكر، وقد واجه مشاكل وصعاباً كثيرة منها تهديدات الأيوبيين والصليبين فى الخارج ، وثورات الأعراب فى الداخل ، ثم خطر زملائه المماليك فى

داخل البلاد وخارجها .

أولاً : الخطر الأيوبى :

تشير بعض المصادر مثل ابن إياس أن كثيراً من المماليك البحرية كانوا لا يزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعى فى عرش البلاد، فلم يرضوا عن سلطنة أيبك، كما أن ملوك الأيوبيين فى الشام وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق كانوا يعتبرون مصر جزءاً من ملكهم الموروث، ويعتبرون ما قام به المماليك من قتل تورانشاه وتولية شجر الدر ثم المعز أيبك نوعاً من العقوق والخروج يجب معاقبتهم عليه، كما أن المماليك لا ينتمون إلى أسرة مالكة، كما أنهم ليسوا أحراراً ، بل كما قال بعض المؤرخين المعاصرين "قد مسهم الرق" .

لذلك لجأ المماليك إلى حيلة يتحايلون بها على تهدئة بنى أيوب، فاستقر الرأى على أن يشترك فى الحكم مع المعز عز الدين أيبك طفل صغير من أبناء البيت الأيوبى اسمه الأشرف موسى – حفيد الكامل محمد وكان عمره ست سنوات، ومن البديهى أن الأشرف لم يكن له سوى الاسم فى هذه الشركة، وأن جميع الأمور كانت بيد المعز أيبك .

كما أعلن المعز أن مصر تابعة كما كانت قديماً للخلافة العباسية.

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الملك الناصر لم تنطل الحيلة عليهم فوصل الناصر بجيشه واشتبك مع جيش المماليك فى معركة بالقرب من الصالحية، انتصر فيها المماليك، وفر الناصر ومن معه من أفراد البيت الأيوبى إلى الشام، فكان هذا النصر أول نصر أحرزه المماليك ضد الأيوبيين وكان من نتائجه تثبيت أركان دولة المماليك الناشئة ، وقيام المعز أيبك بعزل الطفل الأيوبى – شريكه فى الحكم – واستقل نهائياً بملك مصر وفى هذه

الأثناء كان لويس التاسع بعد أن خرج من دمياط يجر أزيال الخيبة والفشل لم يتجه إلى وطنه فرنسا بل آثر الذهاب إلى فلسطين حيث أقام فيها أربع سنوات، يرقب الموقف بين الأيوبيين والمماليك، دون أن يجاهر بالإنضمام إلى جهة معينة، ويقال أن الناصر صاحب حلب عرض عليه أن يعقد معه حلفاً لمحاربة المماليك ولكن الملك لويس رفض لأنه لم يكن قد نسى بعد مرارة ما ذاقه على أيدى المماليك، كما كان يعلم أنه قد ترك فى مصر عشرة آلاف أسير، وأن حياة هؤلاء الأسرى ستكون لا محالة معرضة للخطر[1] لو أنه دخل فى معركة جديدة مع المماليك .

فلما إنجلى الموقف بانتصار المماليك وهزيمة الناصر يوسف .

بادر المماليك بتجديد إتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والأيوبيين وإستغل لويس التاسع الفرصة لتعديل شروط المعاهدة المعقودة بينه وبين المماليك، واستجاب المعز أيبك لرغباته ليضمن عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والأيوبيين، ووافق المماليك فى الإتفاقية الجديدة سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) على إطلاق سراح بقية أسرى الصليبيين فى مصر، وعلى التنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس .

وفى تلك الأثناء توفيت الملكة بلانش Blanche القشتالية والدة لويس التاسع التى كانت تحكم فرنسا فى غيابه كوصية على العرش فاضطر لويس إلى الرجوع إلى بلاده فأبحر من عكا فى سنة (٦٥٢هـ/ابريل ١٢٥٤م) ووصل إلى فرنسا فى يوليو من نفس السنة .

وفى هذا الوقت ظهر خطر جديد أشد من الخطر الصليبى، وهو الخطر المغولى الذى كانت جحافله قد أجتاحت الحدود الإسلامية بقيادة جنكيز خان وقضت على الدولة الخوارزمية التى كانت الدرع الحامي لجميع الدول الإسلامية فى غرب آسيا والشرق الأدنى من هجمات المغول وغيرهم من

الأسيوبيين، وبدأ الخليفة المستعصم يدرك أمام هذا الخطر الداهم أنه لابد من توحيد القوى الإسلامية المجاورة لتقف إلى جانبه في محنته المقبلة، لذلك بادر الخليفة المستعصم بإرسال رسول هو نجم الدين البادراني لعقد الصلح بين الملك الناصر صاحب حلب والمعز أيبك سلطان مصر، وتمكن من عقد صلح بينهما في سنة (٦٥١هـ/ابريل ١٢٥٣م) على أن يكون للمماليك مصر حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة وبيت المقدس وللأيوبيين ما وراء ذلك من بلاد الشام، وأن يتفقا على حرب التتار .....

وبهذا انتهت العقبة الأولى في تأسيس الدولة المملوكية الناشئة وهو النزاع بين المماليك والأيوبيين، ولكنه لم ينته في الواقع فقد بقيت له ذيول ستنتهي نهائياً في عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) عندما حاولوا مهاجمة دولة المماليك الملك المغيث عمر صاحب الكرك، فقضى بيبرس على حركته التي لم تكن الأولى لأنه في عهد نور الدين على بن عز الدين أيبك سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حاول الإغارة على مصر واستعادتها من المماليك فتصدى له نائب السلطنة سيف الدين قطز عند الصالحية وهزمه هزيمة شنعاء ارتد بعدها إلى الكرك، المهم أن النزاع مع الأيوبيين انتهى مؤقتاً في عهد أيبك ولكن كانت هناك عقبات أخرى أمام أيبك معظمها عقبات داخلية من أهمها :

ثانياً : ثورة العربان في صعيد مصر سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) :

من المعروف تاريخياً أن مصر بعد الفتح العربي استوطنتها قبائل عربية كثيرة، استقرت في الصعيد وفي بعض محافظات (مديريات) الوجه البحري وخاصة البحيرة والشرقية، و أن هذه القبائل احترفت الزراعة وكانت

تتمتع بمركز اجتماعى أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التى كانوا يؤدونها للدولة فى وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية، وكان تعسف أمراء المماليك فى جمع الضرائب إلى جانب أنف هذه القبائل أن تخضع للدولة الجديدة ومناداتهم بأنهم أصحاب البلاد وأحق بالملك من المماليك، وقد كفى أننا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد، وثارت هذه القبائل بزعامة شريف علوى اسمه حصن الدين بن ثعلب وكانوا فى كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل مشاركتهم فى حروب الصليبيين، وإزاء ذلك اضطر السلطان أيبك أن يستعين بالمماليك البحرية وزعيمهم أقطاى، فخرج أقطاى على رأس جيش قوامه خمسة آلاف فارس من خيرة المماليك تمكن من إخضاع هذه الثورة وقتل كبار الأمراء العرب والقبض على زعيمها حصن الدين بن ثعلب حيث سجن فى الإسكندرية، وبذلك تمكن أيبك من التغلب على أحد الصعاب الخطيرة المهددة لقيام دولة المماليك .

ثالثاً : خطر التنافس بين أمراء المماليك :

مما لا شك فيه أنه إذا كان ايبك قد نجح فى التغلب على الخطر الخارجى المتمثل فى الأيوبيين والصليبيين والخطر الداخلى المتمثل فى ثورة الأعراب، فإن ذلك كان بفض مساعدة المماليك البحرية وزعيمهم أقطاى الذى ارتفع شأنه بعد نجاحه فى القضاء على ثورة الأعراب، وكان أيبك يخشى من طائفة المماليك البحرية لعلمه بقوتها وخطرها، فعمل على تقوية نفسه بإنشاء فرقة من المماليك عرفت بالمعزية نسبة إلى لقبه "الملك المعز" كما عين مملوكه قطز المعزى نائباً للسلطنة .

ورأى أقطاى نفسه أحق بالسلطنة من أيبك، فصار لا يظهر فى مكان إلا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين، وكان خشداشيته (زملاؤه) يلقبونه

فيما بينهم بالملك الجواد، وأخيراً خطب أقطاي إحدى أميرات البيت الأيوبي وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة مما يجعل له سنداً شرعياً إذا ما طالب بالحكم، ثم حدث أن طلب أقطاي من أيبك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل -المقر الرسمي للحكم- لكونها من بنات الملوك، فبدأ الملك المعز أيبك يستشعر خوفاً منه وراح يدبر الأمر لقتله قبل أن يشتد بأسه ويفكر في عزله وتولي السلطنة مكانه، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في أمر من الأمور، فلما وصل إلى القلعة أمر أيبك بغلق أبوابها، ومنع مماليك أقطاي من الصعود معه، ثم لم يلبث أن قبض عليه وقتله، وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة؛ فذهب نحو سبعمائة من أصحابه إلى القلعة ظناً منهم أنه سجن ولم يقتل وكان على رأسهم بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي وسنقر الأشقر وبيسري، فلما وصلوا إلى القلعة ألقى إليهم المعز أيبك برأس أقطاي، وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم آت عن قريب فقرروا الفرار إلى الشام، وعلم أيبك بنيتهم فأمر بإغلاق أبواب القاهرة في وجوههم إلا أنهم استطاعوا أن يحرقوا باب القراطين - الذي عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق - والفرار منه إلى ملوك البيت الأيوبي في الشام مثل الناصر يوسف صاحب حلب، والمغيث عمر ملك الكرك، كما التجأ مائة وثلاثين منهم إلى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسر وصاحب قونية بآسيا الصغرى.

ومما لا شك فيه أن خروج المماليك البحرية وزعمائهم إلى الشام واتصالهم بملوك البيت الأيوبي وتحريضهم على مهاجمة مصر جعل المعز يخشى على عرشه فسعى للتحالف مع أمير مجاور من أمراء المسلمين، وهو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأعلنه أيبك برغبته في التزوج من ابنته، لكن مشروع الزواج جر على المعز الوبال الكثير فقد أثار شعور الغيرة في

قلب شجر الدر التى ساءها جحود أيبك، فدبرت مؤامرة لقتله فى سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) وثارت مماليك المعز لمقتله ودبروا مؤامرة أخرى انتهت بقتل شجر الدر وإلقاء جثتها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، إلى أن حملت فى قفة ودفنت بعد عدة أيام [وضريحها يقع بشارع الخليفة] وهكذا انتهت حياة أيبك وشجر الدر جميعاً .

السلطان الملك المنصور نور الدين على بن أيبك :

(٦٥٥هـ/١٢٥٧م - ٦٥٧هـ/١٢٥٩م)

تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم "على" فأقاموه سلطاناً فى (ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م) ولقبوه بالملك المنصور نور الدين على، رغم أنه غلام صغير فى نحو الخامسة عشرة من عمره، ورغم أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم، الأمر الذى جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً للتنافس والمنازعات بين كبار أمراء المماليك عقب وفاة كل سلطان، وكان كل سلطان من سلاطينهم يعنى عناية كبيرة بتوريث ابنه السلطنة فيأخذ له الأيمان ويوصى له بولاية العهد، فإذا توفى احترم الأمراء المماليك هذه الأيمان مؤقتاً، وأقاموا الصغير على العرش، ولكنه لايمكث سلطاناً إلا ريثما يصفى الأمراء ما بينهم من حساب، وينجلى الموقف بينهم ويظهر الأمير القوى الذى يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الأمراء، فيعزل الصبى الصغير دون جلبة ويأخذ منصب السلطنة لنفسه.

ومعنى ذلك أن الدولة المملوكية لم تعرف النظام الوراثى، وإن كانت قد حاولته فإنها لم تفلح فى التمكين له أو الأخذ به، وذلك باستثناء حالات قليلة حدثت لأبناء قلاوون.

ويبدو أن سبب عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك هو ضعف معانى الصلات الأسرية، لأنهم قوم اشتروا من أسواق الرقيق أو أسروا فى ميادين الحروب ونشأوا وربوا تربية واحدة أوجدت عندهم صلات وروابط أخرى مثل الرابطة التىتربطه بزملائه فى الرق والعتق والتى عرفت فى المصطلح المملوكيباسم الخجداشية أو الخشداشيةمفردخجداش أوخشداش معرب اللفظ الفارسيخواجاتاش وهيتعنيالزميل فى الخدمة أو الرق أوالعتق.

كما كانت هناك علاقةبين المملوك الصغيروالمملوك الأكبرسناً،الذى كان يعهد إليه برعايةالصغير فى الطباق والذى جرى العرف على تسميته باسم أغا [مفرد أغوات] أما المملوك الصغيرفكان يعرف فيالمصطلح المملوكى باسم إنى مفرد إنيات وكانت العلاقة بين الأغاوإنياته تظل وثيقةبعدعتقهم ومغادرتهم الطباق إذ كان الأغا يحرص دائماً على مساعدة إنية ويوصى بترقيته فى الوظائف والرتب هذا فضلاً عن العلاقة بين المملوك وأستاذه الذى اشتراه وأعتقه [سلطاناً كان أو أمير] والتى عرفت فى لمصطلح المملوكى باسم – صلات الأستاذية – فيظل المملوك وفياً مخلصاً لأستاذه حتى أخر يوم فى حياته .

المهم أن الأمراء إختاروا الملك المنصور نور الدين على بن أيبك، أختير أحد الأمراء نظراً لصغر سنه ليكون أتابكاً له وهو – سيف الدين قطز – ولم يكن منتظراً من هذا الصبيأن يصمد فى وجه كبار الأمراء ، أو يتمكن من مواجهة الأخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى عندئذ فكان يقضى معظم وقته فى اللهو واللعب بالحمام ومناقرة

الديوك ومناطحة الكباش و[illegible] [illegible] والطواف بها داخل أسوار القلعة، ولهذا تركت السلطة كلها فى يد أتابكه نائب السلطنة سيف الدين قطز .

وأهم حدث جرى فى عهد نور الدين على هو أن الأمراء البحرية الذين كانوا بالشام بعد مقتل كبيرهم أقطاى أدركوا عندئذ أن فرصتهم قد حانت للعودة إلى مصر فاتجهوا إلى الكرك حيث أطمعوا المغيث عمر الأيوبى فى ملك مصر، وكان أن استجاب المغيث عمر للبحرية، وخرجت الحملة لغزو مصر عن طريق الشرقية سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، فتولى الدفاع عن مصر وعن دولة المماليك الناشئة سيف الدين قطز الذى استطاع صدهم وإنزال الهزيمة بهم عند الصالحية .

وفى ذلك الوقت وصلت الأخبار إلى مصر بأن هولاكو حفيد جنكيز خان المغولى استولى على بغداد (صفر ٦٥٦هـ/فبراير ١٢٥٨م) قلعة الإسلام وحاضرة العباسيين، وأعملوا فيها معاول التخريب والسيف والنار سبعة أيام ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته .

وبهذا قرب الخطر المغولى من الشام ومصر قرباً شديداً، ولم يكن فى الشام ملك قوى يستطيع الوقوف أمام هذا الخطر الداهم ومقاومته، فالناصر يوسف الأيوبى بدلاً من أن يتدبر الأمر، إذا به يرسل ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب مساعدته فى الاستيلاء على مصر من المماليك، ويقال أن هولاكو استجاب لتلك الدعوة ، وقرر إرسال قوة من عشرين ألف فارس إلى الشام. فعقدت الآمال كلها على مصر وعلى سيف الدين قطز فوجد قطز فرصته لعزل السلطان الصبى نور الدين على الذى لم يكن له من السن أو المقدرة ما يؤهله لتحمل هذا العبء فجمع الأعيان والأمراء بالديار المصرية وقال لهم "لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة" فأجابه الجميع ليس لها غيرك. فقبض على

الملك المنصور وأخيه قاقان ابن أيبك وأمهما وبذلك انتهى حكم المنصور على الذى ظل سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام .

المظفر سيف الدين قطز : (٦٥٧ - ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩ - ١٢٦٠م)

كان قطز شاباً أشقر كبير اللحية ويقال أن اسمه الأصلى محمود بن مودود، وأنه ينتسب إلى البيت المالك الخوارزمى، فيقال إن أمه كانت أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأن أباه كان ابن عم ذلك السلطان، وأنه حضر المعارك الأخيرة التى قضى فيها المغول على الدولة الخوارزمية، وقد أسر فى أعقابها وحمل مع بعض السبايا إلى دمشق حيث بيع بيع الرقيق للسلطان أيبك التركمانى وأتى إلى مصر حيث ترقى فى سلك الجندية إلى أن أصبح نائباً للسلطنة وقطز كلمة تركية معناها الكلب الشرس .

ونتيجة لقرب الخطر المغولى من الشام ومصر والخوف من الملك الناصر قام قطز بعزل المنصور نور الدين على مبرراً ذلك من أنه "لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة وعندما غضب لعزل المنصور على بعض مماليك أبيه هدأهم بقوله : "إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم" .

ولم يلبث المغول بعد أن أستولوا على بغداد وقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها فى مذبحة رهيبة استمرت أربعين يوماً، ثم اشعلوا النار فى المدينة فأتت على كثير من تراث الحضارة الإسلامية ، وقتلوا الخليفة المستعصم العباسى وكل من وجدوه حياً من العباسيين، ولم يكن منتظراً أن يقنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد.

لذلك تقدم هولاكو إلى الشام بجيش قوى، وحاصر ابنه يشموط

ميافارقين التى كان يحكمها الكامل محمد الأيوبى الذى استشهد بعد أن دافع دفاعاً باسلاً ثم استولوا على حلب فى (صفر سنة ٦٥٨هـ/٢٤ يناير ١٢٦٠م) ليعملوا فى أهلها قتلاً وأسراً، وأمام ذلك الخطر الداهم رأى بعض أمراء الأيوبيين فى الشام أن يخضعوا للغزاة حرصاً على كيانهم مثل الأشرف موسى، كما أخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم من شأن هولاكو ويؤيد مبدأ الاستسلام له، ولكن الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى - أحد امراء المماليك البحرية الذين فروا من مصر بعد مقتل أقطاى - لم يعجبه ذلك القول، فقام وسبه وضربه، **وقال له** : "أنتم سبب هلاك المسلمين" ،ولم يرضى بيبرس ومن معه من البحرية عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام، فساروا إلى غزة، وأرسل بيبرس إلى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جيود المسلمين ضد خطر المغول، وقد رحب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه، وأحسن استقباله بدار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها، وبذلك توحدالمماليك جميعاً بحرية وغير بحرية لمواجهة خطر المغول الذى يعتبرأفدح خطر هدد العالم الإسلامىفىالشرق الأدنى فى القرن الثالث عشر.

وهذه ظاهرة أمتاز بها المماليك وتكرر ظهورها طوال تاريخهم أكثر من مرة، فهم دائموا النزاع فيما بينهم حتى إذا داهمهم خطر خارجى تناسوا ما بينهم من خلف ووقفوا أمام هذا الخطر صفاً واحداً وذلك بدافع الشعور الغريزى للدفاع عن كيانهم وبعد الاستيلاء على دمشق أرسل هولاكو سفاره إلى قطز ومعها كتاب يطلبون فيه منه الاستسلام ويذكرونه بما فعله المغول وينذرونه سوء العاقبة إذا حدثته نفسه بالمقاومة .

ولكن قطز لم يهتز لحرب الأعصاب التى دأب التتار على شنها والإفادة منها وقام بدافع من الشجاعة وحبه للدفاع عن العالم الإسلامى وكرهه الشديد للمغول بتمزيق الخطاب، وقتل سفراء هولاكو وعلق رءوسهم على باب

زويلة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول .

وحدث في ذلك الوقت أن توفى منكوخان خاقان المغول العظيم أخو هولاكو فأسند هولاكو قيادة جيوشه إلى قائده كتبغانوين ورحل مسرعاً إلى الفور لتاى - مجمع زعماء التتر - في العاصمة قرة قورم، حيث تجرى الإنتخابات لإختيار خاقان المغول الجديد. واعتقد هولاكو أنه سوف يختار خاقاناً للمغول لأهمية فتوحاته وإتساعها ، ولكنه علم في تبريز أن الإختيار وقع على أخيه قوبيلاى (١٢٦٠ - ١٢٩٤م/٦٥٩ -٦٩٣هـ) .

المهم أن عودة هولاكو إلى قراقورم ومعه جزء كبير من جيشه كان لها أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذى أخذ السلطان قطز يعد عدته لمواجهة خطرهم .

وأنفذ قطز طلائع جيشه بقيادة بيبرس لملاقاة المغول فتقابلوا وإياهم عند مدينة غزة، وانتصر بيبرس على طلائع المغول لأول مرة وردهم عن غزة، وبعد قليل وصل قطز ومعه بقية الجيش، ثم تقدم الجيش المملوكى كله نحو الشمال إلى أن التقى بجيش المغول قرب مدينة بيسان في موضع يقال له عين جالوت ولجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس تتابع سيرها وحدها تجاه التتار وفى موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) تفوق المغول فى أول الأمر، ولكن قطز ثبت في القتال، ويقال أنه ألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح "واإسلاماه" وحمل بنفسه على العدو، فالتف المماليك حوله ثانية، وانتصروا على عدوهم وقتل قائد المغول بعد أن ظل يقاتل في شجاعة وعناد - وقتل كثير من رجاله وولى من نجا من المغول الأدبار .

فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكر لله .

وبعد هذه الهزيمة التى لحقت بالمغول فى عين جالوت فروا من دمشق، ثم من شمال الشام كله فاستولى عليه قطز،وأقام قطز والياً من قبله على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى وأعاد بعض ملوك الأيوبيين إلى ممالكهم مثل الأشرف موسى الأيوبى صاحب حمص، وكذلك الملك المنصور الثانى صاحب حماه الذى أعاده إليها وأعطاه المعرة وبعرين، أما حلب التى كان قد وعد بها بيبرس البندقدارى فقد أقطعها قطز للملك السعيد علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتتبع حركات المغول وأخبارهم .

أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبيبة الذى كان قد تواطأ مع التتار وانضم إليهم يوم عين جالوت فى محاربة المسلمين ، فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت فى الحال .

وبذلك انتهت موقعة عين جالوت التى تعتبر الحلقة الأولى فى سلسلة الوقائع بين المغول ودولة المماليك أقوى العناصر المحاربة، وتعتبر تجربة حربية خطيرة بين أسلوبين وفنين من فنون الحرب فى العصور الوسطى .

وتعتبر عين جالوت من المواقع الفاصلة فى التاريخ نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة فالتتار منذ خروجهم من موطنهم الأصلى لم يذوقوا طعم الهزيمة ولم تستطع القوى الإسلامية كلها الوقوف أمامهم فالخوارزميون رغم قوتهم الحربية هزموا أمامهم، وكذلك هزمت الخلافة العباسية وقضى عليها نهائياً هناك، ثم هزمت جيوش الأيوبيين فى الشام، وانتصر المماليك فأنقذوا مصر والشام من همجية المغول وبدأ العالم الإسلامى ينظر إليهم نظرة عطف وإكبار مما ساعد على تدعيم ملك المماليك وكانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك الذين ظهروا فى صورة الدرع الواقى للوطن الإسلامى في الشرق الأدنى والقوة الوحيدة التى استطاعت الصمود فى وجه الخطر المغولى .

ويعترف المؤرخون الأوربيون أن إنتصار المماليك لم ينقذ العالم الإسلامى وحده من خطر المغول، بل أنقذ العالم المسيحى الأوربى والمدنية الأوربية، لأنه لم يكن فى أوربا المسيحية وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا على المماليك وتقدموا فى اتجاههم الطبيعى نحو أوربا عن طريق الصحراء الغربية - الطريق الطبيعى المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو أوربا من الجنوب فى العصور المختلفة مثل هانيبال وموسى بن نصير وطارق بن زياد والأغالبة والفاطميون وغيرهم من قبل، وكما سلكه القائد الإنجليزى منتجومرى من بعد فى الحرب العالمية الثانية .

ومع اعترافنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم فى عين جالوت فإنه يجب أن نشير إلى بعض العوامل التى ساعدتهم على تحقيق ذلك النصر .

فبالرغم من أن غزو المغول لبلاد المسلمين إتخذ طابعاً صليبياً، لأن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين على المذهب النسطورى مما جعله يعطف على المسيحيين ويقسو على المسلمين، هذا بالإضافة إلى أن بعض القوى الصليبية فى الشرق الأدنى وفى الغرب الأوربى سعت لتحويل المغول إلى المسيحية فإتصلوا بهم وإستثاروهم ضد المسلمين مثل ملك أرمينية الصغرى، إلا أن جمهرة الصليبيين بالشام وقفت موقفاً سلبياً من الصراع بين المماليك والمغول.

بالإضافة إلى عودة هولاكو ومعه جزء كبير من جيشه إلى قراقورم مما أدى إلى إضعاف قوة المغول، وأخيراً الحقيقة التاريخية التى تقول أن لكل غزوة أو هجرة مهما يبلغ عنفها وقوتها نهاية حتمية تتوقف عندها نتيجة لظروف طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

كان لإنتصار قطز فى عين جالوت وقع جميل على المصريين فأقيمت الزينات فى الطرقات والحوانيت بالقاهرة، ودقت البشائر بالقلعة وأخذ الناس

يستعدون لإستقبال قطز عند عودته. ولكن الأمور تطورت بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس فى السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس الذى أظهر شجاعة فى عين جالوت لا تقل عن شجاعة السلطان قطز نفسه، كان يطمع فى نيابة حلب، وطلبها فعلاً من قطز الذى وعده بمنحها إياه، ولكن قطز أقطعها للملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ. صاحب الموصل - مكافأة له على ما أداه أبوه للدولة المملوكية الناشئة من خدمات جليلة، فقد دل سلاطينها على حركات المغول وعلى أسرار مشروعاتهم الحربية للتقدم نحو الشام. فتنكر له بيبرس ، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه ، وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية فى طريقه إلى القاهرة ، فقد خرج قطز للصيد وفى أثناء رجوعه من صيده يريد الدهليز السلطاني، وثب به بيبرس والمؤتمرون معه وقتلوه بسيوفهم فى (١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ/٢٢ أكتوبر سنة ١٢٦٠م) وتقدم أحد امراء المماليك - وهو الأمير أقطاى المستعرب - عندما انتشر خبر مقتل قطز وسأل المؤتمرين : "من الذى قتل السلطان ؟"

فقال بيبرس : "أنا قتلته" .

فقال الأمير أقطاى : "يا خوند، اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه" .

وهكذا اغتيل السلطان قطز، صاحب الفضل فى تدعيم الدولة المملوكية من الناحية الخارجية، ويروى أبو المحاسن "أن قطز بقى ملقى بالعراء، فدفنه بعض من كان فى خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً ..... وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله فلما بلغ بيبرس ذلك، أمر بنبشه، ونقله إلى غير ذلك المكان، وعفى أثره، ولم يعف خبره" .

بينما يذكر المقريزى "أن قطز حمل بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب

من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهرى إلى القرافة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود" .

ويرى البعض أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم بين المماليك البحرية الصالحيةالذى شارك قطز فى قتل كبيرهم أقطاىزمن أيبك والمماليك المعزية.

السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى :

(٦٥٨ - ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) :

انتقل الملك بعد قطز إلى قاتله بيبرس فى ١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وهو بالصالحية ، واستدعيت الجند فحلفوا له فى اليوم الذى قتل فيه قطز ثم بايعه فارس الدين أقطاى وتبعه بقية الأمراء على اختلاف طبقاتهم، وحلفوا له جميعاً أن لا يخونوا ولا يبثوا عليه، وتم ذلك الحلف على المصحف الشريف، كل ذلك وبيرس لم يصل بعد إلى القاهرة، ثم قال له أقطاى : "لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل"، فركب بيبرس وصحبته الأمراء قاصدين القاهرة، فلما دخلها لم يكن أهلها قد علموا بما حدث للسلطان الملك المظفر قطز، وكانت القاهرة قد زينت أبهج زينة واستعد الناس لإستقباله بمظاهر الحفاوة والتكريم، وخرج الأمير عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة بمصر إلى ظاهر القاهرة لإستقبال قطز ، ولم يكن قد وصل إلى علمه ما حل به، فأعلمه بيبرس بما حدث، فحلف هو أيضاً لسلطانه الجديد وفى (ليلة الأثنين ١٩ ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) وصل بيبرس ومعه الأمراء إلى القلعة وتسلمها. وفى اليوم التالى نودى فى القاهرة أن "ترحموا على الملك المظفروادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس".

ولما جلس بيبرس بالإيوان بقلعة الجبل "أفيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمعممين على تفاوت اقدارهم، وكتب إلي صاحب

المغرب وصاحب اليمن وملوك الشام وثغور الإسلام بما قدر الله له من القيام بأمر عباده، وإيالة بلاده" وخفف عن الأهالى عبء الضرائب، وألغى الأموال التى كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة المغول ، كما عفى "عمن بالحبوس من أصحاب الجرائم وأفرج عنهم" .

وكان لقب بيبرس فى أول الأمر "القاهر" فقال له الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، وكان فاضلاً فى الأدب والترسل وعلم التاريخ، ما لقب به أحد فأفلح وأشار بتغيير هذا اللقب إلى "الظاهر" فوافق بيبرس .

وشغل بيبرس منصب السلطنة سبعة عشر عاماً، وهى مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية عدا السلطان الناصر محمد بن قلاون وأثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام بعد فترة القلق وعدم الاستقرار التى تعرضت لها دولة المماليك لمدة عشر سنوات تعاقب فيها على منصب السلطنة أربع سلاطين قبل بيبرس .

لم يصف الجو تماماً لبيبرس على أثر اعتلائه دست السلطنة، إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم، وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذى استنابه الملك المظفر قطز بدمشق، فلما علم بمقتل قطز نادى بنفسه سلطاناً عليها فى (ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) وتلقب بالملك المجاهد، وخطب له على منابرها وضرب السكة باسمه، كما طلب من أصحاب حماة وحمص الدخول فى طاعته، ولكنهما امتنعا عن إجابة طلبه .

ولم يتوان بيبرس فى القضاء على هذه الثورة التى هددت نفوذه فى الشام، فجهز جيشاً مع علاء الدين أيدكين البندقدارى لمحاربته، فوصل هذا الجيش إلى دمشق فى (صفر سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، والتقى بجيش الحلبى

بظاهرها فتغلب عليه وفر الحلبى وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق، حتى إذا ما جنى الليل خرج لا يلوى على شئ قاصداً بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وأحضروه إلى القاهرة فاعتقل بها .

وولى الظاهر مولاه علاء الدين البندقدارى على دمشق وعاد صاحبا حماة وحمص إلى بلديهما، ومن ذلك الوقت دخلت هذه البلاد فى حزوة الملك الظاهر .

وكان بيبرس على تخوف دائم من أن يثور عليه المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك فخرج من مصر فى (ربيع الآخر سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م) فلما وصل إلى غزة حضرت إليه أم الملك المغيث شافعة فى ولدها وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها فى العودة ، ثم تحايل بيبرس واستدعى المغيث لمقابلته فى بيسان ولم يرع عهده له وقبض عليه وبعثه إلى القاهرة مقيداً ليعتقل بقلعة الجبل ثم قتله بعد ذلك .

كما قامت ثورة شيعية ضد بيبرس فى القاهرة تهدف إلى إعادة إحياء الخلافة الفاطمية فشق الثوار القاهرة وهم يصيحون "يآل على"، ولكن بيبرس نجح فى القضاء على حركتهم فى سهولة .

وبذلك نجح بيبرس فى القضاء علي الثورات الداخلية التي واجهته فى بداية حكمه وصفا الجو تماماً له، ولم يعد ينقص حكمه إلا السند الدينى ، أى الحصول على تقليد من صاحب الحق الشرعى فى حكم المسلمين الخليفة العباسى، غير أن الخلافة العباسية فى ذلك الوقت كانت قد سقطت فى أيدى المغول وقتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين هو وولده أبو العباس أحمد، وأبو الفضائل عبد الرحمن، وكثير من رجال البيت العباسى .

ولا يخفى علينا أن المماليك نظر إليهم المعاصرون منذ اللحظة الأولى التى ولوا فيها حكم البلاد أنهم انتزعوا لأنفسهم ملك سادتهم بنى أيوب ،

فتحايلوا على ذلك بأن اشركوا معهم فى الحكم طفل من سلالة الأيوبيين ، كما سبق أن أوضحنا كما نظر المعاصرون إلى بيبرس أنه اغتصب العرش من قطز قاهر المغول هذا بالاضافة إلى تجريح المعاصرين للمماليك بأنهم "قد مسهم الرق" ولا ينتمون إلى أسرة مالكة، لذلك تحمس بيبرس لإحياء الخلافة العباسية فى مصر ليتخذ منها سنداً يسند إليه حكم المماليك .

بيبرس وإحياء الخلافة العباسية فى مصر :

لم يكن الظاهر بيبرس أول من فكر فى نقل الخلافة العباسية إلى مصر ولكنه كان أول من نجح فى تنفيذ هذا المشروع، وقد سبقه إلى التفكير فى ذلك أحمد بن طولون أثناء صراعه مع ولى عهد الخلافة أبى أحمد طلحة الموفق فقد فكر فى استدعاء الخليفة العباسى المعتمد للإقامة بمصر ليستعيد كرامته وحريته بعد أن ضيق عليه أخوه الموفق، ولكن أمر الخليفة أكتشف وأعيد إلى العاصمة تحت حراسة رجال الموفق ثم فكر فى نقل الخلافة إلى مصر محمد بن طغج الأخشيد فقد دعى الخليفة المتقى للقدوم إلى مصر أثناء صراع الخليفة مع توزون أمير الأمراء وخاصة بعد أن قنط الخليفة من مساعدة الحمدانيين، وبعد أن تغلب توزون على النجدة التى أرسلها الحمدانيون لنصرة الخليفة وأجبر توزون الخليفة على العودة إلى بغداد، فعاد الاخشيد إلى مصر وفشل المشروع .

وكان الأيوبيون يسعون دائماً لاستصدار التقاليد من الخليفة العباسى بالموافقة على توليتهم ، حيث أن المسلمين فى تلك العصور كانوا لا يحترمون حاكماً لا يحظى بعطف الخلافة وتأييدها، وكانت الخلافة لا تمانع وإلا سوف يؤدى الأمر إلى ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق الإكراه لا

عن طريق التقليد ، ولم يكن هذا تفككاً وانحلالاً للدولة الإسلامية ، لأن هؤلاء الحكام دانوا بالطاعة للخلافة واعترفوا بنفوذها الروحى، يدعون للخليفة على المنابر ، ويكتبون اسمه على السكة، ويشاركون فى الجهاد .

وعندما قامت الدولة المملوكية سعى سلاطينها للحصول على التقليد من صاحب الحق الشرعى فى حكم المسلمين الخلافة العباسية لتدعيم مركزهم أمام إدعاءات أمراء البيت الأيوبى ومحاولتهم لاسترجاع مصر، فقد بدأو بتنصيب شجر الدر سلطانة على مصر، وأرسلوا يطلبون من الخليفة العباسى موافقته وإرسال التقليد والخلع والألوية ولكن الخليفة لم يقر أن يسلم زمام الحكم لامرأة وأرسل يقول للمماليك : "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً" .

فاضطر المماليك إلى خلع شجر الدر وتولية المعز أيبك الذى أمر بأن ينادى بأن "البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وإن الملك المعز نائبه بها" وبعد أن تصالح المعز أيبك والناصر الأيوبى بوساطة رسول الخليفة نظراً لقرب الخطر المغولى من بغداد،أرسل المعز إلى الخليفة "يلتمس تشريفة بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر" سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) .

وبعد ذلك بسنتين سقطت الخلافة العباسية فى أيدى المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وقتلوا خليفة المسلمين وأحرقوا الجوامع وهدموا المساجد، لذلك حاول بعض حكام المسملين فى البلدان المجاورة وسط ذلك الفراغ الكبير الذى أحدثه قتل الخليفة احياء الخلافة فى بلادهم، مما يعود على من ينجح فى ذلك بالمكانة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بعطفها وبيعتها. وقبل السلطان المملوكى قطز يقال أن صاحب حلب ودمشق الناصر يوسف الأيوبى فكر بعد سقوط الخلافة العباسية فى احيائها فى دمشق بهدف الحصول

على كسب سياسى يمكنه من الصمود فى وجه المماليك بمصر، ولكنه لم يتمكن من ذلك .

أما قطز فبعد انتصاره على المغول فى عين جالوت علم وهو فى دمشق بوصول أحد أمراء بنى العباس الفارين واسمه أبو العباس أحمد فبايعه بالخلافة، واتجه هذا الخليفة إلى بغداد وفى صحبته جماعة من العرب فافتتح عانة والحديثة والأنبار، غير أن العمر لم يمهل قطز لينفذ مشروعه الخاص باحياء الخلافة العباسية فى بغداد .

وتولى بيبرس فاستدعى أبو العباس أحمد لمقابلته فى القاهرة غير أنه سبقه إلى القاهرة أمير آخر من بنى العباس هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر، فآثر أبو العباس العودة إلى الشام وسار إلى حلب حيث بايعه بالخلافة أميرها شمس الدين أقوش البرلى الخارج عن طاعة السلطان بيبرس، وأمده بسبعمائة فارس من التركمان، فقادهم ووصل بهم إلى عانة .

ولما وصل أبو القاسم أحمد خرج بيبرس إلى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر، واليهود يحملون التوراة، والنصارى يحملون الأنجيل وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته، وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصل إلى قلعة الجبل .

ثم عقد مجلساً عاماً فى قاعة الأعمدة حضره كبار رجال الدولة، وشهد جماعة من العربان أمام الحاضرين بصحة نسب هذا العباسى، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وبايع أبا القاسم ، ثم تبعه السلطان وجميع الحاضرين، ولقبوه بالمستنصر بالله كما أخذت البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم،

وبعد ذلك قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس ما بيده من ملك، وما قد يضيفه إليها أو يفتحه من بلاد الكفار .

وفى (٤ شعبان سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م) ضربت خيمة كبيرة في المطرية قرأ فيها صاحب ديوان الإنشاء القاضى فخر الدين بن لقمان تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر وكان بيبرس حتى ذلك الحين لا يزال يتجه الاتجاه القديم الذى بدأه قطز وهو محاولة إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلى بغداد، فرتب له بعض الأمراء والعساكر وانفق فى اعدادهم ألف ألف دينار ، وخرج بيبرس مع الخليفة إلى دمشق وكان فى عزمه أن يزوده بجند آخرين من جيش الشام ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان فى بغداد قد تكون خطراً عليه. فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من ثلاثمائة فارس فقط، وفى الرحبة انضم إليه اربعمائة فارس من عرب العراق ثم لحق به ستون مملوكاً من الموصل وثلاثون من جند حماه وعند مشهد على تقابل مع أبى العباس أحمد الذى كان معه قوة من سبعمائة فارس من التركمان، وإتفقا على أن يعملا معاً لإعادة الخلافة العباسية ، وقرب مدينة هيت التقى جيشهما بجيش التتار بقيادة قرابفا، ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم واستشهاده ، ولم ينج من هذا الجيش إلا عدد قليل فيه أبو العباس أحمد .

قدم أبو العباس أحمد إلى مصر، فعقد بيبرس مجلسا عاماً بالإيوان الكبير بقلعة الجبل حضره القضاة والأمراء وأرباب الدولة، وقرئ نسب أبو العباس أحمد بعد ما ثبتت صحته لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الذى بايعه على أثر ذلك، ثم تلاه السلطان فبايعه "على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء الله" .

فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده "أمور البلاد والعباد" . ولقب الخليفة الجديد "بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين" وبذلك أعيدت الخلافة العباسية إلى مصر، غير أن بيبرس لم يفكر في تزويد هذا الخليفة الجديد بجيش لإستعادة بغداد، وإنما أبقاه في القاهرة ليكون قريباً منه وتحت عينه ، فالظاهر بيبرس لم يشأ أن يخلق قوة ثانية إلى جانبه، وإنما أراد أن يكتسب سنداً شرعياً أمام الرأى العام يقوى به مركزه ومركز دولته، وهكذا أصبحت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية، وظل الخلفاء العباسيون يتعاقبون واحد بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) وأصبح الخلفاء العباسيون بمصر سلطتهم مقصورة على الأمور الدينية، وكما قال المقريزى عن هذه الخلافة "ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين" .

بيبرس والمغول :

من المعروف تاريخياً أن دولة المغول قسمت بعد وفاة جنكيز خان إلى أربعة أقسام، وقد قامت بين دولة المماليك وبين أقرب قسمين علاقات، أما الفرعين أو القسمين البعيدين اللذين لا يربطهما حدود مع دولة المماليك وهما القسم الشرقى الذى حكمه أوجوتاى(١٢٢٧ - ١٢٤١هـ) والقسم الأوسط الذى حكمه جغطاى (١٢٢٧ - ١٢٤١م) فلم يقم بينهما وبين دولة المماليك علاقات

أما الفرعين اللذين ربطتهما بدولة المماليك علاقات فهما أصحاب القسم الغربى الذى كان يحكمه باتوبن جوجى (١٢٢٧-١٢٥٥م) مغول القفجاق، أو مغول القبيلة الذهبية، وكانت العلاقات بينهما علاقات ود وصداقة، وسبب ذلك أن خان هذا الفرع المعاصر لبيبرس وهو بركة خان بن جوجي (١٢٥٧-١٢٦٧م/ ٦٥٥-٦٦٦هـ) كان أول من أسلم من خانات المغول، لذلك تبودلت السفارات التى بلغ عددها أربعين سفارة طوال عهد دولة المماليك البحرية منها تسع سفارات فى عهد الظاهر بيبرس نفسه كلها تحريض على هولاكو وحث بركة على الجهاد، وكانت رسائل بركة خان وخليفته منكوتيمور (١٢٦٧ - ١٢٨٠م/٦٦٦ - ٦٧٩هـ) يعربون فيها عن شكرهم لبيبرس لنجاحه في إقامة خليفة عباسى، ويذكرون له عدد من أسلم من بيوت التتا وعشائرهم ويخبرونه بأنهم أعداء لأعداء السلطان، وأنهم مقيمون على محبته.

المهم أن بيبرس أرسل ست سفارات إلى خانات مغول القفجاق وأرسلوا هم ثلاث سفارات كلها تعبر عن أواصر الصداقة بين الدولتين، وتحريض على دولة مغول فارس المعادية .

ونتيجة لهذه الصداقة لجأ إلى مصر فى عهد بيبرس عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية الفارين من هولاكو، فأكرمهم بيبرس، فاعتنقوا الإسلام، وأدخل عدداً منهم جنوداً فى جيشه، مما شجع على قدوم أعداداً أخرى كونوا فرقة خاصة عرفت باسم "الفرقة الوافدية" التى كان غالبيتها من المغول وكان عهد الظاهر بيبرس وعهد السلطان كبتغا المغولى الأصل والذى لم تدم سلطنته غير عامين (٦٩٤ - ٦٩٦هـ/١٢٩٤ - ١٢٩٦م) من أكثر العهود التى قدمت فيها أعداد من المغول، ويقال أن بيبرس كان من أشد المعجبين بالنظم المغولية، وتشير المصادر إلى أن الفرقة المغولية التى قدمت زمن السلطان العادل كتبغا كانت تعرف باسم الأويراتية وكان نسائها فى غاية

الحسن والجمال فتزوج منهم بعض أمراء المماليك .

أما عن علاقة بيبرس بفرع خانات فارس :

فى الواقع أن المغول لم ينسوا ما حل بهم فى موقعة عين جالوت فظلوا يوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها، أما عن المسلمين عامة والمماليك بوجه خاص فكانوا يكرهون مغول فارس بوصفهم وثنيين، ولأنهم الذين أسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد، وقد أدرك بيبرس منذ اللحظة الأولى لتولية السلطنة، أن المغول لابد مقدمون على الأخذ بثأرهم، لذلك كان على استعداد دائم لمنازلتهم، وكان نضاله ضد المغول متصلاً بنضاله ضد البقايا الصليبية فى الشام، وذلك حتى لا يدع فرصة للتقرب أو التحالف بين الفريقين ولم يكد يعلم المغول بموت قطز حتى أغارت فلولهم بقيادة بيدرا على مدينة البيرة سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) ومنها تقدموا إلى حلب وحماة، ولكن بيبرس نجح فى ذلك الوقت فى عقد تحالفاً مع بركة خان مغول القفجاق، وهادن الصليبيين، وأرسل جزءاً من جيشه إسترد البيرة، ثم أمر السلطان بيبرس بعمارة ما خرب من البيرة وبحمل ألات القتال إليها من مصر والشام، وبإعداد كل ما يحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين، وكلف صاحب حماة وبعض الأمراء بإخلاء خندق البيرة من الحجارة التى رماها التتار فيه.

ومات هولاكو سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) وخلفه ابنه أباغا (٦٦٣هـ - ٦٨١هـ/ ١٢٦٥ - ١٢٨٢م) الذى سار على سياسة أبيه فى مناوأة المماليك ومصادقة الصاليبيين، فقد تزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجاس (١٢٥٩ - ١٢٨٢م) ومن ثم كان يعطف على المسيحيين، وعلى الرغم من العداء المستحكم بين المغول والمماليك فقد حاول أباغا أن يسعى لمصالحة بيبرس وتوسط له فى ذلك صاحب سيس وفى دمشق وصل رسول

أباغا يحمل خطاباً فى هذا المعنى لبيبرس، غير أن الخطاب كان ذا لهجة تهديدية، ولهذا رفض بيبرس المصالحة ورد عليه بخطاب أكثر تهديداً مما أدى إلى قيام مناوشات عديدة بين جيوش التتار وجيوش المماليك .

فقد أغار التتار على الساجور فأرسل إليهم بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار، فارتد التتار وولوا منهزمين، وفى سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) هاجم التتار عين تاب وعمق الحارم، فأرسل إليهم بيبرس الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى فهزمهم وقدمت رسل التتار إلى بيبرس فى دمشق تطلب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغا .

وعلى الرغم من هذه السياسة الودية فإن مغول فارس أغاروا فى العام التالى (٦٧١هـ/١٢٧٢م) على البيرة وكان بيبرس مقيماً فى دمشق، فخرج بنفسه وحمل معه بعض السفن المفككة إلى نهر الفرات حيث أعاد تركيبها، وعبر بجنوده إلى الشاطئ الشرقى حيث انتصر على المغول الذين هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق، فأخذ بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها ولم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاهاً آخر فى مناوأة بيبرس وهو منطقة آسيا الصغرى حيث كانت دولة سلاجقة الروم المتاخمة للحدود الشمالية للدولة المملوكية قد ضعفت وخضعت للمغول منذ عهد هولاكو وكان سلطانها المعاصر لبيبرس هو معين الدين سليمان البرواناه، لذلك صمم بيبرس على مهاجمة دولة سلاجقة الروم ليقضى على نفوذ المغول بها .

وفى موقعة أبلستين حلت الهزيمة ساحقة بالمغول وحلفائهم السلاجقة ودخل بيبرس قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة، وجلس على عرش سلاجقة الروم. بعد أن فر معين الدين سليمان البرواناه زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد ضخم من رجاله ومن المغول .

ويشير أحد المؤرخين إلى أثر هذه الواقعة فى تحطيم دولة سلاجقة الروم وإتاحة الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى سيكون لها دور كبير مثل دولة بنى قرمان، ودولة بنى عثمان ودولة ذى القدرية، المهم أن بيبرس عاد إلى الشام، ولما علم أبغا بما حدث لرجاله فى أبلستين أسرع إلى هناك سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) واشتد حنقة عندما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من المغول وتأثر تأثراً عميقاً أسال دموعه عندما لم ير أحداً من السلاجقة قتلى، كما تغير على البرواناه عندما علم أنه كان السبب فى حمل الملك الظاهر على القدوم إلى بلاد الروم. لذلك أمر بقتل مائتى ألف من المسلمين السلاجقة، وصحب أبغا البرواناه معه عند عودته، ثم قتله بتحريض خوندات البيت المغولى، لأنه كان السبب فى قتل رجالهم وجنودهم فى موقعة أبلستين، وكان من المنتظر أن يعود بيبرس لطرد المغول من آسيا الصغرى ولكنه لم يلبث أن عاجلته منيته فى دمشق سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردهم على أعقابهم .

جهود بيبرس ضد الصليبيين :

بما لا شك فيه أن نجاح المماليك فى انزال الهزيمة بلويس التاسع وجيشه فى المنصورة، وانتصارهم على التتار فى عين جالوت كانت من العوامل التى حققت لهم نوعاً من المجد أضفى عليهم قسطاً من الأهمية ونوعاً من الشرعية الأمر الذى تطلب منهم أن يبذلوا جهداً متواصلاً فى صد الأخطار الكبرى التى هددت المسلمين عندئذ فى الشرق الأدنى لتبرير حكمهم وضرورة بقائهم فى الحكم أمام رعاياهم. وكان أكبر خطرين يهددان المسلمين فى الشرق الأدنى عند قيام دولة المماليك هما الخطر المغولى الذى سبق أن تحدثنا عنه والخطر الصليبى ولم يقدم بيبرس على مهاجمة الصليبيين والمغول

إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل على ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة، وكانت هذه الخطة عبارة عن عقد مجموعة من التحالفات من القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين ليمنع هذه القوى من إرسال أو السماح بمرور أى مدد للصليبيين وليستعين أيضاً باليولوجس بهذه القوى لمنع حدوث أى تحالف بين المغول والصليبيين فحالف الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس، لعلمه أن الإمبراطورية البيزنطية كانت دائماً العدو اللدود للصليبيين بالشام، وحالف منفرد هو هنشتاوفن - امبراطور الدولة الرومانية الغربية وملك صقلية، وكان بيت هوهنشتاوفن تربطه بمصر صداقة قوية منذ أيام ا يوبيين - فردريك والملك الكامل - وكان سفير بيبرس إلى منفرد المؤرخ جمال الدين بن واصل، كذلك حالف بيبرس بركة خان مغول القفجاق الذين اعتنقوا الإسلام واشتدت العداوة بينهم وبين مغول فارس الوثنيين .

وقد قضى بيبرس عشر سنوات كاملة (٦٥٩ - ٦٦٩هـ/١٢٦١ - ١٢٧١م) فى نضاله ضد الصليبيين ، فلم تمضى سنة من هذه السنوات دون أن يهاجم فيها مدينة أو حصناً من حصونهم ، فلم ينهزم قط فى معركة من معاركهم .

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين فى وقت مبكر سنة (٦٦٠هـ/ نوفمبر ١٢٦١م) عندما هاجم امارة أنطاكية الصليبية لعقاب أميرها بوهيمند السادس ، الذى أعلن عطفه على المغول، ثم كرر الهجوم عليها فى صيف (٦٦١هـ/١٢٦٢م) وأوشك على الاستيلاء عليها، لولا استنجاد هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى بالمغول وتدخله لإنقاذ انطاكية، فاضطر المماليك إلى ترك حصارها بعد أن اسروا أكثر من ثلثمائة .

ولم تبدأ حرب بيبرس الشاملة ضد الصليبيين إلا فى سنة

(٦٦٣هـ/١٢٦٥م) فقد قاد حملة بنفسه لمهاجمة مدينة قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففر أهلها إلى قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام ثم هدمت أسوارها، وبعد انتهاء هذه المعركة اتجه بيبرس إلى يافا وعثليث وأوقع التخريب فيهما، ثم حول وجهته نحو قلعة سوف البحرية الواقعة جنوب قيسارية، ودافع عنها سكانها - الفرسان الإسبتاليين - مدة أربعين يوماً وأخيراً أجبرهم بيبرس على تخريب حصونهم بأيديهم .

وفى العام التالى (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) اتجه بيبرس إلى قلعة صفد التى سقطت بعد حصار دام ثلاثة أسابيع واضطر رئيس الداوية إلى التسليم، وأمن بيبرس من بها على أن يرحلوا إلى عكا بغير سلاح، على أن الفرنج لم يلبثوا أن نقضوا الأمان وحملوا معهم أسلحتهم ومتاعهم، بل صحبوا معهم بعض أسرى المسلمين بعد أن ألبسوهم ملابس الصليبيين، فأمر بيبرس بالقبض على حامية صفد وضرب أعناقهم على تل قريب من صفد، ثم خرب قلعتها، ولكن نظراً لأهميتها الحربية أعاد بنائها فى العام التالى وسجل ذلك فى نص نقش على أسوارها .

كما استولى بيبرس على هونين وتبنين ومدينة الرملة بدون مقاومة وفى سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) أراد أن يعاقب ملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول لمحالفته المغول ضد المسلمين ، فإنتهز بيبرس فرصة غياب هيثوم الأول فى زيارة لمغول فارس فهاجمها وأنزل بها الهزيمة قرب دربساك، ودمر مدن أرمينية الصغرى أذن وطرسوس والمصيصة وأشعل النار فى عاصمتها سيس، وقتل أحد أبناء هيثوم وأسر الابن الآخر وعاد إلى الشام محملاً بالغنائم والأسرى وفى سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٨م) توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية، إذ غادر القاهرة واتجه نحو الشام وهدفه

إمارة انطاكية فاستولي فى طريقه على يافا حيث كانت المعاهدة التى بينه وبين صاحبها قد انتهت بعد وفاته، ثم استولى على الشقيف أرنون التى كان يمتلكها الفرسان الداوية بعد تسعة أيام من حصارها، ثم سار إلى حمص ومنها إلى حماة التي اتخذها قاعدة لهجومه، فقسم جيشه إلى فرق ثلاث، وتولى هو قيادة إحداها ثم زحف على انطاكية وظل محاصراً لها إلى أن عجزت عن المقاومة واستسلمت وكانت أنطاكية كبرى الإمارات الصليبية بالشام، لذلك جاء سقوطها إيذاناً بإنهيار البناء الصليبى بالشام، فلم يبق للصليبيين من المدن الكبرى بعدها سوى عكا وطرابلس .

وفى سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م) جاءت الأخبار لبيبرس وهو بالشام بأن لويس التاسع يعد حملة جديدة لمهاجمة الشرق الإسلامى إنتقاماً للهزيمة التى منى بها فى حملته السابقة، لذلك أسرع بيبرس بالعودة إلى القاهرة ليحصن الثغور ويرمم الأسوار ويستعد حربياً، ولكن شارل دانجو ملك صقلية شقيق لويس التاسع حول الحملة إلى تونس ليؤمن ملكه فى صقلية ، وليحقق بعض مشروعاته ضد الدولة البيزنطية .

ولكن لويس أصيب بالحمى وتوفى فى تونس ولم يستطع أخوة شارل دانجوا أن يحقق أى نصر، فإتفق مع ملك تونس بعد مفاوضات على الجلاء على أن يدفع ملك تونس مبلغاً من المال، وأن يحصل الفرنسيون على بعض الامتيازات فى تونس .

وبعد أن اطمأن بيبرس على نتيجة حملة لويس التاسع اتجه إلى الشام سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) وأخذ يهاجم امارة طرابلس فاستولى على صافيتا من الداوية، وعلى حصن الأكراد وحصن عكار من الإسبتارية، وبدأت طرابلس تحس أنها الهدف التالى بعد أنطاكية، فأرسلت إلى بيبرس تطلب المفاوضة والصلح، واستجاب بيبرس لطلبها، وأرسل وفداً لمفاوضة صاحبها ويقال أن

بيبرس رافق سفراءه متخفياً فى زى خادم ليتعرف على أحوال طرابلس وتحصيناتها تمهيداً لحصارها، وفى طريق عودة بيبرس من طرابلس استولى على حصن القرين - إلى الشمال الشرقى من عكا - فأرسل صاحب عكا يطلب المفاوضة للصلح ولكن شروط المفاوضة حين عرضت عليه لم تلق منه قبولاً .

وفى تلك الأثناء كان بيبرس ناقماً على ملك قبرص هيو الثالث لوزنيان لتهديده لسفن المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط، ولجهوده فى توحيد قوى الصليبيين بالشام، لذلك أسرع بيبرس فى سنة (٦٦٨هـ/١٢٧٠م) بأعداد أسطول من سبع عشرة سفينة لتأديب جزيرة قبرص وملكها، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطئ الجزيرة، وعاد البعض الآخر دون نتيجة .

ولم تقتصر جهود بيبرس على محاربة الصليبيين وإنما امتدت إلى تقليم أظافر الباطنية، التى قامت بدور فى إنحلال بلاد الشام فى ذلك العصر، بمحالفة الصليبيين ودفع الأموال لهم رمزاً للتبعية، وقاموا بإغتيال كثير من زعماء الجهاد من المسلمين، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعرانى، واستولى على معاقلهم بالشام، وأقطعهم بدلاً منها أراضى فى مصر .

ويذكر المؤرخون أن بيبرس قضى السنوات القليلة الباقية من حياته بالنضال ضد المغول الذى انتهى بانتصاره عليهم ودخوله قيصرية فعاد إلى دمشق حيث توفى بها سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) .

منشـآت بيبـرس :

يقال أن بيبرس قام بعدة اصلاحات بالحرم النبوى الشريف، كما أمر سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبه الصخرة بالقدس،

وحدد مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام، كما أمر ببناء مشهد على عين جالوت عرف بمشهد النصر.

وفى ربيع ا خر سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) بدأ فى بناء مدرسته المشهورة بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير، وتم بناء هذه المدرسة سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) وبالرغم من تهدم تلك المدرسة فى عهد المقريزى نفسه، فإن الجزء الأكبر منها ظل باقياً حتى سنة ١٨٧٤م، عندما إخترقها الشارع الممتد من ميدان بيت القاضى إلى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون، وتهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٨٨٢م ولم يبق منها اليوم إلا كتلة مساحتها ١١/٥ متراً.

كما بنى بيبرس بجوار هذه المدرسة كُتاباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ثم شرع فى سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) فى بناء الجامع الظاهر بجهة الحسينية وانتهى من عمارته سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) .

كما قام بتعمير الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين، فعمر الواهى من أركانه وسقوفة وجدرانه، وأستجد به مقصورة ومنبراً .

كما بنى برجاً بقلعة الجبل، وشيد قناطر السباع على الخليج المصرى، وأصلح منارتى رشيد والإسكندرية، وجدد سور الإسكندرية، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة من العبور إذا ارادوا الاغارة على مصر.

أولاد بيبرس :

لم يكن المماليك يؤمنون بمبدأ الوراثة، فهم كانوا يؤمنون بالمساواة لأنهم جميعاً نشأوا نشأةً واحدة، وكان بيبرس بوصفة أحد المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التى أدت إلى عزل على بن أيبك وقيام قطز فى السلطنة إلا أن غريزة الأبوة غلبت عليه، فأراد أن يتحدى

طبيعة المماليك ونظامهم الذى كان يقوم على علاقة الأستاذية، وعلاقة الخشداشية أو الزمالة، وسعى لتوريث السلطنة لإبنه البكر بركة خان ، ففى سنة (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) أعلنه ولياً لعهده وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة له وجعله نائباً عنه فى مصر أثناء خروجه لحرب الصليبيين والمغول، وفى سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٤م) احتفل بسلطنة ابنه الملك السعيد احتفالاً كبيراً وقرى تفويض عهد السلطنة، ومع ذلك كان بيبرس يعتقد أن الملك لن يصفو لابنه بعد موته فى يسر وسهولة، وأن الأمراء لم يبايعوا ولده بولاية العهد إلا رهبة وخوفاً منه، لذلك قام بتزويج ابنه من غازية خاتون ابنة كبير الأمراء سيف الدين قلاوون ليضمن ولاءه وولاء أمراء المماليك الصالحية لابنه ، كما أوصى ابنه وهو على فراش الموت بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء فقال له: "إنك صبى، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى، فمن بلغك عنه يشوش ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه فى وقته، ولا تعتقله، ولا تستشر أحداً فى هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك" .

وبعد وفاة بيبرس بايع القضاة والأمراء الملك السعيد ودعا له الخطباء فى الجوامع وكان عمره وقتذاك تسعة عشر عاماً، وهى سن كانت تمكنه من تحمل أعباء السلطنة لو أنه احتذى حذو والده، ولكنه كان شاباً مستهتراً يميل لمجالس اللهو والشراب مما أدى إلى إزدياد نفوذ مماليكه الخاصكية مما أغضب كبار الأمراء الصالحية وفى مقدمتهم صهره قلاوون، وتآمروا فيما بينهم على عزله واضطروه إلى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والأمراء سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) بعد سنتين من حكمه وعينوه نائباً على الكرك تنفيذاً لرغبته .

وعرض كبار الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون، وكان قلاوون ماكراً فلم يشأ أن يلى السلطنة مباشرة بعد عزل بركة خان، لأنه كان يخشى بأس كبار الأمراء وبأس المماليك الظاهرية، ورشح الابن الثانى لبيبرس - الأمير بدر الدين سلامش - وكان طفلاً فى السابعة من عمره، فعين قلاوون أتابكاً له كما عين الأمير عز الدين الأفرم نائباً للسلطنة .

واستغل قلاوون وصايته للإستئثار بالسلطة والتخلص من المماليك الظاهرية فلم يحكم سلامش سوى مائتى يوم أعلن قلاوون بعدها أنه " لا فائدة من بقاء ذلك الصبى الصغير، لإنتشار السمعة فى البلاد ، وإمتهان الحرمة فى أنفس الحواضر والبواد" فوافقه الأمراء وعزل سلامش وأبعد إلى الكرك ليكون قريباً من أخيه بركة، أما الإبن الثالث لبيبرس وهو خضر فقد عين نائباً على حصن الشوبك، وهكذا زال الملك من بيت بيبرس على يد قلاوون الذى اصطنعه وارتبط معه برباط المصاهرة .

المنصور سيف الدين قلاوون الألفى :

(٦٧٨ - ٦٨٩هـ/١٢٧٩ - ١٢٩٠م)

كان قلاوون - كسابقه بيبرس - واحداً من المماليك البحرية الصالحية اشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر - أحد مماليك العادل أبى بكر الأيوبى - بألف دينار وهو مبلغ ضخم يدل على ما فيه من مواهب فعرف بالألفى، ولما مات علاء الدين انتقل قلاوون إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد أسهم فى الأحداث التى صحبت قيام دولة المماليك، فخرج من مصر مع المماليك البحرية الذين رحلوا إلى الشام عندما اشتدت وطأة عز الدين أيبك على البحرية بعد مقتل أقطاى، ثم عاد إلى مصر مع بيبرس ليقدم المعونة إلى قطز

عند إعداد جيشه لمقاتلة التتار، وفى سلطنة الظاهر بيبرس برز الأمير قلاوون فى صورة أقوى أمراء الدولة فاعتمد عليه بيبرس فى كثير من أعماله الحربية والسلمية .

وتعرض المنصور قلاوون فى أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التى تعرض لها غيره من سلاطين المماليك، ونقصد بهذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على السلطان الجديد، فقد اعتقد كبار امراء الصالحية ان لهم أمجاداً حربية لا تقل عن أمجاد قلاوون وأن لهم مثله الحق فى تولية السلطنة، كما غضب الأمراء الظاهرية لعزل بركة وسلامش ابنى أستاذهم .

من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام رفض الاعتراف بالمنصور قلاوون سلطاناً ، وأعلن نفسه حاكماً على الشام وتلقب بالملك الكامل وخطب له على منبر الجامع الأموى بدمشق، وزاد من خطورة الموقف انضمام أولاد بيبرس خضر وسلامش إلى سنقر - وكان بركة قد توفى - .

غير أن سنقر لم يجد تأييداً من أهل دمشق، واضطر قلاوون بعد أن فشلت وسائل اللين والسياسة إلى استعمال العنف، فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر الذى اتصل بالتتار وأغراهم على غزو الشام، وأخيراً خضع سنقر الأشقر وطلب الصلح بشروط خاصة قبلها قلاوون، وعاد سنقر إلى القاهرة فعفا عنه قلاوون وأكرمه .

وتشير المصادر إلى أنه فى العام التالى تآمر بعض الأمراء الظاهرية - من مماليك الظاهر بيبرس - على السلطان قلاوون، واتصلوا بالصليبيين سراً فعلم السلطان قلاوون بأسرار المؤامرة وعاقب المتآمرين بالإعدام والسجن، وهذا الموقف من جانب المماليك الظاهرية جعل قلاوون يفكر جدياً فى انشاء عصبية من المماليك يكونوا عوناً له ولأولاده من بعده فى تثبيت

عروشهم، لذلك أكثر قلاوون من شراء المماليك وخاصة الجراكسة الذين يقطنون المرتفعات الجنوبية من بلاد قبجاق بين البحر الأسود وبحر قزوين ورباهم بأبراج القلعة إمعاناً فى ابعاد العناصر الشمالية من القبجاق التتازيين الذين تألفت منهم الظاهرية ، مماليك بيبرس وأولاده من الجيش المملوكى .

وبذلك زالت المتاعب الداخلية، وبدأ قلاوون يركز جهوده لإستئناف الجهاد ضد العدوين التقليديين الصليبيين والمغول .

علاقة المنصور قلاوون بالمغول :

أولاً : مغول فارس : شجعت الأحداث الداخلية التى تعرض لهـ المنصور قلاوون وخاصة ثورة سنقر الأشقر نائب الشام، وتآمر بعض الأمراء الظاهرية المغول فبدأوا يهددون حدود الدولة المملوكية، ونظراً لصعوبة مجابهة الصليبيين والمغول فى وقت واحد، ورغبة قلاوون فى أن يبدأ بمواجهة الخطر المغولى ، لهذا جدد الهدنة التى كان بيبرس قد عقدها مع الصليبيين ، ليضمن عدم تحالفهم مع المغول أو استنجادهم بقوى أوربية ، كما جدد الاتفاقات مع مغول القفجاق ، وامبراطور بيزنطة ، وقشتالة ، والمدن الإيطالية .

وكان أن بدأ أبغا وجيوش المغول فى اجتياح الحدود السورية مرتكبين نفس الفظائع التى ارتكبوها منذ عشرين عاماً سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م) واستطاعوا أن يستولوا على بعض المدن المحيطة بحلب، غير أنهم أسرعوا بالعودة إلى قواعدهم بالعراق عندما علموا أن السلطان قلاوون وصل غزة فى طريقه لمنازلتهم .

وفى السنة التالية (٦٨٠هـ/١٢٨١م) أعاد أبغا الهجوم على الشام، وتحالف مع المغول فى غزوتهم هذه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى،

فخرجت جيوش قلاوون وتقابل الجيشان عند حمص، وحلت الهزيمة ساحقة بالمغول وولوا الأدبار إلى العراق حيث توفى أبغا سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) .

ولما توفى أبغاخان خلفه أخوه تكودار الذى اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام قبل سلطنته (٦٨١ - ٦٨٣هـ/٦مايو ١٢٨٢ - ١٠ اغسطس ١٢٨٤م)، وفى عهده بدأت العلاقات تتحسن بين المغول والمماليك، وقد بعث تكودار أحمد بنبأ اعتناقه الإسلام إلى المنصور قلاوون مع رسولين هما الشيخ قطب الدين محمود الشيرازى قاضى سيواس وأتابك السلطان مسعود، سلطان السلاجقة الروم، وأعلن رغبته فى خدمة الإسلام وحقن دماء المسلمين،، وإقامة العلاقات الطيبة بينه وبين إخوانه وجيرانه المسلمين .

وقد رد قلاوون على إيلخان المغول تكودار أحمد بكتاب رحب فيه بدخوله الإسلام وبزوال الأحقاد وإستعداده للتعاون على خدمة الإسلام والمسلمين .

على أن المغول سرعان ما نقموا على تكودار أحمد - لإعتناقه الإسلام وإرغامهم على التدين به ، فدبر نبلاؤهم المؤامرات لخلعه وتولية ابن أخيه أرغون الذى تمكن من قتل عمه تكودار سنة (٦٨٣هـ/١٠ اغسطس سنة ١٢٨٤م) .

وتولى أرغون (٦٨٣ - ٦٩١هـ/١٢٨٤ - ١٢٩١م) إيلخانية مغول فارس، فإضطهد المسلمين فى بلاده وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء ة والمالية ، وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى مصر، فعادت العلاقات بين دولتى المماليك والمغول فى فارس أسوأ مما كانت عليه.

علاقة قلاوون بمغول القفجاق :

استمرت العلاقة بين دولة المماليك فى عهد قلاوون ومغول القفجاق -القبيلة الذهبية- على ما كانت عليه من الود والمحبة وتبادل الهدايا والسفارات ليكون سلاطين المماليك عوناً لهم على أعدائهم من بنى هولاكو وقد تبودلت بين الدولتين فى عهد قلاوون أربع سفارات .

الأولى سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م من قلاوون إلى منكوتمر (١٢٦٧ - ١٢٨٠م) والثانية سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) من تودا منكو (١٢٨٠ - ١٢٨٧م) والثالثة سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) من قلاوون إلى تودا منكو والرابعة والأخيرة سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) من تودا منكو إلى قلاوون .

علاقة قلاوون بالصليبيين :

اضطرت الظروف الداخلية وخطر أيغا المغولى المنصور قلاوون فى بداية حكمه أن يعقد هدنة فى سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية فى بلاد الشام، بوهيموند السابع أمير طرابلس، والداوية ، والإسبتارية ، ولكن ما أن أنزل الهزيمة بالمغول فى موقعة حمص وأجبرهم على مغادرة أرض الشام حتى فكر فى مهاجمة الصليبيين على الرغم من أنه لم ينقضى سوى أربع سنوات فقط من الصلح السابق الذى كانت مدته عشر سنوات وكان هجومه الأول سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) على الإستبارية فى حصن المرقب - وهو من أقوى حصون الصليبيين- وقد استسلم الحصن بعد حصار دام ثمانية وثمانين يوماً، وفى هذا الموقف الخطير الذى هدد الصليبين بالشام لم يتنبه الصليبيون إلى حقيقة الخطر الذى تهددهم، وأستمروا فى منازعاتهم الداخلية، وانتهز قلاوون الفرصة واستولى على اللازقية سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م) وكانت آخر بقايا إمارة انطاكية الصليبية

وشاءت الظروف أن يموت أمير طرابلس بوهيموند السابع فى ذلك الوقت دون وريث، فقام نزاع داخل الإمارة بين الصليبيين حول وراثة الحكم، ويقال أن بعض الأحزاب داخل طرابلس استنجدت بالسلطان قلاوون ، فوجد قلاوون فى ذلك فرصة سانحة لأخذ طرابلس، فخرج من مصر على رأس جيش ضخم حتى وصل إلى طرابلس، فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً، فلم تستطع طرابلس مقاومة الحصار وسقطت سنة (٦٨٨هـ/ابريل ١٢٨٩م) .

ودمرت مدينة طرابلس القديمة، وبنى السلطان قلاوون طرابلس الجديدة فى الداخل بعيداً عن شاطئ البحر خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية.

وبذلك سقطت إمارة طرابلس آخر الإمارات الصليبية الأربعة ، ولم يبق إلا عكا – البقية الباقية من إمارة بيت المقدس – ولم يكن فى نية السلطان قلاوون مهاجمة عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، ذلك أن قلاوون إتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين وجدد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات غير أن أهل عكا الصليبيين استعجلوا نهايتهم بأيديهم ، فاعتدوا على المسلمين الذين كانوا يعيشون فى أمان بالقرب من عكا بمقتضى الاتفاقية السابقة فرأى قلاوون أنه لابد من الإجهاز عليهم والإستيلاء على مدينتهم، وأخذ يستعد للقيام بعمل حربى كبير ضد عكا، غير أنه توفى فجأة فى ذى القعدة سنة (٦٨٩هـ/١٠نوفمبر سنة ١٢٩٠م) تاركاً لابنة الأشرف خليل القيام بهذه المهمة .

منشـآت قـلاوون :

بالرغم من أن المنصور قلاوون قضى فترة حكمه البالغة أحد عشر عاماً فى مقاتلة المغول والصليبيين إلا أنه لم يغفل أمور البلاد الداخلية وكان أغلبها منصباً على الجيش فكون فرقة جديدة من الجراكسة وأسكنهم أبراج

القلعة فعرفوا بالبرجية أو الجراكسة لكى تختصه بولائها .

هذا بالإضافة إلى كثير من المنشآت والمبانى التى أقامها فى القاهر مثل القبة العظيمة التى دفن فيها، والمدرسة، والبيمارستان، ولا زالت هذ المبانى الفخمة الجميلة موجودة حتى ا ن بشارع المعز لدين الله [النحاسين بين القصرين] بالقاهرة .

الأشرف خليل بن قلاوون :
(٦٨٩ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م)

فكر المنصور قلاوون فى نفس السنة التى تولى فيها السلطنة فى تعيين ابنه الأكبر علاء الدين ولياً لعهده، ولم يكتف كما فعل بيبرس بذلك بل منح لقب السلطنة حتى تكون له الهيبة فى نفوس الأمراء والأهالى ، وكان الداف لقلاوون على اقامة ابنه سلطاناً فى حياته أنه كان دائم السفر إلى بلاد الش لمحاربة المغول فرأى أن يقيم ابنه مكانه فى إدارة شئون مصر ومنحه لق السلطنة ولقب بالملك الصالح غير أنه توفى فى حياة أبيه بعد أن قضى ف دست السلطنة ثمانى سنوات (٦٧٩ - ٦٨٧هـ/١٢٨٠ - ١٢٨٨م) وتر القول أن أخاه خليلاً دس له السم لتكون ولاية العهد له وقضى قلاوون بق حياته حزيناً على ولده، ولم تكن له رغبة فى التوصية بولاية العهد لاب خليل، لأنه كان مكروهاً من الأمراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمس بقواعد الدين، غير أنه كتب تقليداً بولاية العهد لخليل، ولكنه توفى قبل يوقع عليه بسبب انشغاله بأمر الصليبيين .

وكان قلاوون قد أناب ابنه خليل عنه فى الحكم عندما خرج إلى ع فى السنة التى توفى فيها، وكان الموقف يتطلب قيام سلطان جديد بسر ليقود الحملة التى كان المنصور قلاوون قد أعدها للثأر من الصليبيين ؛

عكا، ولهذا أقام خليل نفسه سلطاناً وأقسم الأمراء له الأيمان ولقب بالأشرف.

وكان كبار الأمراء على علم بكره قلاوون لابنه خليل لذلك أخذوا يسيئون معاملته ويثيرون والده عليه، ولهذا لم يكد يلي السلطنة حتى راح ينتقم لنفسه ويضطهدأمراءأبيه وأعوانه، وبدأ الأمرايحيكون المؤمرات التقليديةالتي تعرض لهابقيةسلاطين المماليك، فحاول الأميرحسام الدين طرنطاىنائب السلطنة إقصاءخليل عن العرش، ولكن السلطان خليل اكتشف المؤامرة فىالوقت المناسب وقبض على الأمير طرنطاى وقتله وصادرأملاكه، كمامنح إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا الذى فوض إليه نيابة السلطنة، كذلك عزل السلطان الملك الأشرف خليل علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة، وولى مكانه أميراً من أمرائه هو شمس الدين محمد بن السلعوس، الذى زاد نفوذه فى الدولة بعد أن ألقى إليه السلطان مقاليد أمورها وجعل من اختصاصه الإشراف على شئون الأمراء، فكثرت حوادث القتل والقبض والمصادرة بتحريض وتشجيع من ابن السلعوس، ولم يعد أحد من الأمراء يأمن على نفسه. وفى عهد السلطان الملك الأشرف خليل عاث العربان فساداً فى الوجه القبلى وتعرضوا للمارةفى الطرق، فصمم على إخماد فتنتهم، وتقدم الوزير ابن السلعوس السلطان إلى تلك البلاد لإستقباله، وهناك تبين له أن أملاك بدر الدين بيدرا قد اتسعت وأن ثروته قد زادت، فأخذ الوزير يوغر قلب السلطان على بيدرا حتى تغير عليه واستعاد بعض الأراضى التى كان قد استولى عليها وضمها إلى أملاكه .

وعلى الرغم من أن السلطان حاول استرضاء بيدراً خوفاً من بأسه، وأرسل إليه بألف دينار ، ولكن محاولة السلطان زهبت أدراج الرياح .

وبدأ بيدراً يحيك للأشرف خليل المؤامرات المملوكية التقليدية، واشترك معه بعض [illegible] وبادر

المنصورى وانتهزوا فرصة خروج السلطان خليل للصيد في مديرية البحيرة عند كوم تروجة (بالقرب من ابى المطامير الحالية) وتبعوه إلى هناك وانقضوا عليه وقتلوه فى (يوم الأثنين ١٢محرم سنة ٦٩٣هـ/ ديسمبر ١٢٩٣) وظل جثمان السلطان الملك الأشرف خليل ملقى فى المكان الذى قتل فيه يومين كاملين حتى حمله والى تروجة الأمير عز الدين أيدمر العجمى إلى بيت المال بدار الولاية، ثم نقل الأمير سعد الدين كوجبا الناصرى تابوته إلى القاهرة ودفنه بمدرسته التى أنشأها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة (أثر رقم ٢٧٥) .

الأشــرف خليــل والصليبيين :

سبق أن أشرنا إلى أن المنصور قلاوون توفى وهو يعد العدة للزحف على عكا، وهلل الصليبيون لوفاة المنصور قلاوون معتقدين أن تلك الوفاة جاءت إرادة الله لإنقاذ عكا، وزاد من تهليلهم تآمر الأمير حسام الدين طرنطاى ضد السلطان الجديد الأشرف خليل، ولكن سرعان ما خاب ظنهم عندما تغلب السلطان علىالصعاب التى واجهته وخرج فعلاً على راس الجيوش التى أعدها أبوه إلىالشام، وحاول الصليبيون ثنيه عن عزمه، فأرسلوا إليه سفارة "يسألون العفو" ولكن السلطان لم يقبل منهم ما اعتذروا به واجتمعت جحافل الجيوش الإسلامية من مصروبلادالشام أمام عكا سنة (٦٩٠هـ/ابريل ١٢٩١م) ومعها العتاد والسلاح ومدفعية ضخمة تتكون من أثنين وتسعين منجنيقاً، ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، وسقطت عكا فى أيدى المسلمين بعد أن لبثت فى أيدى الصليبيين مائة عام كاملة ، وسرعان ما استولى المسلمون فى سهولة على المدن الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وأنطرطوس وعثليث وهكذا زالت دولة الصليبيين بالشام علىيد الأشرف خليل بن قلاوون.

علاقة الأشرف خليل بمغول فارس :

سبق أن اشرنا إلى أن أرغون الذى خلف تكودار أحمد اتبع سياسة عنيفة مع المسلمين فى بلاده، مما أساء إلى العلاقة بين تتار فارس وسلطنة المماليك، واشتداد الشعور فى جولة المماليك بضرورة إجلاء التتار عن العراق، ولكن هذا المشروع كان لا يمكن أن يتحقق فى عهد الأشرف خليل الذى لم يتجاوز الثلاث سنوات وشهرين فى الوقت الذى استنفدت فيه الحروب ضد الصليبيين الكثير من جهده فاكتفى الأشرف خليل بالاستيلاء على قلعة الروم سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٢م) عز بى الفرات التى كان المغول يتخذونها قاعدة للوثوب منها على بلاد الشام .

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الأولى]

(٦٩٣ - ٦٩٤هـ/١٢٩٣ - ١٢٩٤م)

بعد قتل الأشرف خليل عند كوم تروجة وقع اختيار الأمراء المتآمرين على بيدرا نائب السلطنة ليكون سلطاناً ولقبوه "الملك الرحيم" وقيل " الملك الأمجد" أو "الملك القاهر" أو "الملك الأوحد" ، ولكن لم تكد أخبار مقتل السلطان تصل إلى القاهرة حتى هب المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - بزعامة الأمير زين الدين كبتغا للثأر لأستاذهم، وطاردوا بيدرا وأعوانه حتى لحقوا بهم فى الطرانة من قرى كوم حمادة بالبحيرة وتمكنوا من قتل بيدرا، ثم عادوا إلى القاهرة، ونادى زين الدين كبتغا بنفسه سلطاناً فى القلعة، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كان السلطان الأشرف خليل قد أنابه عنه فى قلعة الجبل قبل خروجه للصيد - حال بين كبتغا وبين دخول القاهرة، وانتهى الأمر بين الأمراء على اختيار الابن الأصغر لقلاوون

"محمد"، ولم يكن اتفاقهم عن إيمان بمبدأ الوراثة، فالمماليك لم يكونوا يؤمنون بهذا النظام من نظم الحكم - كما سبق أن ذكرنا - ولكن كان اتفاقاً مؤقتاً إلى أن ينجلى الموقف ويدبر كل أمير أمره ويجمع أعوانه ثم يكون الفوز للأقوى.

كان الناصر محمد بن قلاوون حين أختير لتولى السلطنة صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره، ولم تدم سلطنته الأولى هذه غير سنة واحدة كانت اسمية، وتركزت السلطة الفعلية فى أيدى مجموعة من الأمراء فى مقدمتهم الأمير زين الدين كبتغا نائب السلطنة، وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير، وسعى كل من هذين الأميرين لإنتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير، وانتهت المنافسة بينهما بالتجاء سنجر الشجاعى إلى القلعة ومحاصرة كبتغا ورجاله للقلعة وقطع الماء عنها يوماً كاملاً إلى أن تمكن كبتغا من القبض على سنجر الشجاعى وقتله، وبذلك أصبح كبتغا صاحب الكلمة الأولى فى شئون الدولة، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه، ولم ينقص كبتغا سوى لقب السلطنة وشعارها .

ولجأ كبتغا إلى استصدار أمر من الملك الناصر بالعفو عن بعض الأمراء الذين اشتركوا فى قتل الأشرف خليل مثل الأمير حسام الدين لاجين والأمير قراسنقر فأدى ظهورهما إلى ثورة المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - فى القاهرة فنهبوا الأسواق واتجهوا إلى القلعة لمحاصرتها، ولكن جنود كبتغا تمكنوا من إخماد ثورتهم .

واستغل حسام الدين لاجين هذه الثورة وحرض كبتغا على عزل الناصر محمد وإعلان نفسه سلطاناً بدله، قال له إن الناصر متى كبر لا يبقيك، واقتنع كبتغا بهذا الرأى، فجمع الخليفة والأمراء والقضاة للتشاور ، وقال لهم: "لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية" وأوضح لهم ضرورة أن يلى السلطنة رجل قوى تهابه الجند وتخشاه

الرعية، وضرب لهم مثلاً بثورة المماليك الأشرفية وقال انها لم تكن لتحدث لو كان السلطان رجلاً كبيراً .

واقتنع الحاضرون برأيه ووافقوا على خلع الناصر محمد بعد سنة إلا ثلاثة أيام من تولية الحكم، وأعلن كبتغا سلطاناً فأمر بإسكان الناصر مع أمه فى بعض قاعات القلعة وحجبه عن الناس .

السلطان العادل زين الدين كبتغا :

(٦٩٤ - ٦٩٦هـ/١٢٩٤ - ١٢٩٦م)

كان كبتغا مغولى الأصل أسرة السلطان المنصور قلاوون فى واقعة حمص الأولى وجعله فى زمرة مماليكه حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة. وقد بدأ كبتغا حكمه بتعيين الأمير الصاحب فخر الدين الخليلى فى منصب الوزاره، وحسام الدين لاجين، نائباً للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة، ومن ثم صار كبتغا يقرب إليه الأمراء وينعم عليهم بالإقطاعات حتى قويت شوكته وعظمت منزلته عند جميع الناس، غير أنه لم يكن موفقاً فى حكمه لا لضعف في شخصيته، وإنما لأسباب خارجة عن إرادته، فقد اقترن عهده بأحداث كثيرة أثارت غضب الشعب وكرهه وأصبحوا يتمنون زوال ملكه، من أهمها وصول طائفة من المغول الأويراتية وترحيبه بهم لأنهم من بنى جنسه ومنحهم الإقطاعات وأجرى عليهم الأرزاق وأنزلهم بالحسينية، وكره الشعب هؤلاء الوافدية لأن الكثيرين منهم كانوا لا يزالون على وثنيتهم لم يعتنقوا الإسلام بعد، فكانوا يخالفون أوامر الدين ولا يصومون شهر رمضان .

كما تشاءم الناس من كبتغا وحكمه لأنه جاء مصحوباً بانخفاض النيل

واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء وكثر موت الناس حتى كان يخرج من باب من أبواب القاهرة كما تشير المصادر كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت وتزايد الأمر فصارت الناس تدفن بغير غسل أو كفن، وعجز الناس عن مواراة الأموات فى القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم، وقرن الناس بين هذا البلاء الذى أصابهم وبين توليه كتبغا للحكم .

واستغل حسام الدين لاجين الصديق القديم لكبتغا عوامل الكراهية التى أخذت تتجمع ضد كبتغا، وبدأ يأتمر به ويعمل على إبعاده وتوليه السلطنة مكانه ونفذت المؤامرة فى طريق عودة كبتغا من زيارة الشام وفى صحبته لاجين سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٦م) فعند اللجون - قرب طبرية أحس كبتغا بالمؤامرة ففر إلى دمشق ولجأ إلى قلعتها واحتمى بها - إلى أن عينه حسام الدين لاجين بعد أن تسلطن نائباً على قلعة صرخد بعد أن أخذ عليه التعهد بأن لا يكاتب أحداً أو يشاور أحداً - فذهب إليها معززاً ، وفى عصر سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م) نقل حاكماً على حماة فظل بها إلى أن توفى فى سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) .

هكذا انتهت سلطنة العادل كبتغا التى لم تدم غير سنتين .

السلطان المنصور حسام الدين لاجين :

(٦٩٥ - ٦٩٨هـ/١٢٩٦ - ١٢٩٨م)

كان لاجين مملوكاً من مماليك السلطان المنصور قلاوون، ثم اعتقه ونقله إلى الخدمة ومر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى أصبح أميراً، وزوجه إحدى بناته، وعينه نائباً على دمشق، فلما ولى السلطنة الأشرف خليل عزله عن نيابة دمشق، فأثار هذا العزل الحقد فى نفسه ودفعه إلى الاشتراك فى المؤامرة التى دبرت فى كوم تروجة ضد خليل عند خروجه للصيد وانتهت

بقتله، واختفى لاجين خوفاً من انتقام المماليك الأشر فيه فى جامع ابن طولون . إلى أن استصدر كبتغا وقت أن شغل منصب السلطنة للناصر محمد بن قلاوون أمراً بالعفو عن حسام الدين لاجين، ثم حرض لاجين كبتغا على إبعاد الناصر والاستيلاء على العرش، ثم أخذ لاجين يتآمر على صديقه القديم كبتغا طمعاً فى السلطنة، ونفذت المؤامرة فى سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٦م) بينما كان السلطان كبتغا فى زيارة للشام وفى صحبته لاجين، ففى طريق العودة إلى مصر وعند اللجون - قرب طبرية - أحس كبتغا بالمؤامرة ففر إلى دمشق.

هكذا اتيحت الفرصة للأمير حسام الدين لاجين لإعتلاء عرش السلطنة فإستولى على خزائن السلطان كبتغا، وضم إلى جانبه العساكر التى كانت فى ركابه ، ثم قابله الأمراء وشرطوا عليه أن يكون معهم كأحدهم وأن لا يستقل برأى دونهم، ولا يطلق العنان لمماليكه، وأقسم لاجين لهم ألا يستبد برأيه فى أمر من الأمور بل يستشيرهم فى مهام الدولة، كما تعهد بألا يقدم مماليكه وخاصة منكوتمر على واحد منهم، فوافق الأمراء على توليته ، وحلفوا له على السمع والطاعة، ثم تلقب بالملك المنصور وركب بشعار السلطنة .

وانتهت مشكلته مع كبتغا بتعيينه نائباً على قلعة صرخد، على أن مشكلة كبتغا لم تكن المشكلة الوحيدة التى واجهت السلطان حسام الدين لاجين فى أوائل حكمه، إذا كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذى نظر إليه الناس بوصفه صاحب الحق الشرعى الأول فى السلطنة، وكان لاجين قد اتخذ من زواجه من ابنة قلاوون ذريعة لأحقيته فى تولى العرش ، لذلك عمل على ابعاد الناصر محمد إلى قلعة الكرك قائلاً له أنا "احفظ لك الملك، وأنت ا ن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل وتتخرج وتجرب الأمور تعود إلى ملكك".

وتشير المصادر إلى أن حسام الدين لاجين أثناء نيابته فى دمشق كان

يحيا حياة كلها لهو وإنصراف إلى شرب الخمر والبحث عن الملذات، ولكنه بعد توليه السلطنة انقلب رجلاً آخر، فأقبل على العبادة وحرص على أن يسود العدل بين الناس، وكان يجالس عامة الشعب ويشاركهم فى طعامهم وانفق المبالغ الطائلة فى تجديد جامع ابن طولون وفاء لنذر نذره اثناء اختفائه فيه بعد مقتل الأشرف خليل، كما عمل الروك الحسامى سنة (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) وهى عملية قياس الأرض ومسحها، وما يتبعها من فك الزمام وتعديله — وراعى المصلحة عند اعادة توزيع الإقطاعات ، وكان سبب قيامه بهذه العملية – الروك – هو أنه لاحظ أن الأمراء يأخذون الكثير من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية ، مما يجعلها مغنما لأعوانهم ومستخدميهم .

وفى عهده علا فيضان النيل ، وكثرت المحاصيل ، وانخفضت الأسعار، وانقطعت الأوبئة ، فزاد حب الناس له، وكان من الممكن أن تطول فترة سلطنة لاجين، ولكن حنثه بالوعد الذى أخذه على نفسه أمام الأمراء عندما اختاروه لتولى السلطنة هو ألا يسلط عليهم مماليكه أو يتركهم يعبثون بمصالح الغير، ألا أنه قرب نفر من مماليكه إليه ورقاهم إلى مرتبة الإمارة، كما قام بعزل شمس الدين قراسنقر نائب السلطنة وعين بدلاً منه مملوكه منكوتمر، وأطلق له العنان يتصرف وفق هواه فإستبد بالحكم وحجب السلطان حسام الدين لاجين عن الخاصة والعامة، مما كان بداية للمتاعب التى واجهت السلطان لاجين .

ويبدو أن منكوتمر أعد نفسه لأن يخلف لاجين فى منصب السلطنة، الأمر الذى أثار حنق الأمراء وجعلهم يفكرون فى القضاء على منكوتمر والسلطان لاجين معاً وتزعم المؤامرة الأمير كرجى مقدم البرجية .

وفى يوم الخميس العاشر من ربيع ا خر سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) أنقض

الأمير كرجى على السلطان بالقلعة فضربه بسيفه، وأكمل عليه بقية الأمراء، ثم اتجهوا إلى منكوتمر فأجهزوا عليه كذلك، وبذلك انتهت سلطنة حسام الدين لاجين التى استمرت سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوماً .

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثانية] :

(٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م)

بعد مقتل لاجين ومنكوتمر خلا دست السلطنة من سلطان، واجتمع الأمراء للتشاور، فنهض الأمير كرجى - قاتل السلطان لاجين - ورشح زميله الأمير طغجى ليتولى دست السلطنة، كما رشح نفسه لنيابة السلطنة .

غير أن الأمراء لم يرحبوا بهذا الترشيح ، وأنفض المجلس دون الوصول إلى اتفاق، ولم يلبث أن كثر الطامعون واشتد الشقاق، وثارت الفتنة فى البلد وانتهت بقتل الأميرين كرجى وطغجى، ورؤى حسماً للخلاف استدعاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ليلى السلطنة، لا إيماناً من الأمراء باحقيته ولكن حتى ينجلى الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوى الذى يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرض نفسه سلطاناً .

وعندما تأكد الناصر محمد من صدق دعوة الأمراء - لأنه كان يخشى أن يكون وراءها مكيدة - خرج من الكرك فى موكب حافل، واستقبل فى القاهرة استقبالاً حماسياً إلى أن صعد قلعة الجبل، وجلس على العرش وجدد الأمراء له البيعة وأصدر الخليفة التقليد بإنابته عنه فى الحكم وتعيينه سلطاناً، وكان عمر الناصر محمد فى بداية سلطنته الثانية أربعة عشر عاماً .

أخذ الناصر يباشر سلطانه ، فعين الأمير سيف الدين سلار (التترى) نائباً للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (الجركسى) استاداراً وقد استغل هذان الأميران صغر سن السلطان واستبدا بالأمور، وضيقا على

الناصر محمد، حتى أنهما تدخلا فى أبسط أموره الشخصية مثل المصروف والمأكل والمشرب ، وتتيجة للسياسة التى سار عليها كل من بيبرس وسلار فى الإستئثار بالسلطة أن بدأت مظاهر الإختلاف تظهر بينهما، ولكن تأجل النزاع المرتقب بينهما قليلاً بسبب تجدد هجمات المغول على بلاد الشام.

الناصر محمد بن قلاوون ومغول فارس :

خرج غازان إيلخان مغول فارس إلى بلاد الشام بجيوشه سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٨م) يريد الإنتقام من المماليك والأخذ بثأر الهزائم السابقة، ولما وصل إلى الناصر محمد نبأ عبور غازان نهر الفرات عهد إلى بعض الأمراء بالخروج إلى بلاد الشام ثم تبعهم على رأس جيش كبير بعد أن أناب عنه فى مصر الأمير ركى الدين بيبرس المنصورى الدوادار، وعند غزة قامت فرقة الأويرانية بفتنة لإعادة كبتغا إلى العرش، وبالرغم من القضاء على هذا الفتنة إلا أنها أخرت زحف الجيش المملوكى وأصابته بالفوضى والإرتباك وأدت إلى فقده كثير من معداته الحربية فنزلت الهزيمة بالمماليك عند مجمع المروج بين حماة وحمص ، واكتفى غازان بذلك وعاد إلى بلاده بعد أن عين نائباً عنه فى دمشق وعادت فلول الجيش المملوكى إلى مصر لتعيد تكوين جيش جديد.

وفى تلك الأثناء وصل وفد من قبل غازان يعرض الصلح ويحمل رسالة فى هذا المعنى، وإستجاب الناصر، ولكن هذا العرض كان خدعة من غازان يقصد به كسب الوقت للتعرف على أحوال المماليك فخرج غازان من بلاده سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م). قاصداً غزو الشام من جديد وكان ذلك فى الوقت الذى خرج فيه جيش كبير من المماليك على راسه السلطان الناصر محمد يدفعهم الحماس والرغبة فى الإنتقام لمسح عار الهزيمة السابقة وفى مرج الصغر بالقرب من دمشق دارت موقعة كبيرة حلت فيها الهزيمة قاسية

بالمغول ، الأمر الذى جعل الناس يفرحون بالناصر محمد رغم صغر سنه ويستقبلونه استقبالاً حافلاً فى دمشق والقاهرة .

الناصر محمد بن قلاوون والأعراب :

وبعد عودة الناصر إلى عاصمة ملكه، وبعد أن هدأت احتفالات النصر على المغول فى مرج الصفر وصلت الأنباء بأن الأعراب يعبثون فساداً فى الوجه القبلى وأنهم أخذوا يقطعون الطرق على التجار ويفرضون عليهم ضرائب فادحة من المال والغلال، وقد بلغ من تفاقم خطرهم أن استخفوا بالولاة وامتنعو عن أداء الخراج، وهجموا على السجن وأخرجوا المساجين، وأعلنوا عصيانهم. ولما اشتد خطر هؤلاء الأعراب ، استدعى الأمراء القضاة والفقهاء واستفتوهم فى قتالهم ، فأفتوا بجواز ذلك .

ووضعت خطة حكيمة ماكرة، فأصدرت الأوامر لوالى الجيزة أن يمنع الناس من السفر إلى الصعيد، ثم أشيع فى البلاد أن الأمراء سيسافرون إلى الشام وتقرر بعد ذلك أن تخرج أربع فرق من الجيش إلى الصعيد، سلار وبيبرس كل على رأس جيشه ويكون أحدهم فى البر الشرقى وا خر فى البر الغربى، وسار الأمير بكتاش بمن معه من الجند إلى الفيوم ، وخرج بيبرس الدوادار مع بعض الأمراء إلى السويس والطور، كما قطع حاكم قوص بمساعدة بعض الأعراب الموالين طرق الصحراء، وبذلك نجح الأمراء فى محاصرة العربان المتمردين بالوجه القبلى على حين غفلة منهم، ثم انقضوا عليهم فى مخابئهم وتعقبوهم بسيوفهم حتى أبادوا كثيرين منهم، وبذلك تخلصت الدولة من شرورهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة وأمن الناس فى الصعيد على أرواحهم وأموالهم .

وبعد أن انتهى الناصر محمد بن قلاوون من هذين الخطرين، الخارجى

المغول والداخلي وهو الأعراب، بدأ يحاول معتزاً بإنتصاراته أن يباشر بنفسه شئون الحكم . ولكن الأميران سلار وبيبرس ضيقا الخناق عليه، وحالا بينه وبين الإتصال بالناس أو التصرف في أمواله، لذلك فكر الناصر محمد في الهروب من السلطنة فتظاهر برغبته في أداء فريضة الحج وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق الكرك، ولكنه لم يكد يصل إلى الكرك سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م) حتى أعلن أنه عدل عن الحج، ورغب في المقام بالكرك، وأرسل الناصر كتاباً إلى الأمراء في مصر يخبرهم فيه بنيته ، فوجئ بيبرس وسلار بهذا القرار ، فأرسلا إلى الناصر يتهددانه ويطلبان منه العودة إلى القاهرة وإلا حرموه من السلطنة ومن الإقامة في الكرك، ولكنه صر على موقفه .

وبذلك خلا دست السلطنة مرة ثانية، وانتهت سلطنة الناصر محمد ثانية التي استمرت نحو عشر سنين ونصف سنة .

سلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير :

(٧٠٨ - ٧٠٩هـ/١٣٠٨ - ١٣٠٩م)

بعد أن صمم الناصر محمد على عدم مغادرة الكرك واعتزل الحكم، ...ع الأمراء للتشاور فاقترح عليهم بيبرس الجاشنكير معاودة الكتابة إلى ...اصر ورجائه في العودة إلى ملكه، فلم يقبل الأمراء منه هذا الرأي "لأنه متى حصل التردد والمراجعة والتقليد والمفاوضة نخشى من اضطراب الأمور وعنت الجمهور ونفاق العربان وثورة أهل العصيان" واستقر رأيهم على أن ...عهدوا بالملك إلى الأمير سلار بوصفه نائب السلطنة، ولكنه امتنع عن قبول ...سب وخاف أن يحل به ما حل بكتبغا ولاجين، ويبدو أن سلار الذي كان

زعيم المماليك الترك أحس بعدم رضاء المماليك الجراكسة عن ترشيحه للسلطنة وأنه لم يبق "إلا اقامتهم الفتنة" فتقدم وخاطب الأمراء قائلاً : "والله يا أمراء ما أصلح للملك ولا يصلح له إلى أخى هذا" واشار إلى بيبرس الجاشنكير الجركسى فوافق الأمراء وتسارع البرجية بأجمعهم قائلين : "صدق الأمير سلار وأخذوا بيد الأمير بيبرس وأقاموه كرهاً وصاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه" وبذلك وقع اختيار الأمراء على الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وبويع له بعد أن عرض كتاب السلطان الناصر محمد – الذى يقول فيه انه خلع نفسه من الملك على قضاة مصر، فاستقر على دست السلطان فى (٢٣ شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) ولقب بالمظفر ، وعين الأمير سلار نائباً للسلطنة "على عادته" .

ولم تطل سلطنة بيبرس غير سنة واحدة (٧٠٨ – ٧٠٩هـ/١٣٠٨ – ١٣٠٩م)، ولم تستقر له الأمور خلالها، فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار ، ونسب الشعب هذا كله إلى بيبرس، فكرهوه وكرهوا عهده وخاصة أنه اتبع سياسة العنف فى معاملته للناس والأمراء، فقد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه .

أما الناصر محمد نفسه فكان كلما تقدم به الوقت تنبه إلى حقوقه فى الملك وإلى سلطانه المسلوب فقد أصبح الصبى الصغير فتى يافعاً واكتسب قدراً كبيراً من التجربة وبخاصة فى معاملة الأمراء، وأخذ يتصل بأمراء

الشام لجمعهم حوله والإنتصار بهم ؛ ثم مهاجمة مصر لإبعاد بيبرس وسلار واستخلاص العرش ثانية لنفسه، وفعلاً استجاب أمراء الشام لدعوته، وترك كثيراً من الأمراء جانب بيبرس الجاشنكير وهربوا إليه، عند ذلك خرج الناصر بجنده إلى دمشق فاستقبله أهلها بالحفاوة والترحيب ودعى له على منابرها .

وحاول المظفر بيبرس بعد أن انفض عنه معظم رجاله أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسي المستكفي بالله أبي الربيع سليمان، وفي تلك البيعة حث الناس على طاعة بيبرس وتأييد ملكه، ولكن دون جدوى .

واخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه في موقف لا يحسد عليه، بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء، فجمع من بقي حوله من الأمراء وتشاور وإياهم في الموقف فنصحه الأمير سلار نائب السلطنة بالتنازل عن العرش وان يكتب إلى الناصر يرجوه العفو، فوافق على رأيه ، وأرسل إلى الناصر يستعطفه أن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون او حماة، ثم أعلن خلع نفسه من السلطنة بحضور قضاة مصر الأربعة بعد أن استولى على ما في خزائن مصر من الأموال وفر هارباً من القلعة ومعه مماليكه قاصداً أطفيح، واتصل خبرهروبه بالعامة "فأدركوه وهو خارج من القلعة وتبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة" وأوشكو على الفتك به لولا أن شغلهم بما رماه إليهم من مال. وبذلك انتهت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير.

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثالثة] :

(٧٠٩ - ٧٤١هـ/ ١٣٠٩- ١٣٤١م)

يعتبر المؤرخ أبو الفداء شاهد عيان لرحلة الناصر محمد من الكرك حتى وصل إلى القاهرة،إذ أنه رافق الناصرفيرحلته حتىدخل القاهرة،ولم يعد إلىالشام إلابعدأن جلس علىالعرش، فقددخل الناصرقلعة الجبل مساء الأربعاء أول أيام عيد الفطر سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) وجلس على تخت الملك وسرير السلطنة وحضر الخليفة أبوالربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للهناء.

وكان الناصر في هذه المرة قد جاوز سن الطفولة، فقد كان عمره وقتذاك خمسة وعشرين عاماً، وقد صقلته الأحداث وحنكته التجارب فلم يترك لأحد من الأمراء شيئاً من النفوذ، بل جمع السلطة كلها في يديه، ورسم خطة للإنتقام الهادى البطئ من كل الأمراء الذين أساءوا إليه، وبدا بيبرس الجاشنكير فقبض عليه عند غزة وهو يحاول الفرار، وأعدمه بعد أن عنفه وذكره بمواقفه منه .

أما سلار فقد القى به في السجن في قلعة الجبل، وصودرت كل أمواله، فقد كان من أغنى الأمراء محباً لجمع المال، وقد ترك سجيناً دون طعام أو شراب لمدة سبعة أيام، ثم مات بعد أن أكل أحد أصابعه، ودفن في التربة التي كان قد انشأها لنفسه بالقرب من جامع بن طولون .

وهكذا فعل الناصر بكل الأمراء الذين أساءوا إليه في الماضي أو الذين حاولوا التآمر ضده، ولم يتساهل مع أي أمير - في مصر والشام - شك في ولائه واخلاصه له .

وقد استمر حكم الناصر محمد في تلك المرة الثالثة إحدى وثلاثين سنة نعمت فيها مصر بالهدوء والإستقرار، وبلغت الذروة من التقدم والرخاء والعمران والنفوذ، وقد بدأ الناصر بإلغاء كثير من المكوس وهي الضرائب

غير الشرعية التى استحدثها الولاة والسلاطين لسد الحاجات الطارئة للدولة، مثل مكس ساحل الغلال، ومقرر السجون، ومقرر طرح الفراريج، ومقرر الأقصاب ومقرر المعاصر، ومقرر رسوم الأفراح، وكان هدفه من الغاء هذه المكوس اضعاف الأمراء لأنهم كانوا أول المنتفعين بها .

كما قام بعمل الروك الناصرى – والروك كلمة من أصل قبطى تطلق على عملية قياس الأرض ومسحها وتقدير ما عليها من خراج – فأعاد توزيع الإقطاعات بحيث يحد من قوة الأمراء وسلطانهم، واستغرقت هذه العملية خمسة وسبعين يوماً وشارك السلطان الناصر نفسه فيها .

ولا أدل على موجة الرخاء التى عمت مصر فى ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التى أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانقاوات وسبل وقصور، وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة فى مصر والشام ومن أهم منشآته فى القاهرة الميدان العظيم على النيل وهو المعروف (الميدان الناصرى) وموقعه الآن حى جاردن سيتى، وكان مخصصاً لسباق الخيل .

ومنها القصر الأبلق الذى أحضر الناصر له مهرة الصناع من دمشق ليشتركوا مع زملائهم المصريين فى بناءه وزخرفته، وسمى بالأبلق نظراً لأن واجهته كانت مكونة من أشرطة عريضة متوازية ذات لون أسود وأصفر على التوالى نتيجة لإستخدام نوعين من الصخور لهما هذان اللونان .

ومنها الإيوان الذى كان موقعه موقع مسجد محمد على الحالى فى القلعة، وكان والده المنصور قلاوون هو الذى بناه، وجدده أخيه الأشرف خليل، فأعاد بناءه الناصر محمد، وأنشأ به قبة عظيمة، ووضع فى صدرة سرير الملك، وكان مصنوعاً من العاج والأبنوس .

ومنها مسجد القلعة الذى لا يزال موجوداً حتى الآن، وكذلك شيد

الناصر خانقاة للصوفية بالقرب من سرياقوس، وقد عمر ما حول الخانقاه حتى أصبحت قرية تعرف اليوم بإسم "الخانكاة" كما أعاد الناصر حفر خليج الإسكندرية مما ساعد على نمو الأراضى المنزرعة، ونمو النشاط التجارى بالإسكندرية وإزدياد العمران بها .

ونظراً لهذا الإستقرار والرخاء الذى نعمت به مصر فى عهد الناصر محمد أن اعتبر ذلك العصر بالذات أعظم عصور التاريخ المصرى زمن المماليك مما أدى إلى رفع مكانة مصر فى العالم الخارجى، فسعت معظم الدول الإسلامية والمسيحية إلى خطب وده، وعمل هو من جانبه على تحسين علاقاته بهذه الدول ومما ساعده على ذلك انتهاء الخطرين الكبيرين اللذين كانا يهددان مصر وهما المغول والصليبيين .

وقد حاول الصليبيون الذين استقروا فى قبرص ورودس فى سلطنته الثانية مهاجمة جزيرة أرواد المواجهة لشواطئ الشام ولكنه أرسل إليهم أسطولاً نجح فى هزيمتهم وابعادهم عن الجزيرة .

_أما عن علاقة الناصر محمد فى سلطنته الثالثة بمغول فارس فإنها قد تحسنت وخاصةبعد أن اعتنقوا الإسلام، فبعد وفاة غازان سنة(٧٠٤هـ/١٧مايو سنة ١٣٠٤م) خلفه على العرش أولجايتو (٧٠٤ - ٧١٧هـ/١٣٠٤ - ١٣١٧م) الذى تحسنت العلاقات فى بداية عهده بين دولته وبين المماليك فى مصر، فأوفد إلى الناصر محمد السفراء تؤكد له حرصه على توثيق عرا الصداقة به ، وخاطب السلطان المماليك فى خطابه بالأخوة وسأل اخماد الفتن وطلب الصلح، على أن أولجاتيو ما لبث أن أظهر عداءه للماليك السنيين بعد أن اعتنق مذهب الشيعة وعمل على نشره فى الجهات الغربية من دولته، ومما ساعد على توتر العلاقات لجوء بعض أمراء المماليك مثل قراسنقر والأفرم إلى أولجايتو خشية أن ينكل بهم الناصر، ويقال أنهما حرضا أولجايتو على

..جهة بلاد الشام، مما أدى إلى حدوث بعض المناوشات بين المغول والمماليك كان النصر فيها للمماليك .

ولما توفى أولجايتو خلفه ابنه أبو سعيد بهادر (٧١٧ - ٧٣٦هـ/١٣١٧ - ١٣٣٥م) وكان في الثالثة عشرة من عمره، فقام بالوصاية عليه الأمير جوبان، وفي عهده أرسل الناصر سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) ثلاثين رجلاً من طائفة الحشاشين في سوريا إلى فارس لإغتيال قراسنقر وغيره من الأمراء المماليك، مما أخاف المغول إلى حد كبير، لأنه ذاع بينهم أن هؤلاء الحشاشين - الإسماعيلية - حضروا لقتل السلطان "أبو سعيد" وأمراء المغول، واحتجب "أبو سعيد" بخيمته خوفاً على نفسه وارسل إلى الناصر يفاوضه لعقد معاهدة صداقة تنص على تسليم هؤلاء الأمراء للناصر، وان يسلم إليه الناصر كذلك بعض الأمراء المغول الذين كانوا قد فروا من بغداد ولجأوا إلى مصر.

وبذلك حل الوئام بين المغول والمماليك وظلت مصر بمأمن من غارات المغول إلى عهد تيمورلنك .

وبعد وفاة أبو سعيد سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) قامت المنافسات بين الأمراء وانقسمت دولة المغول بفارس بين ثلاث سلاطين، موسى خان، ومحمد شاه الذى اقامه الشيخ حسن الجلايرى واتخذ تبريز مقراً لحكمه، وتوغاى تيمور الذى استدعاه الأمراء من مازندران بعد تولية محمد شاه وولوه سلطاناً بخراسان وكان الشيخ حسن الجلايرى المعروف بحسن بوزرج "أى حسن الكبير" قد أستقل بالعراق ، وأسس بها أسرة تعرف باسم الأسرة الجلائرية وقد طلب حسن من الناصر أن يمده بالمساعدات الحربية ليستعين بها على حرب فرع الدولة المغولية الآخر بفارس، فوعده الناصر بالمساعدة ..ابل أن يخطب باسمه على منابر بغداد ، وان ينقش اسمه على نقودها .

أما عن علاقة الملك الناصر بمغول القفجاق فظلت على ما كانت عليه قائمة على اساس المصافاة والمسالمة لدولة المماليك فى عهد تقتو ، غيات الدين _"طقطاى" (٦٨٩-٧١٢هـ/١٢٩٠-١٣١٢م) المعاصرللناصر محمد، وفى عهد خليفته أوزبك خان، غياث الدين محمد (٧١٢ - ٧٤٢هـ/١٣١٢ - ١٣٤١م) استمرت العلاقات الودية وتبودلت المراسلات والهدايا، كما تزوج الملك الناصر بإحدى بنات بيت أوزبك خان وهى الخاتون "دلنبيه" أو "طولونية" التى قال الملك الناصر بشأنها لكبير رسل الملك أوزبك "نحن ما نريد الحسن، وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخى ونكون نحن واياه شيئاً واحداً" .

وفى عهد الناصر لجأ إلى مصر أبو زكريا اللحيانى. أحد ملوك الحفصيين فى تونس فساعده الناصر على العودة لعرشه، فخطب للناصر على منابر تونس وفى عهد الناصر اقيم أول ملك مسلم على بلاد النوبة وهو عبد الله برشنبوا وأخذت بلاد النوبة تتخذ طابعاً عربياً إسلامياً .

وكذلك كان الناصر على علاقة طيبة بملوك بنى رسول فى اليمن، والسلطان محمد بن طغلق فى الهند، والدول الإسلامية فى غرب افريقيا - الكانم، وبورنو والتكرور، وكذلك الدول المسيحية الكبرى كانت تخطب وده او تطلب صداقته او مساعدته ، وكما يقول المؤرخ ابن إياس عن الناصر محمد "وخطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك، وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه، وصار جميع مصر فى قبضته" .

أولاد الناصر محمد وأحفاده ونهاية دولة المماليك البحرية :-

ظل ملك مصر فى بيت السلطان الناصر محمد بن قلاوون مدة أربعين

سنة نظراً لما تمتع به بيت قلاوون من حب الناس واخلاصهم لما لمسوه من الهدوء والإستقرار الذى مكنهم من مباشرة حياتهم العادية دون أن تقلقهم فتنة أو أزمة نتيجة للمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم الذى كان دائماً ما يحدث بمجرد أن ينتشر خبر مرض السلطان أو وفاته أو مقتله .

وكان لشخصية الناصر وأبيه قلاوون ولطول المدة التى حكما فيها أثر قوى فى تعلق أمراء المماليك بالأسرة ، ولهذا أجمعوا بعد وفاة الناصر على ابقاء السلطنة فى ابنائه، فولى السلطنة فى الأربعين سنة التالية لوفاة الناصر (٧٤١ - ٧٨٤هـ/١٣٤٠ - ١٣٨٢م) إثنا عشر سلطاناً من أولاده وأحفاده، ثمانية منهم من أولاده حكموا نحو العشرين سنة، وأربعة من أحفاده حكموا فى العشرين سنة الثانية .

وبعض هؤلاء الأبناء والأحفاد تولى منصبه السلطنة وهم أطفال صغار فلم يكن لهم من الأمر شئ، بل كانت أمور الدولة كلها فى أيدى كبار الأمراء فشغلوا بالمؤامرات والمنافسات عن النظر فى صالح البلاد والرعية، فساءت الأحوال الإقتصادية وعمت الفوضى، وزاد الطين بلة حدثان خطيران وقعا فى تلك الحقبة أولهما انتشار الوباء الأسود سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) وثانيهما غزوة القبارصة لمدينة الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) .

والعجيب أن أحداً من الأمراء لم يجرؤ على التقدم لتولية العرش ووضع حد لحكم أسرة قلاوون رغم ضعف أبناء الناصر وحفدته وصغر سنهم، ويبدو أنهم قنعوا بما فى أيديهم من سلطان فعلى وتركوا للسلاطين الصغار من بيت قلاوون المنصب والاسم .

ولكن هذا الوضع المتدهور مهد السبيل لإزدياد قوة المماليك البرجية أو الجراكسة ونفوذهم حتى نجح أحدهم وهو الأمير برقوق فى خلع آخر سلطان من حفدة الناصر وهو زين الدين أمير حاج الذى لم يحكم غير سنة واحدة،

وفى تولى السلطنة فكان ذلك نهاية لحكم أسرة بنى قلاوون ودولة المماليك البحرية وبداية دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

أبناء الناصر محمد

(٧٤١ - ٧٦٢هـ/١٣٤١ - ١٣٦١م)

١ - الأمير ناصر الدين آنوك :(٧٣١-٧٤٠هـ/١٣٣١-١٣٤٠م)

كان آنوك في التاسعة من عمره عندما عهد له أبوه بالملك من بعده في حياته، ووافق الأمراء على ذلك ووزعت عليهم وعلى كبار رجال الدولة الخلع، وركب الأمير آنوك بشعار السلطنة، ولكن آنوك لم يقدر له أن يلى السلطنة، فقد توفى فى سنة (٧٤٠هـ/١٣٤٠م) فى حياة أبيه، فى الوقت الذى اشتد المرض بالناصر محمد نفسه، فجمع كبار الأمراء وأخذ عليهم المواثيق بتولية سيف ابنه الدين أبى بكر سلطاناً من بعده ، فتعهدوا له بذلك .

٢ - المنصور سيف الدين أبى بكر :

(٧٤٠-٧٤١هـ/١٣٤٠-١٣٤١م)

بعد وفاة الناصر محمد صدق الأمراء وعودهم وولى سيف الدين أبى بكر السلطنة، وكان فى العشرين من عمره، ولكنه لم يلى السلطنة غير ثلاثة شهور دب فيها الخلاف بينه وبين كبير الأمراء أتابك العسكر الأمير قوصون، الذى استثار بقية الأمراء ضده فقبضوا عليه ونفوه إلى قوص، ثم قتلوه بعد قليل .

٣ - الأشرف علاء الدين كجك : (٧٤١هـ/١٣٤١م)

عينه الأمير قوصون بعد خلع وقتل أخيه السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر وكان عمره خمس سنوات، ولذا لم يكن منتظراً منه أن يكون له رأى

مسموع فى إدارة شئون البلاد، وأمضى فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة ايام، لم يكن له فيها أمر ولا نهى، وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون، وخلع كجك وعين الأمراء أخاه .

- الناصر أحمد : (٧٤٢هـ/١٣٤٢م)

كان يقيم بالكرك وقت تعيينه سلطاناً، فاستدعى إلى مصر ولكنه بعد قليل عاد إلى الكرك وفضل الإقامة بها تاركاً مصر والشام للأمراء فإضطربت الأحوال وعمت الفوضى، وعندما طلب منه الأمراء الحضور إلى عاصمة ملكه رفض فإضطروا إلى خلعه وقتله فيما بعد واختاروا مكانه أخاه إسماعيل .

٥ - الصالح إسماعيل : (٧٤٣ - ٧٤٦هـ/١٣٤٢ - ١٣٤٥م)

شارك فى قتل أخيه الناصر أحمد بعد أن ساءت سيرته فى الكرك، ولم يكن خيراً من أخيه، بل كان أسوأ منه سيرة، فأعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين، ولم يعمر الصالح إسماعيل فى الحكم غير ثلاث سنوات مرض بعدها وتوفى .

٦ - السلطان الكامل شعبان : (٧٤٦ -٧٤٧هـ/١٣٤٥ - ١٣٤٦م)

لم يكن أقل من أخيه عبثاً ومجوناً، أهمل شئون الدولة والحكم فإغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين، وانتهى الأمر بالقبض عليه فقتله أخوه حاجى وتولى السلطنة مكانه .

٧ - المظفر زين الدين حاجى : (٧٤٧-٧٤٨هـ/١٣٤٦ -١٣٤٧م)

كان طفلاً فى الحادية عشر من عمره عندما تولى السلطنة، فإنشغل

باللعب واللهو وتطيير الحمام مع "الأوباش" الأمر الذى أغضب الأمراء فثاروا عليه وخلعوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه السلطنة .

٨ - السلطان الناصر حسن : (٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥٤م)

تولى السلطنة وهو فى الحادية عشر من عمره، وبالرغم من طول مدة حكمه قليلاً، إلا أنه لم يستطع لصغر سنه مباشرة الحكم بنفسه، فاستبد بالأمر كبار الأمراء، بل بلغ بهم الأمر أن حددوا له مبلغاً لمصروفه اليومى لا يتعداه وعندما اختلف مع الأمراء قبضوا عليه وسجنوه وعينوا مكانه أخاه .

٩ - السلطان الصالح صلاح الدين:(٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م)

استمر فى السلطنة ثلاث سنوات، لم يكن له فيها إلا مجرد الاسم لغلبة الأمراء شيخون وطاز وصرغتمش وانتهى أمره بأن قبض عليه الأمراء وحبسوه بالقلعة، وأعادوا إلى السلطنة أخيه الناصر حسن .

١٠- السلطان الناصر حسن [سلطنته الثانية] :
(٧٥٥ - ٧٦١هـ/١٣٥٤- ١٣٦٠م)

استمرت سلطنة الناصر حسن الثانية أكثر من ست سنوات استطاع فيها أن يشرف بنفسه على شئون الدولة وأن يدير دفة الحكم، لأنه كان قد بلغ سن الرشد، فكان أفضل اخوته جميعاً الذين تولوا السلطنة وكان له شغف خاص بالعمارة، وفى عهده بنيت المدرسة التى تحمل اسمه "مدرسة" السلطان حسن، التى تعتبر فخر العمارة الإسلامية بشهادة الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر .

وبالرغم من ذلك فإن الناصر حسن لم يسلم من تدخل كبار الأمراء في شئونه وبطشهم به، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير يلبغا وقام مماليك يلبغا بقتله من غير مشاورة بعضهم لبعض .

ولم يلي السلطنة بعده أحد من أولاد الناصر ، بل انتقل الحكم بعد ذلك إلى أحفاد الناصر .

وفي سلطنة الناصر حسن الأولى اصيبت مصر بالوباء الأسود (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) الذي لم يصب مصر وحدها، وإنما بدأ في بلاد المغول في المشرق الأقصى وانتقل منها عن طريق طرق التجارة غرباً إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتقل عبر آسيا الصغرى إلى أوربا حتى عم العالم كله في وقت واحد ولم يسلم منه حيتان البحر وطير السماء ووحش البر .

وكانت علامات هذا الوباء أن يظهر للإنسان خراج وراء أذنه أو تحت أبطه ثم لا يلبث أن يبصق دماً ثم يموت بعد قليل .

فبادر السلطان حسن والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا إلى جهة سرياقوس. ونتيجة لأن الناس كانوا يموتون كل يوم بالآلاف أن نتج عن ذلك قلة الأيدي العاملة، فأغلقت الأسواق، ووقفت حركة البيع والشراء، واقفرت الأرض لعدم وجود من يفلحها، بل لقد تعطل صيد السمك من البحيرات لكثرة موت الصيادين، ونتج عن ذلك اضطراب أحوال مصر الإقتصادية، وتعطل نواحي الإنتاج المختلفة، ونقص القوى البشرية واضعافها، وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز، وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس مما أدى إلى تدهور الدولة المملوكية وضعفها .

أحفاد الناصر محمد

(٧٦٢ - ٧٨٤هـ/١٣٦١ - ١٣٨٢م)

بعد أن عزل الأمير يلبغا السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد وقتله أختار لمنصب السلطنة :

١ - صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن الناصر محمد :

(٧٦٢ - ٧٦٤هـ/١٣٦١ - ١٣٦٣م)

تولى السلطنة وهو فى الرابعة عشرة من عمره، مما أدى إلى أزدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم، وتحكمهم فى مصالح البلاد والعباد وإزدياد التنافر والعداء بين طوائف المماليك وبين كبار الأمراء، مما أغرق البلاد فى حالة شديدة من الفوضى، وقيل أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد كان لا يفيق من السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدقون بالطارات عند الصباح والمساء، كما أنه كان يفسق فى حريم الناس ويخل بالصلوات .

٢ - الأشرف زين الدين أبو المعالى شعبان :

(٧٦٤ - ٧٧٨هـ/١٣٦٣ - ١٣٧٦م)

تولى السلطنة وهو فى العاشرة من عمره واستمرت سلطنته ثلاثة عشر عاماً وانتهى أمره بأن قبض عليه وقتل .

٣ - المنصورعلاء الدين علي :(٧٧٨-٧٨٣هـ/١٣٧٦-١٣٨١م)

تولى السلطنة وهو في السادسة من عمره وظل في الحكم حتى وفاته سنة (٧٨٣هـ/١٣٨١م) .

٤ - السلطان الصالح زين الدين أمير حاج :

(٧٨٣ - ٧٨٤هـ/١٣٨١ - ١٣٨٢م)

تولى السلطنة وكانت سنة إحدى عشرة سنة ولم يحكم غير سنة واحدة، لم يكن له فيها أمر ولا نهى لأنه كان لا يستطيع الوقوف في وجه الأمير برقوق الذى أخذ في التكلم في الدولة على عادته من غير معاند وانتهى الأمر بأن نجح المماليك البرجية الذين سبق أن جلبهم المنصور قلاوون وأسكنهم أبراج القلعة وكبيرهم الأمير برقوق إلى عزل أمير حاج آخر سلالة قلاوون والقضاء على دولة المماليك البحرية ، وانشاء دولة جديدة هى دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية : (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)

كما أصيبت مصر في عصر اولاد الناصر محمد بإنتشار الوباء الأسود الذى أصاب اقتصاديات مصر في الصميم، فإن عصر أحد أحفاده وهو الأشرف شعبان إبتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى نزلت على مدينة الإسكندرية، ولم تقلع إلا بعد أن خربت المدينة تخريباً كاملاً، وسلبتها كل ما فيها من غال وثمين وقضت على البقية الباقية من ثروة مصر التجارية .

فالحروب الصليبية لم تنته بخروج آخر جندى صليبى من عكا وسواحل الشام سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م)، وإنما استمرت ذيول تلك الحروب فى صورة أو أخرى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأصبحت جزيرة قبرص تحت حكم اسرة لوزجنان، وجزيرة رودس تحت حكم الفرسان الإسبتارية مركز هذا النشاط الصليبى وظل الهدف هو استعادة بيت المقدس.

وركز دعاة الحروب الصليبية جهودهم ومشروعاتهم على مصر بإعتبارها الحصن الحصين لمنطقة الشرق الأدنى كلها، وعلى حكامها المماليك بإعتبارهم السياج القوى الذى يحمى هذا الحصن، وكانت خطتهم تهدف إلى فرض الحصار الإقتصادى على مصر والعمل على إفقارها بحرمانها من المكوس والضرائب التى تجنيها على التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب عبر مصر .

وكانت جزيرة قبرص قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الإسلامية فى شرق البحر المتوسط، فضلاً عن القيام منها بغارات جزئية على بعض الموانى الإسلامية وموانى دولة المماليك بوجه خاص، وساعد ملوك قبرص من آل لوزجنان على تنفيذ هذه السياسة أنه كان لديها قوة بحارية مرنت حرب المسلمين من الصليبيين الذين أقاموا بالجزيرة بعد طردهم من الشام .

وفى عهد ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان الذى اشتهر بقوة شخصيته وحماسته الدينية، ففكر فى القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية ولكنه وجد أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى أموال كثيرة ورجال عديدون فخرج من جزيرته وطاف بممالك أوربا المسيحية يثير حماسهم ويطلب المساعدات لإعداد حملة صليبية جديدة على مصر، فأمده

فرسان الإستبارية فى رودس وجمهوريتا جنوة والبندقية ببعض العون، أما بقية ملوك الغرب الأوربى فقد شغلوا بأنفسهم ومصالح دولهم .

وخرج بطرس الأول لوزجنان بأسطول ضخم تجمع فى جزيرة رودس يحمل جيشه الكبير قاصداً الإسكندرية فوصل إلى مياهها (يوم الخميس ٢١ محرم سنة ٧٦٧هـ/٩ أكتوبر ١٣٦٥م) .

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة إلا أنه "لم يكن من الدولة اهتمام" واقتحم القبارصة أبواب المدينة ودخلوها رغم ما كان يحيط بها من أسوار حصينة وأبراج منيعة، ومع أن خزائن أسلحتها كانت عامرة بالعدة والعتاد بسبب وجود سلطان طفل فى الحادية عشرة من عمره على عرشه هو السلطان الملك الأشرف شعبان، وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا الخاصكى فى حين كان نائب الإسكندرية وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام متغيباً فى أداء فريضة الحج، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير أقل مرتبة ودراية هو الأمير جنغرا .

أمضى القبارسة فى الإسكندرية ثلاثة أيام يقتلون وينهبون ويخربون حتى إذا أحسوا قرب وصول جيش الدولة من القاهرة لإنقاذ الإسكندرية فروا مسرعين إلى سفنهم التى أثقلت بالمنهوبات حتى إضطروا إلى إلقاء بعضها فى البحر خوفاً على سفنهم من الغرق ، فضلاً عن خمسة آلاف اسير منهم "المسلم والمسلمة ، واليهودى واليهودية ، والنصرانى والنصرانية " وهكذا نجح بطرس لوزجنان فى تخريب الإسكندرية، ونهبها ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على مصر أو البقاء فى الإسكندرية وسرعة جلائه جعلت المؤرخون المسلمون المعاصرون يصفونه

بأنـــه "جاء إلى المدينة لصاً وخرج منها لصـ

وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى على رأس جيشه إلـى الإسـكندرية ليشـهد ما حل بها من دمار وخـراب علـى أيدى الصليبييـن فـأمر بدفـن جثـث القتلـى وترميم ما خرب وأحرق .

دولة المماليك الجراكسة

أتصف عصر المماليك بصفة العصبية، فلكل سلطان عصبيته من المماليك السلطانية ولكل أمير عصبيته من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولى نعمتهم، وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليكه بقدر ما يستطيع الصمود فى وجه منافسات الأمراء ومؤمراتهم، وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من مغالبة زملائه وأقرانه من الأمراء، بل من مغالبة السلطان نفسه وانتزاع دست السلطنة منه .

لذلك كان كل سلطان بعيد النظر وكل أمير حريص على تحقيق مطامعه يقوم بالإكثار من شراء المماليك الصغار وتربيتهم ليصيروا فى المستقبل عدته وأمله فى البقاء والوصول وكان مبعوثو المماليك يذهبون إلى كل الأماكن التى يستطيعون الحصول منها على الرقيق حتى من البلاد المسيحية، ثم يعتنقون الإسلام، وإن كانوا أحياناً كثيرة يفضلون الرقيق من الأقطار الإسلامية فى وسط آسيا، وكانت أهم البلاد التى يجلب منها الرقيق الأبيض بلاد الروم، وبلاد خوارزم، وحول بحر البلطيق، ويقال أن ما كان يصل إلى بلاد التركستان من الروايات والقصص عن أحوال المماليك فى مصر، وما يذاع عن ثروة الناس بالقاهرة كان باعثاً لكثير من أهل تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا فى حاشية سلطان مصر .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية السلطان المنصور قلاوون الذى أراد أن يكون فرقة جديدة من المماليك، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين، ورأى أن تكون فرقته الجديدة من جنس

غير الأجناس التى أنتمى إليها مماليك عصره، وأختار قلاوون عنصر الجركس الذين ينتشرون شمالى بحر قزوين وشرقى البحر الأسود بسبب توافرهم فى أسواق الرقيق لتعرض بلادهم لغزوات المغول وتشريدهم من بلادهم. ونتيجة لكثرتهم فى أسواق الرقيق انخفض ثمنهم على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة وقوة البدن والشجاع، فكان متوسط ثمن المملوك منهم مائة وخمسة عشر ديناراً، فى حين كان متوسط المملوك التركى مائة وخمس وثلاثون ديناراً، وبلغ عدد ما اشتراه قلاوون منهم ثلاثة آلاف مملوك، أسكنهم بجواره فى أبراج القلعة مما جعل اسم "البرجية" يلصق بهم فى التاريخ تمييزاً عن المماليك البحرية الذين أقاموا فى جزيرة الروضة، وأعلن قلاوون فى صراحه أنه كون فرقة المماليك البرجية ليكونوا كالحصون المانعة له ولأولاده وللمسلمين ونجحت الخطة فازدادت اعداد هذه الطائفة الجديدة وتعهدها أبناء قلاوون وأحفاده بالرعاية والعطف فاشترى الأشرف خليل بن قلاوون أثناء حكمه القصير ألفى مملوك منهم .

وحقق البرجية الغرض المقصود منهم فدافعوا عن مصالح أبناء المنصور قلاوون فعندما قتل الأشرف خليل بن قلاوون ثار المماليك الأشرفية - من البرجية - وانتقموا له بقتل قاتله بيدرا وغيره من الأمراء الذين شاركوا فى قتل الأشرف خليل وبفضل تأييدهم أختير الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً رغم صغر سنه، ووقفوا بالمرصاد لجميع المحاولات التى استهدفت عزله .

وهكذا أصبح المماليك البرجية أو الجراكسة [نسبة إلى موطنهم الأصلى جورجيا وبلاد جركس] على درجة من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك مما جعلهم يشقون طريقهم بسهولة نحو دست السلطنة ويدءوا يظهرون على مسرح الحوادث وساعدهم على ذلك تطور الأحداث الداخلية

في مصر عقب وفاة [illegible] فرض [illegible] العزلة حول المماليك الجديدة حتى لا يتصلوا [illegible] الترك ويتأثروا بأوضاعهم وروحهم التي تطرق إليها الفساد. كما لم يسمح لهم بمغادرة ابراجهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة، وساعدته قلة اعداد المماليك البرجية على تنفيذ سياسة العزلة هذه، ولكن عندما زادت أعدادهم في عصر خلفاء قلاوون حتى بلغوا خمسة آلاف مملوك في أوائل عصر الناصر محمد لم يستطع السلاطين فرض هذه العزلة، فسمح لهم الأشرف خليل بمغادرة أبراجهم وطباقهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة. وبذلك وقفوا على كثير من الإتجاهات والأوضاع الداخلية الخاصة بالبلاد وبدأت خبرتهم بالحياة العامة تزداد .

ونتيجة لعناية السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل بالبرجية من حيث التعليم الديني والحربي وحرصهما على إلباسهم زياً جديداً حسناً تسهل فيه حركتهم، والإغداق عليهم فيما كانوا يتقاضونه من رواتب وجوامك؛ وقصر الوظائف الكبرى عليهم .

مما أدى إلى إثارة البغضاء العنصرية والتعصب الطائفي بين الجراكسة والأتراك نتيجة لهذا التمييز في المعاملة .

وأدى دفاع الجراكسة عن مصالح أبناء المنصور قلاوون وطول المنازعات التي كانت لا تهدأ لها ثائرة في ذلك العصر إلى تحول الأمر من نزاع بين الأمراء بعضهم وبعض أو بين أنصار بيت قلاوون وخصومه إلى نزاع عنصري بين الجراكسة والأتراك .

وإذا كان الجراكسة قد أحسوا في دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاوون وأن واجبهم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت، فإن هذه النظرة تبدلت

عندما وصل الجراكسة إلى مراتب الأمرة وأحسوا بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاوون وليس عرش بيت قلاوون هو الذى يحميهم وأخذوا يعملون لحسابهم الخاص ويفكرون فى مصالحهم قبل مصالح الناصر محمد بن قلاوون، وصارت لهم الحمايات الكبيرة وتردد الناس إليهم فى الأشغال. وأصبح لهم رأى فى اختيار السلاطين، ففى سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م) أعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير دست السلطنة فكان أول واحد من البرجية [الجراكسة] يلى هذا المنصب .

وفى عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون استطاع أحد الجراكسة [البرجية] أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٨م) وهو الأمير برقوق [أى القائد العام للجيوش المملوكية] وبذلك أصبح أهم شخصية فى الدولة فى عهد السلطان الطفل علاء الدين على الذى لم يتجاوز سنه ست سنوات وحكم ست سنوات حتى توفى (٧٧٨- ٧٨٣هـ/١٣٧٦ - ١٣٨١م) وهو فى الثانية عشر من عمره، وكان فى استطاعة برقوق أن يلى عرش السلطنة بعد وفاة السلطان المنصور علاء الدين على مباشرة ولكنه رأى أن يتريث قليلاً، فأقام فى السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج حفيد الناصر محمد وكان فى الحادية عشرة من عمره وخاصة بعد أن أحس بأن له معارضون من كبار الأمراء .

ومن البديهى أن السلطان الطفل كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة فجاء كتاب ولايته السلطنة مقروناً بشرط إشتراك برقوق معه فى تدبير أمور الدولة، واستغل برقوق ذلك الوضع ليمكن لنفسه ويملأ الوظائف الكبرى بأتباعه وانصاره ومماليكه، كما أخذ يتحبب إلى عامة الناس فخفف عنهم الضرائب بإلغاء بعض المكوس، وتحسين النقد بسك نقود جديد جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التى كان الأمير جركس قد سكها، الأمر الذى أنعش

الحالة الإقتصادية .

وفي تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون إزدياد نفوذ برقوق ويحسون خطورة إذا نجح فى الوصول إلى السلطنة فدبروا بعض المؤمرات لإغتياله ولكنه اكتشف الخطر قبل وقوعه، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشتركين فيها، مما اعتبر إعلاناً لزوال سلطان العنصر التركى وإيذاناً بقرب قيام دولة المماليك الجراكسة .

وأخيراً أصبحت الأمور مهيأة لكى يعلن برقوق نفسه سلطاناً فسلك فى ذلك الطريق المألوف فى دولة المماليك وهو عقد مجلس يضم كبار الأمراء والخليفة وقضاة القضاة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، وهو قاضى القضاة الشافعية وكان الخليفة وقتذاك المتوكل وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى وفى المجلس نهض كاتب السر الشريف القاضى بدر الدين فضل الله وأخذ يشرح له ما عليه الأحوال الامبراطورية من فوضى واضطراب بسبب صغر سن السلطان القائم وهو نفس العذر الذى سبق أن تحجج به الطامعون فى الحكم من امراء المماليك وبعد مداولات استقر الرأى على خلع حاجى وتولية الأتابك برقوق العرش وتم ذلك فى (رمضان سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م) .

ورأى شيخ الإسلام أن يلقب السلطان الجديد بالملك الظاهر بمصادفة بيعته السلطنة وقت الظهر بعد الصلاة، وتفاءل الناس بسلطنته حين أمطرت السماء مطراً خفيفاً وقت المبايعة ولبس برقوق شعار السلطنة وركب فى الموكب السلطانى وإزدانت القاهرة سبعة أيام .

وبعزل أمير حاجى من السلطنة انتهى بيت قلاوون، كما تنتهى الدولة المملوكية الأولى. وبقيام الظاهر برقوق فى الحكم سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) تبدأ الدولة المملوكية الثانية، وهى دولة الجراكسة (البرجية) .

خصائص ومميزات دولة المماليك الجراكسة :

بلغت الدولة المملوكية الأولى من العمر نحو ١٣٢سنة من (٦٤٨هـ-٧٨٤هـ/١٢٥٠ - ١٣٨٢م)، بينما بلغت الدولة المملوكية الثانية من العمر ١٣٤سنة من (٧٨٤ - ٩٢٢هـ/١٣٨٢ - ١٥١٧م) فالدولتان إذن متقاربتان في عمرهما الزمني ولكل منهما تراثه وآثاره ومتقاربتان في عدد سلاطينهما فبلغ عدد سلاطين الدولة الأولى خمسة وعشرون سلطاناً وبلغ عدد سلاطين الدولة الثانية ثلاث وعشرون سلطاناً وأعظم سلاطين الدولة الثانية تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات وارتبط بهم تاريخ الدولة وهم برقوق وشيخ وبرسباى وجقمق وإينال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى وطومان باى الأخير .

وتتميز دولة المماليك الثانية أو البرجية أن سلاطينها كانوا جميعاً جراكسة الجنس ماعدا أثنين يرجعان إلى أصل يونانى هما الظاهر خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢هـ/١٤٦١ - ١٤٦٧م) والظاهر تمربغا (٨٧٢هـ/١٤٦٧ - ١٤٦٨م) ونشير إلى أن سلاطين جراكسة الدولة الثانية لا يرجع إلى الجراكسة المعروفين على عهد قلاوون، فجميع الجراكسة الذين وصلوا إلى العرش خلال الدولة المملوكية الثانية يرجع قدومه إلى مصر إلى ما بعد عهد قلاوون وليس معنى غلبة عنصر الجراكسة على سلاطين وامراء الدولة المملوكية الثانية أنه لم توجد عناصر أخرى مثل الأكراد والأتراك واليونان بل دخلت هذه العناصر ووجد أيضاً في هذه الدولة عناصر مملوكية من صقلية وأرجونة وقطالونيا ومن المجريين الذين أسرهم العثمانيون فى حروبهم فى شبه جزيرة البلقان وأرسلوا ليباعوا فى أسواق الرقيق بالقاهرة، ومنهم من قدم هدايا للسلاطين المماليك .

وتختلف الدولة المملوكية الثانية البرجية (الجركسية) عن الدولة المملوكية الأولى البحرية فى نظام ولاية العرش أو مبدأ الحكم الوراثى الذى نجح فى حالات كثيرة خلال الدولة المملوكية الأولى ولا سيما فى أسرة قلاوون، هذا النظام لا نجد له أثراً فى عصر دولة المماليك الجراكسة. والواقع أن الدولتان تشابهتا فى عدم الإقتناع بهذا المبدأ، فلم يرض به الأمراء إلا مؤقتاً من باب الإحترام لأساتذتهم المتوفين ورعاية لحقهم عليهم وللأيمان التى أخذت عليهم، وكان بقاء ابن السلطان فى دست السلطنة يرجع فى الغالب إلى عدم استطاعة أحد الأمراء التغلب على منافسيه من الأمراء والإستيلاء على العرش، وكان هذا المبدأ يطبق بصورة أكبر فى الدولة الثانية منه فى الدولة الأولى، لذلك يلاحظ أن بقاء ابن السلطان المتوفى فى دست السلطنة كانت مدتها أطول فى الدولة الأولى منها فى دولة الجراكسة، باستثناء سلطنة فرج بن برقوق التى كانت طويلة نسبياً (٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٩-١٤٠٥م).

فكانت السلطنة حقاً مشاعاً للقادر منهم على انتزاعه وهو حق لا يؤخذ إلا قسراً ويتوقف على مقدرته الحربية وعدد وقوة من يملك أو يستخدم من المماليك والأنصار وما يتصف به من مكر وخديعة ودبلوماسية فى توجية كبار الأمراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض، فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة، فإن ابنه كان يخلفه عادة ولكن لعدة أشهر حتى يتضح الموقف بين كبار الأمراء ويستطيع أحدهم التغلب على أقرانه وعندئذ لن يجد صعوبة فى عزل ابن السلطان والحلول محله فى دست السلطنة وبعد ذلك يحصل على موافقة الخليفة والقضاة بعد استقرار الأمر بين المماليك لتبرير الطريقة التى سلكها السلطان الجديد .

ولم تكن رغبات سكان مصر فى اختيار السلطان وتعيينه لها أى احترام

واشتهر بعض سلاطين الدولة المملوكية الثانية مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباى وقانصوة الغورى بحبهم للأدب ومجالس العلم واشتهارهم بالتقوى والورع واقامة المنشآت الخيرية مثل المدارس والمساجد والأسبلة والبيمارستانات. ولكن يبدو أن هذه المنشآت كانت وسيلة لجأ إليها السلاطين للتكفير عن ذنوبهم وما قاموا به من أعمال ضد خصومهم .

وقاست مصر كثيراً فى عصر دولة المماليك الثانية البرجية من المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك فى شوارع القاهرة مما أدى إلى القلق وعدم الإستقرار وزاد الطين بلة أن السلاطين عجزوا فى ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم مما جعلهم لا يجدون وسيلة للإحتفاظ بمراكزهم سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، ومثال ذلك ما فعله السلطان خشقدم من تأليب الظاهرية على الأشرفية ، وتأليب الناصرية على المؤيدية فيخلو الجو للسلطان ومماليكه فيعيثون فى الأرض فساداً .

وعلى الرغم من ذلك فإن سلاطين الدولة الثانية البرجية عملوا على حصر تلك المنازعات داخل دائرة داخلية بحتة، فلم يمكنوا قوة خارجية من التدخل فى شئون البلاد أو الإنتقاص من سيادتها، صحيح أن المماليك كانوا دائموا النزاع فيما بينهم حتى إذا دهمهم خطر خارجى تناسوا ما بينهم من خلف ووقفوا أمام هذا الخطر صفاً واحداً وذلك بدافع الشعور الغريزى للدفاع عن كيانهم فاستطاعت دولة المماليك فى ذلك العصر الصمود فى وجه تيمورلنك فى وقت اهتزت فيه جميع الدول القائمة فى غرب القارة ا سيوية أمام هجماته .

السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٨٠١هـ/١٣٨٢ - ١٣٩٦م) :

هو برقوق بن أنس بن عبد الله العثمانى، من بلاد الجركس جلبه إلى مصر التاجر الخواجا فخر الدين عثمان الخوارزمى، وإليه نسب برقوق فعرف بالعثمانى، واشتراه الأمير يلبغا الخاصكى (من مماليك السلطان الناصر حسن) حوالى عام (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، ثم أعتق يلبغا مملوكة برقوق فصار من جملة مماليكه البارزين، وبعد مقتل يلبغا تفرقت مماليكه، فخرج برقوق سجيناً إلى الكرك وبقى فى سجنه سنوات عديدة، ومعه زميله بركة الجوبانى، ولما أفرج عن برقوق توجه إلى دمشق حيث خدم عند نائب الشام الأمير منجك اليوسفى، ثم عاد برقوق إلى القاهرة فى عهد السلطان شعبان وخدم ولديه على وحاجى، ولم يلبث أن أرتقي برقوق إلى مرتبة أمير أربعين دفعة واحدة دون أن يمر فى امرة عشرة بفضل الأمير أيبك البدرى أتابك العسكر زمن السلطان على بن شعبان بعد مضى شهرين على هذه الترقية اشترك برقوق فى ثورة على صاحب الفضل عليه الأمير أيبك البدرى، ورقى بعد هذه الثورة هو وزميله القديم بركة الجوبانى إلى أمرة مائة وتقدمه ألف، وهى أسمى درجات الإمارة فى نظام المماليك ثم شغل منصب الأخورية الكبرى [وهى وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات] ثم خطا برقوق خطوة جديدة نحو الأمام فتولى منصب أتابك العساكر مما مكنه من توطيد سلطانه بأن اختص زملائه وانصاره من المماليك اليلبغاوية بالوظائف الرئيسية فى الدولة، وكسب محبة الناس بتخفيف الضرائب عنهم، وسك عملة جديدة جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التى كان الأمير جركس قد سكها، وتخلص من مؤامرات المماليك الأتراك التى حيكت ضده، وأخيراً أخذ موافقة الأمراء والعلماء والخليفة العباسى المتوكل على الله، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى على خلع

السلطان أمير حاج بعد حكم دام سنة ونصف وأعلن برقوق سلطاناً وتلقب بالظاهر كما سبق أن وضحنا .

أظهر برقوق حكمة كبيرة فى أول حكمه فلم يضطهد المماليك الأتراك بل حرص على استرضائهم بتعيينهم فى بعض المناصب فعين الأمير سودون الفخرى نائباً للسطلنة وعين الأمير يلبغا الناصرى فى نيابة حلب، ولكن بعد أن هدأت الأمور أخذ يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك مما أدى إلى قيام كثير من الثورات ضده من جانب بعض المماليك الأتراك مثل ثورة نائب أبلستين ألطنبغا السلطانى ولكنها انتهت بالفشل وفراره إلى بلاد التتار لعدم تأييد نواب الشام له .

ثم دبر أمراء الترك قبل مضى عام على سلطنة برقوق مؤامرة فى القاهرة لقتله وإحلال الخليفة المتوكل على الله العباسى بدله، ولكن برقوق اكتشف المؤامرة قبل الشروع فى تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله خليفة اخر لقب بالواثق بالله، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد الترك فطرد عدد كبير منهم من وظائفهم ، ونفى بعضهم إلى الشام .

وبالرغم من هذه الشدة التى عامل بها برقوق المماليك الأتراك فإنهم قاموا بثورة ضده سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) فى شمال الشام تزعمها منطاش نائب ملطية ويلبغا الناصرى نائب حلب، وانضم إليهم عدد كبير من الأمراء وجموع غفيرة من التركمان والمغول وعربان الشام فاستولوا على حماة وزحفوا تجاه دمشق. فاستشار برقوق ذوى الرأى من امرائه فأجمعوا على ارسال حملة لحرب الثائرين، غير أن أفراد هذه الحملة اثاروا الدمشقيين بأفعالهم السيئة مما أدى إلى انتصار يلبغا وحلفائه ودخلوا دمشق واحتلوا قلعتها، ثم زحفوا علىالقاهرة حيث ساءموقف برقوق وايقن بزوال أمره بسبب خيانة ونفاق الأمراء له، فغادر القلعة ماشياً واختفى فى منزل أحد الخياطين

حتى قبض عليه وجئ به إلى يلبغا فأكرمه، ثم بعث به سجيناً إلى الكرك.

أعاد الثوار إلى العرش أمير حاجى ابن الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٩١ - ٧٩٢هـ/١٣٨٩ - ١٣٩٠م) حتى ينجلى الموقف بين الأميرين الثائرين منطاش ويلبغا .

ولكن النزاع لم يلبث أن اشتد بين الأميرين الثائرين منطاش ويلبغا، فقد استبد يلبغا بالسلطة وحجر على السلطان حاجى وعين لنفسه أجود الاقطاعات وأوفرها غلة، بينما لم يعط حليفه مناطشا سوى اقطاع لا تزيد غلته فى السنة على ستمائة ألف درهم، لم يطق منطاش صبراً على هذا الإستبداد وأخذ فى التدبير ضد يلبغا ورفض وساطة المتوكل فى الصلح بينهما، مما أعطى برقوق فرصة لإسترداد مكانته فخرج من سجن الكرك بموافقة نائبها حسام الدين حسن الكجكنى، وجمع جيشاً بالشام .

أما فى القاهرة فكان منطاش قد تغلب على يلبغا الناصرى ولما سمع أخبار ما فعله برقوق عقد مجلساً حضره الخليفة المتوكل وشيخ الإسلام والقضاة منهم المؤرخ ابن خلدون، واستصدر منهم فتوى شرعية فى أمر قتال برقوق ثم أخذ يعد العدة للحرب، وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند دمشق، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجى معه، إذ وقع السلطان والخليفة فى قبضة برقوق وهزم منطاش واحتمى بدمشق وتنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة، وعاد برقوق إلى القاهرة ظافراً حيث رحب به الأهالى واستقبلوه استقبالاً حافلاً .

وامتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة(٧٩٢-٨٠١هـ/١٣٩٠-١٤٠٠م) امتازت بجهود برقوق فى تثبيت حكمه، فقد قبض علي بليغا وأعوانه وأعدمهم رغم أنه كان قد عفا عنه وأخرجه من السجن وعينه فى وظيفة أمير سلاح كاتب أمير التركمان ليسهل فرار منطاش إلى بلاد العثمانيين، وظل برقوق فى

العامين التاليين يطارد منطاش في بلاد الشام حتى قتله نائب حلب وأرسل رأسه إلى برقوق فأمر بتعليقها على باب زويلة.

ولم يكد برقوق يفرغ من تلك المتاعب الداخلية حتى دهمه خطر جديد هو تيمورلنك والمغول، وتيمورلنك (٧٣٦ - ٨٠٧هـ/١٣٣٥ - ١٤٠٥م) من سلالة أحد وزراء المغول، ومولده بإحدى قرى سمرقند فيما وراء النهر، التحق بخدمة حاكم سمرقند، ولم يلبث أن أخضع سمرقند نفسها لحكمه، ومن ثم بدأ نجمه يزدهر، فضم خوارزم وهراة وسستان (٧٨٥هـ/١٣٨٣م)، وكذلك شمالي فارس بعدها بسنة، ثم أذربيجان وجورجيا (٧٨٨ - ٧٩٠هـ/١٣٨٦ - ١٣٨٨م)، وبلاد طقتمش خان، خان القبيلة الذهبية في حوض نهر القلجا، وهي المعروفة ببلاد الدشت ثم تحرك نحو العراق فاستولى على بغداد سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٣م)، وأطراف الامبراطورية المملوكية فاستولت جيوشه على بعض البلاد التابعة للمماليك مثل ماردين، مما جعل برقوق يشعر بالخطر وأخذ يعمل على تلاقيه .

فخرجت تجريدة من القاهرة عام (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) وتوجهت إلى حلب، ومنها زحفت نحو ديار بكر بقيادة الأمير الطنبغا الجوباني نائب الشام حيث لقيت بعض فلول جيش تيمور واستطاع قرة يوسف أمير الشاة السوداء التركمانية أن يهزم فرقة من جيش العدو يقودها ابن تيمورلنك وأسر أبرع قواده وهو اطلاميسن وأرسله إلى برقوق، ثم عادت الحملة المملوكية إلى القاهرة عام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) .

هذا في الوقت الذى كان تيمور منشغلاً في محاربة أخطر أعدائه طقتمش خان القبيلة الذهبية ، ثم شغل تيمور بعد ذلك في فتح الهند .

وحاول تيمور الدخول في مفاوضات مع برقوق لإطلاق سراح الأسرى وخاصة قائده أطلاميشن، ولم يكن برقوق يطمئن إلى نوايا تيمور لذلك عمل

حلفاً سريعاً بينه وبين القوى التى أحست بخطر تيمورلنك مثل صاحب سيواس القاضى برهان الدين، وزعيم التركمان - الشاة السوداء - قرة يوسف، وخان القبيلة الذهبية طقتمش ، وسلطان الدولة العثمانية بايزيد الأول.

ولم يلبث تيمور أن أرسل إلى برقوق رسالة تشبه تلك التى بعث بها هولاكو سابقاً إلى السلطان قطز سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م فى الدولة المملوكية الأولى يطلب منه التسليم السريع، ولكن برقوق أظهر ثباتاً، ورد على تيمورلنك بنفس أسلوبه وختم خطابه له قائلاً: "وما لكم عندنا إلا السيف بقوة الله تعالى" وطرد رسول تيمورلنك من القاهرة .

وفى العام التالى (٧٩٨هـ/١٣٩٥م) خرج برقوق على رأس حملة حربية لإعادة أحمد بن أويس إلى بغداد ومحاربة تيمورلنك كما كتب لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة فى بغداد ، أى يكون نائباً عن السلطان برقوق فى حكم بغداد ، فضرب السكة باسمه ، مما أضفى مكانة كبيرة على سلطنة المماليك .

ولكن حدثت بعض العوامل التى أدت إلى تأجيل الصدام بين تيمورلنك ودولة المماليك ، أهمها انشغال تيمورلنك بتوطيد نفوذه فى دولته الواسعة وفتحه جبهة جديدة لجيوشه فى الهند، ولما وجد برقوق أن تيمورلنك عاد إلى بلاده، رجع هو ا خر إلى القاهرة حيث توفى سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته فى محاربة المغول وتأجلت المواجهة وعندما أحس برقوق بدنو أجله جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم، واختار مجلساً للوصاية برئاسة الأمير أيتمش البجاسى أتابك العسكر ويخلفه فى الرئاسة الخليفة المتوكل .

أما عن أهم منشآت السلطان الظاهر برقوق فهى المسجد (مدرسة) أثر

١٨٧ بالنحاسين الملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون من الجهة البحرية وكان كبير مهندس هذا المسجد "ابن الطولونى" وهو عبارة عن صحن مكشوف قائم الزوايا تحيط به إيوانات أربعة أكبرها إيوان المحراب .

وتربة برقوق (أثر ١٤٩) ذات الخانقاة وتقع فى الجزء البحرى من قرافة المماليك بجوار "قبة يونس الدوادار" بدأ فى انشائها الناصر فرج بن برقوق سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) وفرغ منها سنة (٨١٣هـ/١١٤١م) وشاركه فى بعض كمالياتها أخوه المنصور عبد العزيز وهى أضخم تربة وجدت فى جميع جبانات مصر والقاهرة ، وأكبرها مساحة ، بل وأعظمها نفقة بناء ، وقد وضع تصميمها ونفذ على أن يخدم أغراضاً هامة متعددة، فبينما ترى كمدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية ، إذا بها مسجد جامع فسيح الأرجاء مستكمل جميع معدات الصلاة ، وبينما أعدت لتكون تربة للعائلة الظاهرية إذا بها خانقاة فخمة .

السلطان الناصر فرج بن برقوق :

(٨٠١ – ٨٠٨هـ / ١٣٩٩ – ١٤٠٥م) (سلطنة أولى)

(٨٠٨ – ٨١٥هـ / ١٤٠٥ – ١٤١٢م) (سلطنة ثانية)

عندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله عهد بالسلطنة لأولاده من بعده وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم، وأنشأ لهم مجلساً للوصاية تم إختياره بحضور الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء على أن تكون رئاسة المجلس للأمير أيتمش البجاسي أتابك العسكر ويخلفه في الرئاسة الخليفة المتوكل.

المهم أن فرج أكبر الأبناء الثلاثة خلف والده برقوق وكان في الثالثة عشر من عمره، ولد فرج خلال فتنة منطاش عام (٧٩١هـ/١٣٨٩م) من أم رومية الجنس فسماه أبو "بلفاق" أى فتنة، فلما نجح برقوق في القضاء على الثورة سمى إبنه هذا (فرجاً) تفاؤلاً بالنصر.

وفي صبيحة اليوم التالى لوفاة برقوق وولاية فرج حدثت بعض المؤامرات والمنافسات من بعض الأمراء مثل الأمير سودون أمير أخور الذى إمتنع عن حضور موكب السلطان الجديد فكان مصيره السجن، وفى السنة التالية (٨٠٢هـ / ١٤٠٠م) ثار الأمير تنم نائب الشام وإنضم إليه نواب صفد وطرابلس وحماة وحلب فضلاً عن العربان والتركمان.

كما قام الأمير يشبك الشعبانى فى نفس العام بتحريض السلطان الطفل فرج بن برقوق على أن يقول بأنه أصبح رشيداً ولا حاجة له بالوصاية، مما أثار الأمير أيتمش البجاسى وإنضم إلى تنم بالشام. ولكن القوات المملوكية نجحت فى إخماد هذه الثورة وقبضت على أيتمش وتنم .

وفى تلك الأثناء وصلت الأنباء بأن تيمورلنك إجتاح بلاد الشام وإستولى على مرعش وعنتاب، ولم تسرع حكومة فرج بإعداد ما يلزم من

قوات كافية وإنما اكتفت بجمع قوات النيابات الشامية فى حلب، وعقد لواء هذه القوات للأمير سودون نائب الشام، وظلت حلب تقاوم أربعة أيام ثم سلمت لتيمورلنك بعد أن أباد الجيش المملوكى وأوقع فى الأسر عدد من كبار الأمراء المماليك. وظل تيمور بحلب نحو شهراً ثم سار إلى دمشق واستولى فى طريقه على حمص وبعلبك.

فعقد فرج مجلساً فى القاهرة لتوفير المال اللازم للحرب واستطاع بفرض ضرائب إستثنائية على التجار وحل نصف الأوقاف تدبير المال اللازم للجيش وأسرع السلطان الصغير إلى الشام على رأس جيش كبير حيث اشتبك مع تيمور بظاهر دمشق فى معركة إنتهت بإصابة الجيش المملوكى بخسارة فادحة فأدرك الناصر فرج حرج موقفه فى الشام وخشى على حياته، فعاد إلى القاهرة ليستعد بحملة جديدة، وهكذا اضطرت دمشق إلى التسليم بشروط معينة وإن كان المغول لم يرعوا شروط الأمان الذى منحوه لأهل دمشق فنهبوا المدينة ودمروها وأشعلوا فيها النيران كما دمروا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام .

وتشير المصادر إلى أن تيمور أمر بالقبض على من فى دمشق من أرباب الصنائع والحرف، من النساجين والخياطين والحجارين والبياطرة والخيمية والنقاشين والقواسين والبازدارية وترحيلهم إلى سمرقند، مما جعل كارثة دمشق لاتقتصر على الناحية الحربية بل تعدتها إلى الناحية الحضارية فإنحطط فنونها وتأخرت أجيال.

وعندما سمع السلطان فرج بانتصارات تيمورلنك فى آسيا الصغرى وبهزيمة بايزيد الأول العثمانى فى وقعة أنقرة (٨٠٤هـ / ١٤٠٢م)، رضى للشروط التى أرسل بها تيمورلنك مع الأمير سودون نقيب قلعة دمشق بعد استشارة أمرائه فتبودلت الأسرى ووافق فرج على أن يسك العملة بإسم

تيمورلنك، غير أن هذه العملة لم تكتشف حتى الآن، وفي سمرقند مات تيمورلنك عام (٨٠٧هـ/١٤٠٥م).

ومما لاشك فيه أن رضوخ فرج لطلبات تيمورلنك أفقدته مكانته في نفوس المعاصرين، وقام في بلاد الشام نزاع بين أمراء المماليك إمتد إلى مصر فعمت الفوضى القاهرة، وضاق فرج ذرعاً بثورات الأمراء واضطر إلى هجر القلعة وترك العرش وإختفى في بيت سعد الدين بن غراب لمدة شهرين وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة وتولى بيبرس الأتابك تدبير الأمور لصغر سن السلطان، ولم يمكث عبد العزيز في السلطنة سوى شهرين حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبك الشعباني من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة وإستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات من (٨٠٨ - ٨١٥هـ/١٤٠٥ - ١٤١٢م)، وبدأ عهده الثاني بسجن أخويه عبد العزيز وإبراهيم بالإسكندرية ثم أعيدا جثتين هامدتين ومعهما محضر بأن الوفاة حدثت قضاء وقدراً، وقد قضى الناصر فرج بقية عهده في إقرار الأوضاع ببلاد الشام التي غدت هي الأخرى مسرحاً للمنافسات بين كبار الأمراء، فثار الأمير جكم العوضي نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعادل، غير أن سلطنته لم تدم أكثر من شهرين فقد قتل على يد أحد التراكمة وما كاد يقتل جكم حتى تحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلنا الثورة على السلطان فرج وزحفا بجيوشهما نحو مصر سنة (٨١١هـ / ١٤٠٨م) وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام صحبة الخليفة المستعين والقضاه لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة عند اللجون بظاهر دمشق وقبض على فرج ليقتل بعد أن أفتى الخليفة والعلماء بذلك، لأفعاله السيئة، وإدمانه شرب الخمر فقد كان لايصحو من السكر حتى وهو خارج إلى الحرب، وكثرة سفكه للدماء، فقد كان يوصف على قول ابن إياس "بكثرة

الجهل مع قلة الدين"، وظلت جثة فرج ملقاة (بالمزابل) خارج دمشق ثلاثة أيام، ثم دفن بدمشق.

وكانت المشكلة التى نشأت بعد مقتل الناصر فرج هى من يلى لطنة، فقد كان كل من شيخ ونوروز يتطلع إليها، وإلى أن يتم الفصل فى شكلة عهد بالسلطنة للخليفة العباسى المستعين على أن يكون شيخ [illegible] "مملكة بمصر ، ويكون الأمير نوروز نائب الشام حكم فى البلاد اسمية من غزة إلى الفرات ، يولى بها من يختار ويعزل ن يختار.

الخليفة المستعين العباسى : من محرم إلى شعبان سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م).

كانت سلطنة الخليفة المستعين إسميه بحته، وكانت تحمل فى طياتها بذور الثورة لأن الدولة غدت تحكم بثلاثة رءوس، الخليفة العباسى وشيخ فى القاهرة، ونوروز فى بلاد الشام يحقق مصالحه الشخصية التى كانت بالضرورة تتضارب مع مصالح شيخ ، وتشير المصادر إلى أن شيخ الذى كان يطمع بالسلطنة لنفسه تلقب "بنظام الملك" وكاتبه الأمراء باللقب المبتدع، ثم منع الخليفة من كتابه أى منشور إقطاعى إلا بمراجعته شخصيا، ولما حاول الخليفة لعب دور السلطان الحقيقى خلعة شيخ بحجة كثرة الإضطرابات وفساد العربان وحاجة البلاد إلى سلطان تركى، مع أنه ليس تركياً، وإنما هو جركسى، والحقيقة أنه يقصد بذلك أن السلطنة يجب ألا تفلت من أيدى هذه العصبة المتحكمة المتنافسة.

السلطان المؤيد شيخ المحمودى: (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)

جلس شيخ على دست السلطنة فى شعبان سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) وتلقب بلقب المؤيد، وعرف شيخ بالمحمودى نسبة إلى التاجر الخواجا محمود شاه الذى باعه إلى السلطان برقوق، وكان عمر شيخ عند بيعه إثنين وعشرين سنة، أى أنه لم ينشأ التنشئة المملوكية الحقه.

وكان من الطبيعى ألا يرضى نوروز الرابض فى البلاد الشامية بذلك الوضع فأعلن الثورة فى بلاد الشام، رافضاً أن يقبل له الأرض أو يخطب باسمه بل أبقى الخطبة كما هى باسم الخليفة المستعين، وكذلك رفض أن يضرب السكة باسمه، الأمر الذى دفع السلطان المؤيد شيخ إلى الخروج فى العام التالى لتوليته إلى الشام والتخلص من نوروز بالقتل.

ويعتبر عهد المؤيد شيخ هادئاً من حيث الفتنة، بالقياس إلى عهدى فرج وأبيه برقوق أما أهم الأحداث الخارجية فى عهد المؤيد شيخ فهى حوادث خروج التركمان بعد زوال خطر تيمورلنك، فقد كثر تمرد الدويلات التركمانية قرمان وذو الغادر ورمضان فاضطر المؤيد شيخ إلى الخروج سنة (٨٢١هـ/ ١٤٨١م) على رأس جيشه إلى طرسوس فاستولى عليها، كما استولى على الأبلستين عاصمة دلغادر، وقبل أمير قرمان أن يسك نقوده باسم السلطان المؤيد وسلمت له القلاع الحصينة فى درنده وكخته وكركر، ثم عاد إلى مصر.

لم ينس التركمان ما حل ببلادهم من تخريب وتدمير نتيجة حملات شيخ، فلم يكد يرجع إلى مصر حتى أخذ التركمان ينقضون الشروط التى تعهدوا بها، وإحتلوا البلاد التى فتحها السلطان، ومن ثم أرسل المؤيد حملة كبرى بقيادة ابنه إبراهيم عام (٨٢٢هـ/١٤١٩م) فاستولى على قيصريه وقونيه وولى إبراهيم عليها حاكماً موالياً من بيت دلغادر، وتوغل فى أسيا الصغرى وضرب السكة باسم أبيه المؤيد، ثم توجه إلى لارنده القرمانية وأركلى وعاد

إلى حلب محملاً بالغنائم ومنها إلى مصر حيث استقبل إبراهيم في القاهرة استقبالاً حماسياً، ولكنه لم يلبث أن مات في العام التالي، ويقال إنه مات مسموماً بتدبير أبيه الذى حقد عليه لما ناله من تقدير وغار منه.

على أن مصر لم تستفد كثيراً من تلك الأعمال في الوقت الذى لم يستطع المؤيد أن يسيطر على مماليكه الجلبان أو الأجلاب أو المشتروات الذين يجلبهم كل سلطان جديد وظهور عجز السلاطين عن الضرب على أيديهم، بسبب أن هؤلاء الأجلاب كانوا في معظمهم عند شرائهم في سن البلوغ فلم يلبثوا حتى صاروا مصدر قلق وموطن شغب وفوضى بل صاروا خطراً يهدد السلطان نفسه والأهالي الآمنين وتوفي شيخ سنة (٨٢٤هـ / ١٤٢١م).

ويمكن تسمية الفترة التي تلت وفاة المؤيد شيخ مباشرة بفترة حكم الأوصياء واستبدادهم، سواء أكانوا في منصب الوصاية على أولياء العهود الصغار، أو بعد عزل هؤلاء الصغار وقيامهم بالملك إسميا وعملياً.

فقد خلف المؤيد شيخ أبنه المظفر أحمد سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م) وعمره عشر سنوات فتولى الوصاية عليه الأمير ططر أتابك العساكر وتزوج من أمة، غير أن استبداد الوصي أثار نواب الشام ضده، فأجابهم ططر بخلع أحمد وسجنه بعد شهور من ولايته وتسلطن مكانه وأخمد الفتنة.

الظاهر ططر : (٨٢٤هـ/١٤٢١م)

لم يتمتع طويلاً بالعرش فقد دبرت زوجته وهي أم أحمد بن شيخ مقتله، بعد أن طلقها غداة خلع إبنها، خوفاً على نفسه منها، ومع ذلك لم يفلت من تدبيرها فخلفه إبنه محمد.

الصـــالح محمـــد : (٨٢٤ - ٨٢٥هـ / ١٤٢١ - ١٤٢٢م)

كان في الحادية عشرة من عمره عندما تولى السلطنة فقام بالوصا
عليه الأتابك جاني بك الصوفي، غير أن الأمير برسباي الذى كان يشـ
منصب أمير أخور كبير انتزع الوصاية من الصوفي وسجنه وفي سنة
(٨٢٥هـ/١٤٢٢م) إنتزع برسباي السلطنة لنفسه وتلقب بالسلطان الأشرف.

وقد وقعت كل هذه الحوادث من وفاة المؤيد شيخ إلى تولية الأشرف
برسباي في مدة لم تتجاوز سنة وشهرين تقريباً.

ويعتبر جامع المؤيد أثر رقم ١٩٠ بجوار باب زويلة من أهم المنشآت
التي قام بها المؤيد شيخ وفيه تربه دفن بها السلطان وبعض أفراد أسرته.

السلطان الأشرف برسباي: (٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٤٢ - ١٤٣٨م)

يعتبر عهد برسباي الطويل ست عشر عاماً هادءاً بالقياس إلى غيره
على الرغم مما قاساه الناس في عهده من سوء الأحوال الإقتصادية وارتفاع
الأسعار، لتعسفه في سياسته الإقتصادية وتطرفه في سياسية الإحتكار.

الأشرف برسباي والمغول :

بعد وفاة تيمورلنك سنة (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) تمزقت إمبراطوريته بسبب
النزاع الذى نشب بين أبنائه وأحفاده، حتى تمكن إبنه شاه رخ (ويرجع سبب
تسميته بذلك أن خبر ولادته بلغ أباه تيمور وهو يلعب الشطرنج، فأطلق عليه
شاه رخ، بمعنى الملك والقلعة) من إسترداد سمرقند وبلاد ما وراء النهر من
خليل بن أخيه ميرانشاه مما مكنه من تدعيم سلطانه وأحياء مجد دولة المغول
كما كانت في عهد أبيه.

وكان أن بدأ شاه رخ صفحة جديدة في العلاقات بين دولته ودولة

المماليك عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، أى فى عهد السلطان برسباى فأرسل سفيراً من قبله إلى سلطان مصر يطلب منه السماح له بكسوة الكعبة، وإرسال بعض المؤلفات لعلماء مصر المعاصرين مثل شرح البخارى لإبن حجر العسقلانى، وتاريخ المقريزى. غير أن السلطان برسباى رفض ذلك الطلب، ولم يرسل المؤلفات المطلوبة، وكان شاه رخ معروفاً بأنه من أكبر رعاة المخطوطات.

ولما لم يلق شاه رخ جواباً على طلبه، أرسل سفارة أخرى إلى القاهرة فى نفس العام يكرر طلبه ورغبته فى كسوة الكعبة، وأبلغ سفير شاه رخ برسباى أن شاه رخ أقسم أن يكسو الكعبة، فأفتى قضاه القاهرة بأن شاه رخ يكون فى حل من قسمه إذا باع الكسوه وتصدق بثمنها على الفقراء، فى مكه وأخبروا سفير شاه رخ أن للكسوة أوقافها الخاصة، وهى تكفيها ولا حاجة لأن يكسوها شاه رخ.

والواقع أن برسباى خشى أن يكون وراء طلب شاه رخ كسوة الكعبة أطماع يريد تحقيقها فى الشام والحجاز.

ولم يقنع شاه رخ ، وظل يوالى طلبه، وبعث برسالة ثالثة سنة (٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م) يطلب السماح له بزيارة بيت المقدس، وإتهم القضاة المصريين فى نزاهتهم وأنهم يفتون بما يرضى السلطان، فلم يجب برسباى على هذه الرسالة وأهملها.

ثم تمادى شاه رخ فأرسل رسالته الرابعة سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م يطلب من برسباى إقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه، فأمر برسباى بإهانة سفير شاه رخ وتمزيق الخلعة التى أرسلها له صحبة الرسالة، مما عكر العلاقة بين الطرفين وجعل شاه رخ يتصل بالسلطان مراد العثمانى وبأمير دلغادر شاه رخ التركمانى بهدف تأليف حزب ضد الأشرف برسباى، غير أن برسباى أدرك على ذلك بعقد معاهدة دفاعية مع العثمانيين وأخذ برسباى يستعد للخروج على

رأس جيش لمحاربة الشاة البيضاء وحليفها شاه رخ ولكنه توفى فى ذى الحجة سنة (٨٤١هـ/١٤٣٨م) قبل منازلة شاه رخ.

ويجمع المؤرخون على أنه لو لم تحدث وفاة أحد الشخصيتين برسباى أو شاه راخ لكانت الحرب واقعة لامحالة .

الأشرف برسباى وقبرص :

تصدى ملوك قبرص من آل لوزجنان للمحافظة على بقايا الممتلكات الصليبية بالشام، وذلك بعد أن توج هيو الثالث ملك قبرص ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى صور سنة ١٢٦٩م وكان هيو الثالث رجلاً نشيطاً قام بأعباء الدولتين الصليبيتين فى قبرص ومملكة بيت المقدس فى صور خير قيام، فعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام، كما عمل على مناوئة سلطنة المماليك، فأمر بالقبض على رسل السلطان بيبرس وهم فى طريقهم إلى سلاجقة الروم عن طريق قبرص رغم الأمان المعطى لهم، هذا بالإضافة إلى قيام القبارسة بالإعتداء على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط.

ومن أمثله ذلك ما حدث سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) فقد دخلت مراكب قبرص ميناء الإسكندرية وإستولوا على "مركبين من مراكب المسلمين"، وتكرر ذلك منهم عندما أغارت إثنى عشر مركباً للقيارسة على الإسكندرية، ودخلوا ميناءها، وأخذوا مركباً للتجار وإستولوا على ما فيه وأحرقوه، ولم يجسر والى الإسكندرية أن يخرج الشوانى من الصناعة لغيبة رئيسها فى مهم استدعاه الملك الظاهر بسببه، وإزاء ذلك استدعى بيبرس بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم عتاباً شديدا لغدر صاحب قبرص وحملهم مسئولية أفعاله، ولم يكتف بيبرس بالتهديد والوعيد بل أخذ يفكر فى غزو قبرص، فأخذ يعد العدة لذلك، ووجه عنايته لتحصين شواطىء مصر الشمالية وترميم حصونها

وأبراجها وإقامة الإستعدادات الدفاعية ومن أجل ذلك قام بتفقد حصون الإسكندرية ودمياط.

وسرعان ما سنحت الفرصة المناسبة لبيبرس لغزو قبرس في شوال (٦٦٩هـ/١٢٧١م) عندما علم أن هيو الثالث جاء إلى عكا لتفقد شئون مملكة بيت المقدس فرأى أن يدهم الجزيرة في غيبته . فخرجت الشواني المملوكية وعدتها سبع عشرة في سرعة إلى جزيرة قبرس وتولى قيادتها جمال الدين مكي بن حسون ومعه الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس دار الصناعة بالفسطاط، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس دار الصناعة بالإسكندرية، وشرف الدين علوى بن أبي المجد بن علوى العسقلاني رئيس دار الصناعة بدمياط.

ولجأ ابن حسون إلى الخدعة حتى يباغت القيارسة فجعل في أعلام الشواني الصلبان ولكن عندما إقتربت السفن المملوكية من ميناء ليماسول ليلاً هبت عليها ريحا عاصفة، مما أدى إلى تحطم أحد عشر شينياً فأسر القيارسة جميع من كان فيها من الرجال، وعدتهم ألف وثمانمائة ولم يسلم سوى ستة راكب عادت إلى مصر وعليها الرئيس ابن حسون، وكان سبب فشل هذه الحملة أن جنودها كان معظمهم من الفلاحين ورعاع الناس، وهم ليسوا ذو خبرة كبيرة بفنون الحرب فلم يستطيعوا إختيار الوقت المناسب للهجوم على قبرس، مما أدى إلى تحطيم سفنهم في الشعاب هذا بالإضافة إلى أن الفارس المملوكي كان يكره أن يكون بحاراً لأن الخدمة في الأسطول في عهد الدولة الأيوبية وفي أوائل عهد المماليك كما يقول المؤرخ المقريزى عاراً يسب به الرجال.

وعلى الفور أمر بيبرس بإعادة بناء الأسطول المملوكي وعمل في المدة

اليسيرة ضعف ما إنكسر. وكانت هذه أولى المحاولات المصرية المملوكية لغزو قبرص ويبدو من إعادة بيبرس لبناء الأسطول المملوكى أنه كان يفكر جدياً فى إعادة الكرة لغزو الجزيرة لولا وفاته في يوم الخميس ٢٧ محرم سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) ظلت قبرص معقلاً هاماً من معاقل الصليبيين بالشرق زاد من أهميته سقوط عكا وفتح قبرص أبوابها للاجئين والمشردين من بقايا الصليبيين الفارين من بلاد الشام حيث رحب بهم الملك هنرى الثانى.

ولم تلبث أن غدت قبرص مركز المقاومة الصليبية فى الشرق الأدنى والقلعة التى أخذت أصحاب المشاريع الصليبية يعتمدون عليها فى تنفيذ سياسة الحصار الإقتصادى ضد سلطنة المماليك فى مصر والشام .

وقد بلغت هذه السياسة أشدها عندما قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص بحملته على الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، الأمر الذى أثار شعوراً قوياً عند سلاطين المماليك بضرورة تأديب قبرص وملوكها.

وإذا كانت الظروف التى أحاطت بدولة المماليك فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر للميلاد لم تمكن سلاطين المماليك من تنفيذ رغبتهم فى تأديب قبرص، فإنه باستقرار الأوضاع لدولة المماليك الجراكسة بدا للسلطان الأشرف برسباى أنه من الممكن أن يقوم بعمل حربى حاسم ضد قبرص التى لم تنقطع سياستها العدوانية عن شواطىء وثغور دولة المماليك، كما حدث من إغارتهم على الأسكندرية سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، وعلى طرابلس الشام سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٤م) على عهد الناصر فرج، ولم يكن من الممكن أن يصبر الأشرف برسباى على ذلك العدوان السافر من جانب أهل قبرص، لاسيما بعد أن تكرر العدوان فى أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الإسكندرية والتجار المسلمين.

وكان أن قام السلطان الأشرف برسباى بثلاث حملات لغزو قبرص سنة

(٨٢٧هـ/١٤٢٤م، ٨٢٨هـ/١٤٢٥م، ٨٢٩هـ/١٤٢٦م) وهذه الحملات تمثل في حقيقة أمرها مرحلة جديدة في تطور البحرية المماليكية، كما أنها في مجموعها توضح لنا مراحل التكتيك الحربي البحري في العصر المماليكي.

أما أولى هذه الحملات فقد أبحرت إلى قبرس في ٩ رمضان سنة ٨٢٧هـ / ٧ أغسطس ١٤٢٤م، ولم تكن هذه الحملة في حقيقة أمرها سوى حملة إستطلاعية غرضها الوقوف على "من يتجرم في البحر من الفرنج. لذلك لم يكن عدد السفن والرجال الذين اشتركوا فيها كبيراً ومع ذلك فقد نجح رجالها في مهاجمة ثغر ليماسول بجزيرة قبرس وأشعال النار في بعض أحيائها ثم العودة سالمين إلى مصر، وسر السلطان برسباى بما أسفرت عنه هذه الحملة.

وعندما اطمأن السلطان برسباى إلى تجهيزات حملته الثانية غادرت الحملة الشواطىء المصرية في (٢٣ رجب سنة ٨٢٨هـ/ ٢١ يوليو ١٤٢٥م) فاتجهت إلى بيروت حيث إنضمت إليها السفن التي أمر السلطان بصنعها في بلاد الشام، وكانت الحملة بقيادة الأمير جرباش الكريمي قاشق حاجب الحجاب يعاونه مجموعة من الأمراء، على كل سفينة أمير.

ونزلت الحملة ميناء قرباص ومنه إلى ميناء فاماجوستا ثم إلى ليماسول حيث استطاعوا الاستيلاء على حصنها "وهو أعظم حصون جزيرة قبرس".

وأخيراً رأى قائد الحملة أن من المناسب العودة إلى مصر ولاسيما بعد أن وصلته أنباء عن استعداد البنادقة لنجدة القبارسة، وأن جانوس "قد جمع واستعد" .

لم يقنع السلطان برسباى، بما حققته هذه الحملة، فلم يكن يهدف إلى مجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من

الغنائم، ولكن هدفه الأساسى هو الاستيلاء على الجزيرة وإخضاعها للنفوذ المصرى حتى يقضى على وكر القراصنة العاملين ضد الدولة المملوكية، ولذلك قرر برسباى إرسال حملة ثالثة إلى قبرس تعمل جاهدة على تحقيق هذا الهدف، وزاد من عزيمة برسباى تحريض الجنوية له ضد جانوس بسبب عدائهم لملك قبرس، وإستنجاد أمير العلايا بدولة المماليك، لمواجهة أطماع آل لوزجبان فى إمارته، هذا فضلاً عما بلغ السلطان أن ملك قبرس راسل ملوك الفرنج واستنجدهم على المسير إلى ثغر الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس وغير ذلك .

وبعد أن تمت جميع الترتيبات لتلك الحملة، عهد السلطان بقيادة الحملة إلى الأمير تغرى بردى المحمودى، الذى تولى قيادة عسكر البر، والأمير إينال الجكمى الذى تولى قيادة عسكر البحر، وحدد السلطان إختصاصات كل منهما حتى لايعارض أحدهما الأخر نظراً لأهمية التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية.

وأخيراً خرجت الحملة المصرية بكامل عدتها إلى قبرس مباشرة فوصلتها فى يوم الأربعاء ٢٧ شعبان سنة ٨٢٩هـ/ أول يوليو ١٤٢٦م.

وعند خيروكيتا دارت معركة حامية بين جيوش المماليك والقيارسة حلت الهزيمة فيها بالملك جانوس وجيشه ووقع أسيراً مع أعداد كبيرة من رجال جيشه فى قبضة المماليك.

وأخيراً عادت الحملة المصرية إلى القاهرة ومع المسلمين مئات الأسرى من جملتهم جانوس ملك قبرس نفسه، وكميات ضخمة من الغنائم، حيث إستقبلت فى موكب كبير وهنأ السلطان القواد والجند وأنعم عليهم بالرتب وأجزل لهم العطاء ووزع الكسوات التقليدية. ثم عقد برسباى صلحاً مع ملك قبرس تعهد جانوس بمقتضاه أن يدفع إلى سلطان مصر مائتى ألف دينار منها

مائة ألف معجلاً، والباقى مؤجلا عند عودته إلى بلاده سالماً، وبأن يقوم فضلاً عن هذا بدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار، وقد دفعت هذه الجزية بإنتظام وظلت جزيرة قبرص خاضعة لحكم المصريين حتى سقوط دولة المماليك سنة (٩٢٢هـ/١٥١٧م) وأخيراً توفى السلطان برسباى سنة (٨٤١هـ/ ١٤٣٨م).

أما عن أهم منشآت السلطان الأشرف برسباى فهى مسجد (مدرسة) الأشرف برسباى أثر رقم ١٧٥ بالأشرفية ولهذا المسجد وجهة كبيرة شرقية تتكون من سبيل وكتاب، بالركن الشرقى البحرى للمسجد تربة زوجة الملك الأشرف وابنه الناصر محمد، ونقش على جدران المسجد من الداخل نص وقفيته.

هذا بالإضافة إلى مدفن الأشرف برسباى بصحراء المماليك أثر رقم ١٢١ وهذا المدفن قبلى خانقاة ومدفن برقوق.

أما عن أهم منشآت أمرائه فمسجد (مدرسة) جوهر اللالا أثر رقم ١٣٤ الذى يقع على ربوة عالية بحرى مسجد الرفاعى.

السلطان العزيز يوسف بن برسباى : (٨٤١ - ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م)

ولى السلطنة وهو فى الرابعة عشرة من عمره ولم يمكث سوى عدة أشهر فقد قام أتابك العسكر الأمير جقمق بعزله ـ كما هى عادة المماليك ـ وتولى هو السلطنة .

السلطان الظاهر جقمق : (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م)

عرف عنه التقوى والصلاح والإعتدال، فحرم المعاصى وشرب

الخمور وكان حكمه معتدلاً إذا قيس بحكم برسباى، وبالرغم مما إتسم به عهده من الهدوء النسبى إلا أنه تعرض فى أوائل حكمه للثورات التقليدية التى تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين واللاحقين، فثار ضده الأمير قرقماش الشعبانى أتابك العسكر فى مصر، كما ثار ضده الأمير إينال الجكمى نائب الشام فى دمشق وإنتهى أمر الثورتين بسجن الأتابك وقتل النائب.

وحدث أن ثار العبيد السود فى منطقة الجيزة، ونهبوها عام (٨٤٦هـ/١٤٤٢م) وأقاموا لهم سلطاناً من بينهم صاروا به فى موكب صاخب وعليه الصنجق (العلم) السلطانى، فقضى عليهم جقمق وأبادهم بأن أمر ببيع جميع العبيد السود بالقاهرة وحاز لنفسه منهم عدداً كبيرا بسعر العبد ١٢ ديناراً، وأرسل الباقين فى سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا.

الظاهر جقمق والمغول :

تحدثنا عن توتر العلاقة بين برسباى وشاه رخ بن تيمورلنك بسبب رغبة شاه رخ فى كسوة الكعبة وطلبه من برسباى إقامة الخطبة له وضرب السكة بإسمه، مما عكر العلاقة بين الدولتين ولولا وفاة برسباى لكانت الحرب واقعة لامحالة. وعندما تولى الظاهر جقمق عرش السلطنة المماليكية وجد نفسه أمام مشكلة لابد من تصفيتها هى مشكلة العلاقة مع شاه رخ.

فقد كان شاه رخ حريصاً على نيل شرف كسوة الكعبة، فما كاد جقمق يعتلى العرش حتى أوفد شاه رخ بعثه للتهنئة بالسلطنة وصحبتها هدية ضخمة فأحسن جقمق إستقبال الرسل، كما وافق على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة سنة (٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م) بشرط أن تكون الكسوة من الداخل فقط أو تحت كسوة السلطان.

وسبب إتباع جقمق لهذه السياسة المعتدله هو أن أحوال مصر فى ذلك

الوقت كان لاتحسد عليها بسبب عودة حملة جقمق الثالثة فاشلة من رودس.

وقد بادر شاه رخ بإرسال سفارة تحمل كسوته للكعبة لتصحب موكب الحاج المصرى إلى الأراضى المقدسة. فإستقبل أعضاء السفارة أستقبالاً حسناً فى القلعة، وأمر جقمق بإخفاء كسوة شاه رخ حتى لايجرح الشعور المصرى ولكن العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا على ذلك الوضع فإعتدوا على أعضاء البعثة - لأنهم لم ينسوا هم والرأى العام فى العالم الإسلامى للمغول ماضيهم الملطخ بالدماء .

فقام جقمق بمعاقبة العوام ولكنه لم يستطع معاقبة المماليك واسترض البعثة التى كان من بين أعضائها أرملة تيمورلنك وجهزها للسفر إلى مكة حيث وضعت كسوة شاه رخ على الكعبة تحت كسوة السلطان، وبذلك أبر شاه رخ بقسمه وتوفى فى العام التالى ورأى جقمق أن يرضى الرأى العام الذى كان مستاءاً من فكرة قيام أحد حكام المغول بكسوة الكعبة، فأمر عام (٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م) بنزع كسوة شاه رخ وبقيت للكعبة كسوة سلطان المماليك وحدها.

الظاهر جقمق وجزيرة رودس :

انتزعت هيئة الفرسان الإستبارية (تأسست سنة ١٠٩٩م على يد Blessed Gerald بعد إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس وكانت بهدف مساعد المرضى والحجاج من المسيحيين ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية) بمساعد الجنوية جزيرة رودس من الدولة البيزنطية سنة ١٣١٠م وإتخذتها معقلا لمناو المسلمين، وذلك بعد سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية فى الشام، حتى أن حملا بطرس الأول لوزجنان سنة ١٣٦٥م على الأسكندرية أبحرت من رودس.

وكان للنجاح الذى حققه برسباى فى الاستيلاء على جزيرة قبرس للسلطان جقمق لمحاولة الإستيلاء على جزيرة ردوس، التى لم يمنع الـ

برسباى من فتحتها سوى توتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة لها بالشرق الإسلامى من تيموريين وعثمانيين وإمارات التركمان بآسيا الصغرى، هذا بالإضافة إلى ما حل بالبلاد المصرية فى السنين الباقية من عهد برسباى من جملة من الطواعين والمجاعات والقلاقل المملوكية وإرتفاع الأسعار، مما إضطر برسباى مرغماً إلى إرجاء فتح ردوس وعقد صلح مع فرسان الإسبتارية بها عندما جاءوا إلى القاهرة يقدمون ولاءهم له ويتعهدون له بعدم حماية قراصنة الكتلان بجزيرتهم وذلك فى عام (٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م).

تذرع السلطان جقمق فى غزوة لرودس بهجمات القراصنة الذين اتخذوا رودس قاعدة لهم عقب إستيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦م.

ومن أمثلة تلك الإغارات أن أربعة شوان للفرنج أغارت على فرع رشيد فى ربيع الأول سنة (٨٤٣هـ/١٤٣٩م) وأخذت منها أبقاراً وغيرها.

يضاف إلى ذلك أن السلطان مراد الثانى العثمانى حث السلطان جقمق على غزو رودس ليصرف الفرسان الإستبارية إلى الدفاع عن جزيرتهم بدلا من الإنضمام إلى الحلف المسيحى الذى أخذت بعض الدول المسيحية تعمل على تأليفه لمقاومة الفتوح العثمانية فى البلقان.

وشجع جقمق على غزو رودس أمور عدة منها أن أسطول برسباى الذى غزا قبرس كان لايزال فى حالة جيدة، هذا بالإضافة إلى قرب جزيرة رودس من قبرس وإمكان إتخاذ قبرس قاعدة لغزو رودس، وإذا ما تم ذلك تسيطر الدولة المملوكية كلية على منطقة شرقى حوض البحر المتوسط.

وعندما أتمت البحرية المملوكية إستعدادتها للقيام بالهجوم على رودس أقلع الأسطول المصرى من ساحل بولاق فى ٩ ربيع الأول سنة (٨٤٤هـ / ٨ أغسطس ١٤٤٠م) وكان مكوناً من خمس عشرة سفينة من نوع الغراب "بأحسن هيئة وأكمل عدة، وأتم زاد، وعليها مائتان من الجند بقيادة الأميرين

تغرى برمش الزردكاش (السلاح دار)، ويونس المحمودى (أمير أخور)، وإنضم إلى تلك القوة كثير ممن تطوع من أهالى القاهرة ودمياط حتى بلغ عدد المحاربين قرابة ألف مقاتل.

وبعد معارك إتخذ الروادسة فيها عنصر المبادأة بالهجوم عاد أفراد الحملة إلى القاهرة فى ٢١ جمادى الأولى سنة (٨٤٤هـ/١٨ أكتوبر ١٤٤٠م) وأسفر وجه الأمراء أنهم لم يكن لهم طاقة بأهل رودس".

والواقع أن فشل هذه الحملة ترجع إلى تسرب أخبارها إلى أهل رودس رغم حرص السلطان جقمق، وذلك عن طريق الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم، فأرسل حاكم رودس الرئيس لاستيك Lastic سفينتين لكشف أخبار الشواطىء المصرية، والتى علمتا عن طريق مسيحى من أهل دمياط مدى إستعداد المماليك وأدركتا أن الجزيرة لن تلبث طويلاً حتى تغير عليها السلطنة المملوكية "فإستعد أهلها لقتالهم".

عزم السلطان جقمق على إعداد حملة ثانية تكون أشد بأساً وأوفر رجالاً وزاد من عزمه أن صاحب جزيرة رودس قام بغارة بعدد من السفن على ساحل بيروت، وأقلعوا من غير أن يقاتلهم أحد، هذا بالإضافة إلى أن الأخبار وصلت إلى القاهرة بأن صاحب جزيرة رودس قد إستنجد ببعض ملوك الفرنج وأخذ يستعد للحرب "ليأخذ بثأرهم من المسلمين".

وإزاء هذه الأخبار قرر السلطان أن يبدأ بإرسال حملة إستطلاعية إلى رودس فأرسل خمسة سفن لتأتيه بالأخبار الدقيقة عن مدى إستعداد أهلها للدفاع وما إتخذوه من وسائل التحصين.

وبعد أن عادت سفن الإستطلاع، وتمت التجهيزات أقلع الأسطول في المحرم سنة (٨٤٦هـ/أغسطس ١٤٤٣م) بقيادة الأمير إينال العلائى الناصرى والأمير تمرباى، ورغم تحقيق بعض الإنتصارات على أهل رودس لم يواصل المماليك حملتهم لإنتهاء موسم القتال بحلول فصل الشتاء فعادوا إلى مصر بعد أن هبت فى وجه سفنهم رياح عاصفة فرقت شملها، ولم يجتمع شملها إلا على ساحل بولاق فى ٢١ ديسمبر ١٤٤٣م بعد رحلة دامت أربعة أشهر ونصف.

كان للتوفيق الذى أصاب برسباى فى الإستيلاء على جزيرة قبرص بحملته الثالثة مشجعا لجقمق على المضى فى معاودة الكرة على رودس، وإتخذ جقمق من الأعمال التى قام بها برسباى فى حملته الثالثة على قبرص نموذجاً يحتذى به فى حملته الثالثة على رودس. وعين الأمير يلخجا الناصرى قائداً للقوات البحرية، فى حين عهد إلى الأمير إينال العلائى بقيادة القوات البرية.

وأقلعت الحملة من بولاق فى (٢٢ محرم ٨٤٨هـ/٣ يوليو ١٤٤٤م) وكانت تتألف من أكثر من ألف مملوك، غير من سافر من المتطوعين الذين بلغ عددهم حوالى ألف وثمانمائة مقاتل، هذا بالإضافة إلى من إنضم إليهم من بلاد الشام.

وقد قامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس - حاضرة الجزيرة - طوال أربعين يوماً، ولكن المدينة صمدت للحصار واستعصى على المسلمين إقتحامها ولم يلبث أن ساء موقف رجال الحملة، لاسيما بعد أن وصلت بعض الإمدادات الأوربية إلى رودس، فعادوا فاشلين إلى مصر .

وعلى الرغم من أنه تم الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد

قليل ، إلا أن العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحياناً بقية القرن الخامس عشر، ومن الواضح أن سلطنة المماليك صارت فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر فى حال لاتمكنها من القيام بعمل حربى كبير ضد رودس أو غيرها من القوى المعادية، فلم يسع سلاطين المماليك سوى أن يردوا على موقف رودس بالقبض على التجار الأوربيين فى ثغور مصر ومضايقتهم.

وأخيراً توفى السلطان الظاهر جقمق سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) وهو فى الثمانين من عمرة، بعد أن أعلن أثناء مرضة وهو على فراش الموت لإبنه عثمان بولاية العهد.

المنصور عثمان : (٨٥٧هـ /١٤٥٣م)

عهد له والده السلطان الظاهر جقمق وهو على فراش الموت . غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء فى الحكم سوى ثلاثة وأربعين يوماً فخلعه الجيش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مغشوشة.

فقد هاجم المماليك القلعه، وبعد حصار دام أسبوعاً دخل عليه إينال من باب غيرمحصن (باب السلاسل) فهرب عند ذلك عثمان - الذى كان فى الثامنة عشرة من عمره وهو ابن جاريه أغريقية - إلى حريمه، فأسر هناك بعد ستة أسابيع وأرسل سجينا إلى الإسكندرية، ثم أطلق سراحه فى السنوات التالية .

الأشرف إينال : (٨٥٧ - ٨٦٥هـ/ ١٤٥٣ - ١٤٦١م)

من المعروف تاريخياً أن سلاطين المماليك الأوائل إعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر أن يشتروا مماليكهم صغاراً أطفالاً ويتعهدون تربيتهم

وتنشأتهم نشأة خاصة، فيشب المملوك وقد إختص بولائه أستاذه الذى اشتراه وقام على تربيته وحباه بعطفه. أما فى ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك أى فى القرن الخامس عشر، فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً فى سن البلوغ مما جعل أولئك الجلبان لايتشربون روح النظام والولاء لأستاذهم فى طفولتهم فصاروا مصدر خطر على السلطان نفسه، وتعددت ثوراتهم حتى صار السلاطين أنفسهم ألعوبه فى أيديهم، ولعل هذا هو السر فيما نلحظة فى ذلك الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم، فلا يكاد السلطان يبقى فى منصبه أياماً بل ساعات حتى يعزل ويقام غيره. ومن وراء جميع هذه الحركات الثورية والفتن والقلاقل كان الجلبان فى ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك الجراكسة. وهذه الظاهرة هى التى ميزت فترة حكم الأشرف إينال من إنعدام روح النظام وكثرة المنازعات والفتن والمنافسات بين طوائف المماليك.

فقد ثار المماليك الجلبان أثناء فترة حكم الأشراف إينال البالغة ثمانى سنوات سبع مرات.

وفى السنة (٨٥٩هـ/١٤٥٥م) حيكت مؤامرة اشترك فيها الخليفة حمزة (المعتضد بالله) فخلعه إينال ونفاه إلى الإسكندرية فبقى فيهامده ثم مات وعين عوضاً عنه أخاه يوسف ولقبوه بالمستنجد بالله .

وفى سنة (٨٥٧هـ ٢٩ مايو ١٤٥٣م) نجح السلطان العثمانى محمد الثانى ابن مراد الثانى فى فتح القسطنطينية فأرسل إلى السلطان إينال يبشره بإنتصاره فكان وقع هذا الخبر مفرحاً جداً فى مصر؛ وكان الناس فى مصر يترقبون أخبار فوز العثمانيين وتوغلهم فى أوربا بالفرح والسرور، لذلك احتفل إينال بالقاهرة ودقت البشائر فى القلعة وأرسل يهنىء بالفتح، ولم يلتفت لشكاية الأمير إبراهيم بن قرمان من تدخل السلطان العثمانى عام

(٨٥٩هـ/١٤٥٤م) فى إمارته نظراً لعلاقات الود القائمة بين الدولتين.

وحين شعر إينال بدنو أجله إستدعى الخليفة.والعلماء والأمراء، ولما لـم يستطع الكلام غمغم بالتركية مشيراً إلى أن ولده أحمد الناضج الســن يحـب أن يكون خليفته. وعلى ذلك قدمت لـه الطاعـة فـى الحـال فـى قاعـة الإجتمـاع، وهكـذا توفـى وهـو فـى سـن الثمـانين يـوم الخميـس ١٥ جمـادى الأولـى سـنة (٨٦٥هـ / ١٤٦١م) بعد أن حكم ثمانى سنوات وشهرين وستة عشر يوماً.

المـؤيد أحمـد بن إينـال : (٨٦٥هـ / ١٤٦١م)

تولى السلطنة وعمره ثلاثون عاماً وكان حسن السيرة غير أنـه لـم يبـق فى الحكم إلا أربعة أشهر فقد عزله الممـاليك وأرسـل إلـى الأسـكندرية مقيـداً، ولكنه أطلق سراحه فى أخر الأمر وعاش فى عزلة عدة سنوات عيشة فاضلـة وولوا الأتابك خشقدم الرومى.

الظاهر خوشقدم الرومى : (٨٦٥ - ٨٧٢هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٧م)

عرف بالرومى لأنه يونانى الأصل (أغريقى) إشتراه السلطان شيخ منـذ خمسين عاماً، وإرتقى تدريجياً حتى صار حاكماً لدمشق ثم أتابكاً.

ويعتبر عهد خوشقدم من العهود الهادئة ، ولم يعكـر صفـو هـذا الهـدوء سوى المحاولة التى قام بها جانم بك نائب الشام ليلى العرش بنـاء علـى دعـوة سابقة من المماليك الذين خلعوا أحمد بن إينال، غير أنه أبطـأ فـى القـدوم إلـى القاهرة، فولى الأمراء خوشقدم، وإستطاع السلطان أن يخـادع جـانم بـك حتـى أعاده إلى نيابته فى هدوء، ثم أرسل سراً فى القبض عليه، وانتهى أمره بـالقتل على يدى مماليكه .

كذلك دبر خشقدم مقتل صديقه جانى بك الدوادار الكبـير بالقلعـة وشـتت

مماليكه، حين ظهر له خطره على سلطنته.

وفى أواخر أيامه أصيب بإنزلاق البطن، وإنحطت صحته إلى حد أنه كان يفقد الرشد أحياناً، وتوفى خشقدم وترك ولدين لانسمع عنهما شيئاً.

الظاهر يلباى المجنون (ألباى) : (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م)

اختار أمراء المماليك الأمير يلباى المجنون ليخلف خشقدم بعد وفاته لضعف شخصيته فقد كان آلة فى يد الدوادار الكبير خيربك زعيم المماليك الخشقدمية، فتشير المصادر إلى أنه كان إذا سئل فى شىء ، أجاب على الفور (أش كنت ، قل له) أى قل للدوادار الكبير زعيم الخشقدمية خير بك، وأصبحت هذه العبارة ملازمة له، فأطلق عليه العوام "السلطان قل له"، ونتيجة لإستبداد المماليك الخشقدمية بالسلطان قل له فإن المماليك المؤيدية ثارت وإقتتل الفريقان وأخيراً إجتمع الأمراء وقرروا عزل يلباى بعد شهرين من سلطنته وأسر بالقلعة وعينوا أتابك العسكر تمربغا الرومى.

الظاهر تمربغا الرومى : (٨٧٢هـ / ١٤٦٧ - ١٤٦٨م)

ورغم كفاءته فى فنون الفروسية إلا أنه عجز عن إرضاء المماليك الخشقدمية، فسجنوه بعد حكم دام ٥٨ ثمانية وخمسون يوما بتدبير خيربك زعيمهم.

الظاهر خيربك : (٨٧٢هـ / ١٤٦٨م)

كان خيربك يمهد لنفسه لتولى السلطنة منذ سلطنة يلباى وتحقق حلمه بعد القبض على تمربغا الرومى، وتلقب بالملك الظاهر تشبها بلقب أستاذه

الظاهر خشقدم وقبل له أنصاره الأرض، وسرعان ما أخذ يمارس شئون السلطنة في جوف الليل، فأنعم بوظائف وتصرف تصرف السلاطين الحقيقيين غير أنه عزل في صباح اليوم التالي فأطلق عليه المعاصرون "سلطان ليلة" فقد سمع الأتابك قايتباى بما يجرى في القلعة، وكان غائباً يربع خيوله فعاد مسرعاً في تلك الليلة، وطاف على بعض فئات المماليك وإستمالهم واعداً إياهم بالمكافأة، وإتفقت كلمتهم على خلع تمربغا وسلطنه قايتباى، دون الإعتراف بحركة خيربك، صعد قايتباى إلى القلعة في الحال فإضطرب خيربك، حتى إذا أدركه طلوع النهار، أخرج تمربغا من سجنه وأعاده إلى العرش وقبل له الأرض ثم (إنسطح) بين يديه وقال له : "وسطنى أى اقتلنى بالسيف فإنى كنت باغياً عليك" فكانت إجابة تمربغا في غاية الدقة وبعد النظر، قال : "يا دوادار، لا أنت ولا أنا بقى لنا بقاء، وقعت مناوشات يسيرة، سيطر قايتباى بعدها على الموقف وخلع تمربغا وولى العرش بحضور الخليفة، وأكرم تمربغا مراعياً حرمته، فتركه يعيش حراً طليقاً في دمياط، أما سلطان ليله "خيربك" فكان مصيره السجن، وهكذا استقرت الأوضاع بعد تلك الفترة القلقة بقيام السلطان الأشرف قايتباى في منصب السلطنة.

الأشرف قايتباى : (٨٧٣ - ٩٠١هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦م)

يعتبر السلطان قايتباى من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة ليس فقط لطول مدة حكمه البالغة تسعة وعشرين عاماً والتى لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفي تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباى أنه أمهر السلاطين الجراكسة في ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشئون العالم، وأكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة.

وكانت مشكلة قايتباى الداخلية تنحصر في ثورات الجلبان وتكررها

حتى جعلته يزهد فى منصب السلطنة ، فقد كان الجلبان لايقدرون خطورة الوضع الذى تعرضت له الإمبراطورية المملوكية، ولم يكن لهم هدف سوى الحصول على النفقة دون نظر إلى حالة الدولة المالية أو إلتزاماتها الحيوية، وكان يلجأ إلى القضاه يشكو لهم الجلبان، ومثال ذلك ما حدث فى عام (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) إذ عقد قايتباى مجلساً ضم القضاة والأمراء وشكا لهم سوء تصرفات الجلبان وسوء الحالة المالية، وأفاض فى شرح ما تكبدته الخزانة من نفقات على التجاريد الحربية وأقسم أنه أنفق عليها منذ ولايته العرش ١٦٥ر١٠٠٠ دينار، وطلب إلى المجلس أن يختار سلطاناً غيره، وأشهد القضاة على تنازله على العرش ثم هم بخلع رداء السلطنة، ولكن القضاة ما زالوا به حتى إستقر الرأى على بقاء السلطان على عرشه وترضية الجلبان، وعند ذلك حضر الخليفة المتوكل وجدد له البيعة، وتكرر هذا من الجلبان فى العام التالى وهو يستعد لحرب العثمانيين فقال للجلبان "أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضى إلى مكة" وكما حدث فى المرة السابقة قبل شفاعة القضاة والأمراء فى الإستمرار على عرشه وترضية الجلبان وللمرة الثالثة ثار الجلبان فى العام التالى فاقسم قايتباى عليهم إن هم طلبوا النفقة ليتخلين عن السلطنة ويمضى تحت جنح الليل إلى مكة.

الأشرف قايتباى والدول التركمانية :

ظلت الأطراف الشمالية لدولة المماليك فى شمال سوريا والعراق وشرق آسيا الصغرى، مثار نزاع دائم، بسبب تمرد الدول التركمانية الخاضعة لنفوذ المماليك مثل دولة بنى دلغادر، ودولة بنى رمضان، ودولة بنى قرمان ودولة الشاه البيضاء أو "آق قيونلو" ، ودولة الشاة السوداء أو "قره قيونلو". وكان مكمن الخطر على السيادة المملوكية ليس فقط فى التمرد المتقطع من

جانب أولئك التركمان، بل إن تمردهم كان يتيح الفرصة لجيران أكثر منهم قوة خاصة العثمانيين على تهديد مصالح المماليك.

وكان أبرز حوادث خروج التركمان ما حدث بعد زوال خطر تيمورلنك إذ كثر تمردهم مما إضطر السلطان المؤيد شيخ إلى القيام بحملتين سنتى (٨٢١ - ٨٢٢هـ/١٤١٨ - ١٤١٩م) واحدة بقيادته والثانية بقيادة إبنه إبراهيم ونجح شيخ فى إرهاب التركمان وتهدئتهم ، ولكنها كانت تهدئة وقتية بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء عثمان قرايلوك إنتهز فرصة سوء التفاهم بين برسباى وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة وأغار على خربوط وعلى الحدود السورية بتحريض من شاه رخ، وردبرسباى على ذلك بإرسال حملة خربت الرها وأسر حاكمها هابيل بن عثمان قرايلوك، ومع ذلك لم يستطع أن يقوم بعمل حاسم لتأديب التركمان بسبب إختلال أحوال المماليك مما جعل عثمان قرايلوك يسخر من سلطنة المماليك، حتى أنه أرسل إلى برسباى فى سنة (٨٣٦هـ / ١٤٣٣م) هدية مكونة من مرآة مكفتة بالذهب وخروف ذى إليتين وخلعة من قبله إلى السلطان برسباى من مخمل أحمل مرقومة بالذهب وعدة أثواب مخمل وصقور صيد، وإستقبل برسباى هذه البعثة وهو فى البحيرة وفطن لمغزاها، والإهانة المقصود بها، فالخروف يرمز إلى أن السلطان وأمراءه نعاج، والمرآة بأنهم مثل النساء والخلعة على اعتبار أن برسباى نائب لقرايلوك، وفى الحال ألبس الخلعة لأحد الأشخاص المضحكين، فرقص بها فى حضرة السلطان وقصاد قرايلوك ثم أحرقها على مشهد منهم وذبح الخروف، ثم سأل القصاد "أستاذكم إن أراد أن يبهدل أحداً، إيش يعمل فيه؟" فقالوا : يرميه فى الماء. فأمر برسباى بإلقاء القصاد فى المياه، ثم أخرجهم وأمر بقص أذناب خيولهم وأعادهم، ومعهم إنذار نهائى من السلطان: "قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات".

ولم يخلص برسباى من عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء إلا أصبهان وإسكندر ولذا قرا يوسف زعيم الشاه السوداء اللذين أرسلا برأس عثمان قرايلوك إلى برسباى بعد حرب نشبت بينهما قرب أرضورم (أغسطس سنة ١٤٣٥م).

وظل الموقف هادئاً بين سلطنة المماليك والتركمان حتى قيام قايتباى فى الحكم، الذى شعر بازدياد نفوذ العثمانيين وتدخلهم فى شئون تلك الإمارات التركمانية على حدود دولة المماليك، فرأى أن يضع حداً للتركمان حتى لايكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثمانى فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال وحدث أن ناصر محمد الفاتح العثمانى شاه سوار حتى ولى إمارة دلغادر عام(٨٧١هـ/١٤٦٦م) وطرد أخاه بوداق الذى ناصرته مصر، قام شاه سوار مستند أعلى مناصرة العثمانيين وإلتفاف التركمان حوله. بمهاجمة أطراف الدولة المملوكية .

لذلك قام قايتباى بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار ونجحت الحملة الأخيرة التى كانت بقيادة الأمير يشبك سنة (٨٧٦هـ/١٤٧١م) فى إنزال الهزيمة بشاه سوار والإستيلاء على قلعة عينتاب وأذنه وطرسوس وأخيراً تم القبض على شاه سوار وأرسل إلى القاهرة، فى حين قام الأمير يشبك بتنظيم شئون إمارة دلغادر وعين الأمير بوداق أخو شاه سوار. وفى القاهرة أمر قايتباى بشنق شاه سوار على باب زويلة.

وبمقتل شاه سوار خمدت الفتنه التى أدت إلى هزيمة الجيش المملوكى أكثر من مرة

ولم تقتصر المتاعب التى واجهت سلطنة المماليك من جانب التركمان على ما أثاره أمراء دلغادر من فتن وإعتداءات، بل إن قبيلة الشاه البيضاء وزعيمها حسن الطويل "أوزون حسن" المعاصر للسلطان قايتباى ، فقد أخذ

يتملق السلطنة المملوكية ، خداعاً ونفاقاً وذلك خلال إنشغال قايتباى بحرب شاه سوار فكان يرسل الهدايا مظهراً ولائه وتبعيته للمماليك، ولكنه حين أحس بنكبات الجيش المملوكى أمام شاه سوار قبيل خروج يشبك إليه، إستهان بالسلطنة المملوكية وأغار على البلاد الحلبية، مما أزعج قايتباى وجعله يفكر فى الخروج بنفسه حتى أنه ألغى خلال تلك الأزمة عدة مكوس تقرباً إلى الله والناس، وأخيراً أرسل قايتباى حملة بقيادة يشبك سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م) ضد حسن الطويل وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت إنتصاراً على التركمان عند البيرة على نهر الفرات إلا أن يشبك إنتهز فرصة الفوضى التى عمت إمارة الشاة البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل عام (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) وتوليه إبنه خليل الذى عادى المماليك والعثمانيين ولكنه (خليل) توفى فى نفس العام وتولى حكم الشاه البيضاء بعده أخوه يعقوب الذى شغل فى منافسات عائلية دموية إنتهز يشبك فرصة هذه الإضطرابات وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، ولكن حاكم الرها "بابندر" وهو أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل إستطاع أن ينزل الهزيمة بالمماليك فى تلك السنة وأسر يشبك وقتله، كما قتل كثيراً من أمراء المماليك.

كان لهذه الكارثة وقع الصاعقة على السلطان قايتباى، فصمم على الخروج بنفسه للإقامة بحلب ومراقبة حركات الشاه البيضاء لكنه أرسل الأمير أزبك على رأس الجيش بدلاً منه، وتمكن أزبك من عقد صلح مع دولة الشاه البيضاء وتوطدت عرى الصداقه وعلاقات الود والمجاملة بين السلطنة المملوكية ودولة الشاه البيضاء حتى أواخر أيام سلطنة المماليك فزالت دولة الشاه البيضاء على يد إسماعيل الصفوى.

السلطان قايتباى والعثمانيين :

بعد أن أتم العثمانيين سيطرتهم على شبه جزيرة البلقان أخذوا يحولون نشاطهم الحربى إلى أسيا الصغرى لإستكمال سيادتهم عليها، وجاءت نقطة البدء فى الإحتكاك بين العثمانيين والمماليك من الإمارتين التركمانيين قرمان ودلغادر وهما تحت الحماية المملوكية، تدخل محمد الفاتح فى شئون الإمارتين ونجح فى أن يتولى عرشهما أميران مواليان للعثمانيين، وذلك فى الوقت الذى فشل فيه مرشحا المماليك، كذلك أخذ السلطان العثمانى يرحب بالأمراء المماليك الفارين من جهة السلطان خشقدم.

وفى عهد السلطان قايتباى ساد بعض الود بين الدولتين إلى وفاة محمد الفاتح العثمانى عام ١٤٨١م وذلك راجع إلى إتفاق المماليك والعثمانيين على عدم التدخل فى شئون الإمارتين وإلى إنشغال محمد الفاتح فى توسيع إمبراطوريته غير أن هذه العلاقات الطيبة بدأت تضطرب على أثر تولية با يزيد الثانى العرش بعد أبيه (١٤٨١-١٥١٢م)، وسبب هذا الإضطراب نزاع جم مع أخيه ما يزيد وإلتجأ جم بعد هزيمته فى موقعة ينيشهر Yenishehir إلى مصر حيث رحب به السلطان المملوكى قايتباى سنة (٨٨٦هـ/١٤٨٢م) وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج وليعرف المسلمين، كما يبدو ، بقضيته .

تدخل قايتباى فى الصلح بين جم وبايزيد، ولما رفض با يزيد إقتراحات قايتباى ، ترك الأمير جم فى مصر أمه وولده، وسار بإتجاه بلاد الشام بعد أن جهزه السلطان قايتباى بالعتاد ضد بايزيد ولكنه فشل فى القتال مرة أخرى ضد بيازيد، وكان دعم السلطان قايتباى للأمير جم سبباً هاماً فى تأزم العلاقات العثمانية المملوكية، هذا فضلاً عن رفض قايتباى طلب با يزيد بالسماح له بإصلاح بعض القنوات فى مكه وتهاونه فى أمر هدية مرسلة من الهند إلى السلطان بايزيد وكانت عبارة عن خنجر من الماس النفيس.

إذن تجمعت لدى السلطان بايزيد عوامل جعلته يتخذ موقفاً عدائياً

صريحا من السلطنة المملوكية، فما كادت تصل إلى بايزيد شكاية علاء الدولة أمير دلغادر من تصرفات قايتباى، حتى أمده بقوة حربية عثمانية هاجم بها ..لطية التابعة للمماليك .

لم يقف السلطان قايتباى مكتوف اليدين، فأرسل حملة فى عام (٨٨٩هـ/ ١٤٨٣م) بقيادة تمراز الشمسى إنتصرت على علاء الدولة وأحلافه من العثمانيين وعادت وفى ركابها عدد كبير من صناجق ـ أعلام ـ العثمانيين، وهذه أول حرب وقعت بين المماليك والعثمانيين؛ ورغم إنتصار قايتباى فإنه كان يؤثر السلام والصداقة، وأرسل صحبة أمير سياسى داهية هو جانى بك حبيب أمير آخور ثانى تقليد من الخليفة إلى بايزيد بأن يكون مقام السلطان على البلاد فى الدولة العثمانية (وما سيفتحه الله على يديه من البلاد الكفرية) كذلك حمل السفير المملوكى رسالة شخصية أخرى من الخليفة تتضمن حث بايزيد على تجنب الحروب، ولم ينس قايتباى أن يرسل مع قاصده الهدية "خنجراً من الماس النفيس" التى كانت مرسلة من قبل ملك الهند مع الإعتذار للسلطان عما وقع بشأنها، وأعد حملة حربية لإخضاع الثائر علاء الدولة.

على أن السلطان بايزيد استقبل جانى بك أسوأ استقبال، ورفض المصافاة وأجاب بإرسال جيش لغزو بعض البلاد المملوكية فى الأطراف، فلم ير قايتباى بدأ من إستئناف الحرب ضد العثمانيين، ومن هنا بدأت حملات القائد أزبك وهى حملات ثلاث، بدأت فى عام (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) وإنتهت بإنتصار قايتباى ووقوع عدد كبير من العثمانيين فى الأسر، فأنزلهم قايتباى بديوانه وقرر لهم الجوامك، وظلت هذه الطائفة فى خدمة المماليك حتى نهاية العصر المملوكى ، وهى المعروفه باسم (العثمانيه).

وأخيراً تم الصلح سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) بين بايزيد الثانى العثمانى والسلطان المملوكى قايتباى وأطلق سراح الأسرى وتبودلت الهدايا

والمجاملات.

سياسة قايتباى الداخلية ومنشآته :

فى الوقت الذى حرص السلطان قايتباى على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال، لم يهمل شئون رعاياه ودولته ، حقيقة إنه تعسف فى جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الإحتكار، ولكن أعماله تثبت لنا أنه استغل الأموال الطائلة التى جمعها فى إقامة المنشآت العديدة أو تجهيز الجيوش أو إقامة المنشآت مثل مدفن (تربة) الأشرف قايتباى بالصحراء (أثر ٩٩) والتى تقع جنوب تربة الأشرف برسباى وهى تجمع مدرسة وسبيلاً ومكتباً، كما بنى جامعاً فى جزيرة الروضة لايزال يشاهد هناك إلى هذا اليوم، ويلاحظ أن السيوطى قد أفتى بصدد مسجد الروضة، بعدم جواز بناء المساجد على شواطىء الأنهار وله مسجد بالكبش وآخر بباب الخلق، ومسجد وحوض سبيل بالعباسية ، ثم إنه جدد قبة مسجد الإمام الشافعى، وبنى زاوية بالمرج وعدة زوايا وصهاريج فى جهات متفرقة، وله فى الحجاز مسجد الخيف قرب عرفات، ومنارة بالمسجد الحرام بمكة؛ كذلك جدد المسجد النبوى بعد الصاعقة التى أحرقته، وأنفق على هذا التجديد نحو مئة ألف دينار، كما بنى بعد ذلك بعامين مقصورة الحجرة النبوية من الحديد وتبلغ زنتها ٤٠٠ أربعمائه قنطار وجميعها تمتاز بفنها العربى الأصيل.

حتى أمرائه شغفوا بفن العمارة، فمن عمائر أمرائه قبة الأمير يشبك الدوادار بكوبرى القبة (أثر رقم٤)، وقد أنشأ بجوارها مدرسة وملحقات أخرى ولم يبق الآن سوى القبه، وله قبة أخرى (الفداوية) بشارع العباسية(أثر رقم ٥)، وقد أنشأ بجوارها مدرسة وغرس حولها حدائق، مات قبل أن يتمها فأتمها

السلطان قايتباى ومن عمائر أمرائه أيضا (مدرسة) مسجد أبو بكر مزهر أنشأه الأمير أبو بكر محمد المعروف بإبن مزهر بحارة برجوان (أثر رقم ٤٩).

ومنها : مسجد قجماس الإسحاقى (بشارع الدرب الأحمر أثر رقم١١٤) أنشأه الأميرسيف الدين قجماس الإسحاقىالذى كان نائباً للشام فىدولة الأشرف قايتباى، وكذلك مسجد قانى باى السيفى أمير أخور بميدان صلاح الدين (أثر رقم ١٣٦) أنشأه قانى باى السيفى أمير أخور شرق جامع الرفاعى.

وكذلك مقعد ماماى. بميدان بيت القاضى (أثر رقم ٥١)، وقد تخلف هذا المقعد من منزل كبير أنشأه ماماى السيفى أحد أمراء السلطان قايتباى هذا بالإضافة إلى شغف قايتباى بإصلاح آثار وترميم منشآت أسلافه، كما تثبت ذلك الكتابات والنقوش العديدة المثبتة فى مدارس ذلك العصر ومساجده فضلاً عن القلعة، وقد عرف عن قايتباى حب التنقل والأسفار فطاف بالشام وأعالى الفرات ومصر العليا والدلتا، بالإضافة إلى الحجج وزيارة الأماكن المقدسة، وأينما ذهب كان يخلد إسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الحيوية.

أما الأيام الأخيرة لقايتباى فمع أنها كانت سلماً فى الخارج كانت أيام بؤس فى الداخل ، إذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم، كما إنتشر الطاعون انتشاراً خطيراً سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٣م) حتى مات بسبب فى يوم وليلة إثنا عشر ألفاً، وفقد السلطان قايتباى زوجته الوحيدة وإبنته فى يوم واحد ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك الوباء فماتت أعداد غفيرة منهم قدرها المؤرخون بثلثهم، وزاد الموقف سوءاً إنعدام الأقوات وإنخفاض النيل وانتشار طاعون المواشى.

وفى وسط تلك الظروف القاسية لم يتورع المماليك عن الوقوع فى منازعات مع بعضهم البعض سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) فقام نزاع بين قانصوه

"خمسمائة" وأكبردى فى القلعة فإستولى أكبردى على أزمة الحكم ولكنه غلب على أمره ففر بحياته إلى غزة، فأخذ مكانة قانصوه، ولما رأى قايتباى ظلام المستقبل وكان قد بلغ السادسة والثمانين من عمره وإستبد به المرض لزم فراشه ورأى ضرورة التنازل عن العرش لإبنه محمد وهو شاب فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره من جارية جركسية، ثم توفى قايتباى بعد ذلك فى اليوم التالى مباشرة سنة (٩٠١هـ/١٤٩٦م).

الناصر محمد بن قايتباى : (٩٠١ - ٩٠٤هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٨م)

كان عمره عندما تولى السلطنة أربعة عشرة أو خمسة عشرة عاماً وهى سن لاتمكنه من الصمود فى وجه كبار الأمراء، وقد إتخذ النزاع بين كبار الأمراء شكل تنافس حول الوصاية على السلطان الصغير؛ على أساس أن هذه الوصاية تعتبر خطوة تمهيدية للتخلص من ذلك الطفل والفوز بمنصب السلطنة وكان أن خرج الأمير قانصوة خمسمائة فائزاً من تلك الجولة وبذلك تولى منصب الأتابكية واستبد بالسلطة، وساءت تصرفات محمد بن قايتباى السلطان الرسمى، فأثار ذلك الأمراء حتى كثرت الفتن والقلاقل فى مصر ونياباتها الخارجية، غير أن قانصوه إستطاع أن يطيح بزعماء الفتنة وأن يعزل السلطان ويتولى مكانه.

قانصوه خمسمائة : (٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)

لم تزد سلطنته عن ثلاث أيام، فقد قام أنصار السلطان المخلوع الناصر محمد بن قايتباى ولاسيما خاله قانصوه بمهاجمة المغتصب قانصوه خمسمائة، فحاصروه فى القلعة ولكنه تمكن من الإفلات وقام بعدة محاولات لإعادة العرش إنتهت بالفشل وإنتهى أمره بالقتل وأعيد محمد بن قايتباى للسلطنة

للمرة الثانية .

غير محمد بن قايتباى لقبه في سلطنته الثانية من الناصر إلى الأشرف إرضاء لمماليك أبيه حتى يصير الجميع أشرفيه، نسبة إلى الأشرف قايتباى فلا تكون هناك ميزة لمماليكة الناصرية الذين يؤثرهم على مماليك أبيه، وقد أدى ذلك إلى بلبلة في القاهرة، حيث كان بعض الخطباء يخطب باسم الناصر والبعض الآخر بإسم الأشرف، ولم تجد احتجاجات الأمراء بعدم جواز ذلك ولاسيما بعد صدور المراسيم والنشرات باسم الناصر.

كما إستثار الأشرف (الناصر) محمد نفور الناس بحماقته وطيشه، إذ كان كثير المعاشرة للأوباش، يدعوهم إلى القلعة، وينزل أحياناً إلى النيل في مركب مليئة بالحلوى والجبن المقلى ويبيع كما يفعل الباعة في المواسم، كما كان يخرج المسجونين ويقتلهم بيده ؛ وعلمه المشاعلي كيف يوسط بالسيف وأمضى في عبثه الدموى حتى كان يقطع آذانهم وأيديهم وألسنتهم وإستبد به المماليك الجلبان حتى أنه أخرج كثيراً من الإقطاعات والرزق والأملاك وفرقها عليهم إقطاعات، مما أدى إلى إثارة أنصاره المخلصين وأصحاب الفضل عليه في إعادته إلى العرش والقضاء على خصمه كما خرج على السلطان الأمير أقبردى الدوادار، والأمير تمراز الشمسي الأتابك (وهو ابن أخت قايتباى).

وبلغ سوء تصرف محمد بن قايتباى أقصاه عندما وزع المماليك الجلبان في جمادى الأولى سنة (٩٠٣هـ / يناير ١٤٩٨م) على الأمراء، وخصص لكل مملوك مبلغ عشرة آلاف درهم يأخذها من إقطاع الأمير الذى ألحق به في كل سنة فكان المماليك الجلبان يدخلون بيوت الأمراء وهم على ظهور خيولهم ويضربون مباشريهم ويسبونهم لإنتزاع ما قرره السلطان لهم.

كما قام الجلبان بالإعتداء على الناس ونهب الأسواق لذلك صمم الأمراء على وضع حد لتلك الحال فإستمالوا الأمير قانصوه خال السلطان محمد بن قايتباى وعضده وساعده الأيمن فى جميع الأزمات التى تعرض لها إلى جانبهم فسكت عما دبروه وقتلوا السلطان محمد بن قايتباى الذى كان عمره يوم قتل سبعة عشرة سنة (١٧ سنة) وسلطن الأمراء قانصوة خال القتيل في ربيع أول سنة (٩٠٤هـ/أكتوبر ١٤٩٨م) وللسلطان محمد بن قايتباى مسجد بناه فى الفيوم عام (٩٠٣هـ/١٤٩٧م).

الظاهر قانصوه الأشرفى : (٩٠٤ - ٩٠٥هـ / ١٤٩٨ - ١٥٠٠م)

مملوك جركسى اشتراه السلطان قايتباى، ومن عجيب أمره أنه وجد بعد شرائه أنه أخ لزوج السلطان المسماه (أصلبياى) أم محمد، كان عمره وقت توليته السلطنة خمساً وعشرين سنة حكم عشرين شهراً وبضعة أيام غير أن الدوادار الكبير طومان باى طمع فى السلطنة وتحالف مع قصروه نائب الشام وقام طومان باى بمحاصرة القلعة فاضطر السلطان الظاهر قانصوه إلى الهرب فى زى النساء حتى قبض عليه وأرسل إلى الإسكندرية سجينا وكانت سلطنة الظاهر قنصوه إسميه بحته، وكانت السلطة الفعلية فى يد الأمراء الذين سلطنوه، فلم يكن يبرم أمراً أو يبت فى مسألة. فإذا سئل عن شيء أجاب "بخشى" حتى لقبه العامة "بالسلطان يخشى" وبالرغم من أن طومان باى الذى

كان يشغل منصب الوزارة والأستادارية والدوادارية الكبرى كان الشخصية البارزة فى الحركة التى أدت إلى سلطنة قانصوه. وإلى القضاء عليها فإنه لم يجرؤ على إعلان رغبته ومطامعه فى شغل منصب السلطنة الشاغر، وأمامه الأمير جانبلاط أتابك العسكر، لذلك رشح هو الأمير جانبلاط للسلطنة.

السلطان الأشرف جانبلاط : (٩٠٥ - ٩٠٦هـ/١٥٠٠ - ١٥٠١م)

لم يحكم إلا سبعة أشهر ، وكان عمره خمسة وأربعون سنة حين تولى منصب السلطنة وقد تزوج من أرملة قايتباى (أصيلباى) حاول إجتذاب قصروه نائب الشام الخارج عن طاعته بتوليته منصب الأتابكية الذى شعر بسلطنته، فكانت إجابة قصروه إعلان نفسه سلطاناً بالشام وإتخاذ لقب الملك العادل، وبما أن طومان باى كان صاحب الأمر والنهى فى دولة جانبلاط خرج على رأس حملة لإخضاع قصروه سلطان الشام وفى الشام إتفق طومان باى وقصروه على عزل جانبلاط وتولية طومان باى كما إتفقوا على أن يتولى قصروه منصب أتابك العسكر، كما عينوا قانصوه الغورى فى منصب الدوادارية الكبرى وغيرها من الوظائف التى كان يليها طومان باى نفسه قبيل سلطنته، وزحف طومان باى إلى القاهرة وحاصر القلعة، وأيقن جانبلاط بفشل المقاومة فإختبأ عند الحريم السلطانى حتى قبض عليه وسجن وخنق.

السلطان العادل طومان باى : (الأول) (٩٠٦هـ/١٥٠١م)

كان طومان باى عندما بويع بالسلطنة فى بلاد الشام قد تلقب بالمؤيد، فلما جدد له الخليفة المستمسك البيعة فى القاهرة لقب بالعادل بدلاً من المؤيد. ولم تدم سلطنة إلا ثلاثة شهور وأيام فقد خشى على عرشه من حليفه أتابك العسكر قصروه الذى كان يبطأ فى الصعود إلى القلعة فبادر بالقبض

وخنقه، ونتيجة لوقوع هذا الحادث فجأة وفي هدوء من غير سابق فتنة أو مؤامرة صريحة خشي الأمراء المحيطون بالسلطان أن يلحق بهم ما لحق بأتابك العساكر فدبرت مؤامرة إنتهت بخنق السلطان العادل طومان باي.

ويتضح لنا مما سبق أن معظم السلاطين الذين تولوا منصب السلطنة في ذلك الدور الأخير من حياة دولة المماليك إنتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق، مما جعل كبار الأمراء لايرغبون في تولي منصب السلطنة الذي عدا ملطخاً بدماء الأبرياء، وعندما قتل السلطان العادل طومان باي سنة ١٥٠١م تمنع الغوري - رغم أنه أقوى الأمراء - عن قبول المنصب بل إنه أخذ يبكي ! ويقال إنه قبل أخيراً ذلك المنصب بعد أن إشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه، ولم يكن إصرار الأمراء على إختيار قانصوة الغوري لإعتقادهم في أحقيته نظراً لكبر سنه، وإنما لإعتقادهم أنه ضعيف يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم .

الأشرف قانصوه الغوري : (٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م)

تولي الغوري السلطنة في شوال سنة (٩٠٦هـ / مايو ١٥٠١م) بعد تردد وبعد أن أخذ العهود والمواثيق على الأمراء قائلاً "أقبل ذلك بشرط الا تقتلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتكم" وكان إصرار الأمراء على اختيار قانصوه الغوى هو إعتقادهم أنه لين العريكة سهل الإزاله في أي وقت. ولكن الغوري أثبت أنه رجل قوي صلب رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره عندما ولي منصب السلطنة، فعمل سريعاً على إعادة الأمن والإستقرار إلى العاصمة وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء، ثم إتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة وقد إتبع السلطان الغوري لإنعاش الخزانة العامة سياسة تعسفية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين

المماليك. ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور، بل حتى الأوقاف الخيرية. هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم الجمركية، كما تلاعب في العملة لتستفيد الخزانة من الفارق، مما أضر بالتجار ضرراً بليغاً. وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان يريده من أموال ولكن على حساب الشعب الذى إزدادت حالته سوءاً، وأخذ يشكو من قسوة الضرائب الباهظة.

وقد انفق الغورى من تلك الأموال على مماليكه الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء، كما شيد مسجداً (مدرسة) (أثر ١٨٩) أمام تربته في الجهة الغربية، كما شيد مدفن وخانقاه ومكتب ومقعد (أثر رقم ٦٦، ٦٧) على رأس تقاطع شارع الغورية بشارع الأزهر كذلك عنى السلطان الغورى بطريق الحج، فأقام به كثيراً من الإستراحات وا بار، هذا فضلا عن حفر بعض الترع وتحصين الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة، ومن المعروف عن السلطان الغورى أنه عنى بفخامة بلاطه وعظمة مظهره، فأصبحت مماليكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال، كما إشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمتهم من شعراء وأدباء وعلماء. ولم تحدث قلاقل ذات خطورة في الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى، إذا إستثنينا بعض الفتن والثورات من جانب المماليك الأجلاب والعربان، وهذا النوع من الثورات كان مألوفاً في ذلك العصر. ولم يصادف السلطان الغورى مشقة في إخمادها ولكن الخطر الكبير الذى ظهر في ذلك العصر والذى هدد مصر في كيانها وفي المورد الأول لثروتها وغناها أتى من ناحية الجنوب ـ أعنى من ناحية المدخل الجنوبى للبحر الأحمر؛ ثم من ناحية الشمال ـ أى من جانب العثمانيين.

قانصوه الغورى والبرتغاليون :

فى الوقت الذى اشتد احتكار سلاطين المماليك فى أواخر دولتهم لحاصلات الشرق مما أدى إلى إثارة التذمر فى غرب أوربا لإرتفاع أثمان تلك الحاصلات، كان بعض المتحمسين لفكرة الحرب الصليبية مازالوا ينادون بضرورة ضرب سلطنة المماليك إقتصاديا عن طريق حرمانها من مواردها التجارية، وبعد أن فشلت فكرة الحصار الإقتصادى على مصر بسبب عدم تجاوب البنادقة مع هذه الفكرة، ظهرت فكرة جديدة هى محاولة الكشف عن طريق أخر غير طريق البحر الأحمر وسلطنة المماليك للوصول إلى الهند والحصول على غلات الشرق .

وكان أن ظهرت جهود البرتغاليين لإكتشاف سواحل أفريقية الغربية لتعبر عن فصل من فصول الحرب الإقتصادية الصليبية ضد الدولة المملوكية، إذ كانت هذه الجهود البحرية تهدف إلى الوصول إلى شواطىء الهند وتحويل تجارة الشرق عن الطرق المارة فى أراضى الدولة المملوكية ، بقصد حرمانها من مصدر ثرائها وقوتها، ولذلك باركت الكنيسة الكاثوليكية هذه الجهود فأصدر البابا نقولا الخامس منشوراً فى ٨ يناير سنة ١٤٤٥م يبارك فيه خطوات الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠م) فى هذا المجال ثم كان أن تتابع نجاح حركة الكشوف الجغرافية، من أجل التوصل إلى طريق جديد لتجارة الشرق، فوصلت بعوث هنرى الملاح إلى مصب السنغال، والرأس الأخضر (١٤٤٦م - ١٤٤٧م)، كما وصل بارتلميوذياز إلى طرف أفريقيا الجنوبى ١٤٨٦م، ثم تبعه فاسكودى جاما الذى وصل إلى موزمبيق وكلوه وممبسة وهبط "ملنده" حيث أخذ ما يلزم من الزاد واستصحب معه بحاراً عربياً يدعى أحمد بن ماجد دله على الطريق إلى قاليقوط سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م).

وبذلك تحقق أمل الأوربيين فى كشف طريق جديد إلى الهند، ومن ثم بدأت البرتغال ترسل الأساطيل لإستخلاص تجارة الشرق من أيدى الأسطول المصرى، وإقتلاع جذور النشاط العربى من منطقة المحيط الهندى وتحويلها عن الطريق القديم إلى طريق رأس الرجاء الصالح إلى لشبونة، وبالتالى تصبح البرتغال بدلاً من الدولة المملوكية وسيطة التجارة بين الشرق والغرب، وإغراق أوربا بالسلع وسائر المنتجات الشرقية بأسعار رخيصة.

ولتحقيق هذا الهدف قام الأسطول البرتغالى سنة (٩٠٧هـ/١٥٠١م) بإغراق بعض سفن التجار المصريين فى ميناء قاليقوط ومن بينها سفن تابعة للسلطان الغورى كانت على وشك الإبحار إلى جدة.

كذلك أرسلت البرتغال سنة ١٥٠٢م أسطولاً بقيادة فاسكودى جاما لعدة أغراض أهمها إقامة حصون على السواحل الغربية لشبه جزيرة الهند لتزويد السفن البحرية بالمياة العذبة، وبناء حصن فى موقع مناسب عند مدخل البحر الأحمر لمنع السفن التى تحمل التوابل من الدخول إلى البحر الأحمر فى الطريق إلى مصر، حتى يفقد الهنود أملهم فى المتاجرة مع غير البرتغاليين، ونجح هذا الأسطول فى إحتلال جزيرة سقطرة وإتخذ منها قاعدة للهجوم على السفن الإسلامية.

ونتيجة لعجز السلطان الغورى فى ذلك الوقت عن إتخاذ أى إجراء عسكرى فإنه لجأ إلى الوسائل الدبلوماسية للضغط على البابا وملوك الفرنج بأنه ما لم يكف البرتغاليون والأسبانيون عن تجرمهم العدائى فى مياه المحيط الهندى ، فإنه سيقوم من جانبه مضطراً ومكرهاً بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجاراً ورهباناً كما سيقوم بغلق كنيسة القيامة.

ولكن البابا والدول المعنية لم تعبأ بتهديداته ولم تفلح الوسائل

الدبلوماسية التى أنتهجها الغورى وتمادوا فى غيهم.

تعين على الغورى أن يواجه القوة بمثلها، ولما كانت البندقية هى العميل الأول لتجارة التوابل، والتى وجدت نفسها عاجزة عن مسايرة الأسعار التى تجلب بها البرتغال التوابل من الهند، وتأثرت بتحويل التجارة شأنها فى ذلك شأن مصر، فقد طلب السلطان الغورى من رسول البندقية بندتوسانوتو الذى أتى إلى مصر ليحث الأخطار الناتجة عن تحويل البرتغاليين لتجارة البهار إلى أسواق لشبونة، بمشاركته فى الجهود الحربية بإمدادة بالأخشاب والأسلحة اللازمة لبناء أسطول يتمكن به من مطاردة البرتغاليين فى المحيط الهندى.

حرصت البندقية على عدم التورط مع الغورى فى القيام علانية بأى عمل أو أى إجراء يتعارض مع الأهداف الصليبية، ولكن تحت ضغط الرأى العام الذى كان يميل إلى إمداد مصر بهذه المساعدة، فقد أشارت البندقية على الغورى ببعض الوسائل التى يستطيع الإعتماد عليها فى بناء الأسطول، دون أن يؤدى ذلك إلى إظهارها أمام الأوربيين بمظهر الدولة التى تساعده علانية.

لم يقصر البرتغاليون نشاطهم على المحيط الهندى، بل توغلوا فى البحر الأحمر فى محاولة للإتصال بالنجاشى للوصول إلى إتفاق لإعداد حملة مشتركة، كما أغار الأسطول البرتغالى على ميناء عدن ثم توجه إلى سواكن ومنها إلى جدة، أملاً فى الزحف على المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، فإستنجد حكام وأمراء الدويلات الإسلامية فى الهند وشبه جزيرة العرب بمصر.

وفى تلك الوقت كانت الدولة المملوكية قد إنتهت من إعادة بناء أسطولها فأمر السلطان سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) بإنزال المراكب فوراً إلى البحر الأحمر وتولية الأمير حسين الكردى قيادة الأسطول الذى كان قوامه

خمسين سفينة إستطاع بناءها من رفع أسعار التوابل، وزيادة رسوم الجمارك كما أرسل السلطان مع هذا الأسطول عدداً من الصناع والبنائين، لبناء سور حول ميناء جدة، وإنشاء الأبراج اللازمة للدفاع عنها إذا ما هاجمها البرتغاليين.

وما إن علم البرتغاليون بوجود الأسطول المصرى فى جدة حتى هربت السفن البرتغالية نحو الجنوب ثم إلى ساحل الهند، وسار الأسطول المصرى جنوباً متعقباً السفن البرتغالية ومطارداً لوحداتها إلى أن وصل إلى ساحل الهند الغربى فإلتقى بأسطول برتغالى مكون من إثنى عشرة سفينة بقيادة فرانسسكو دالميدا فى ميناء شول فى صيف عام ١٥٠٨م وإشتبك الأسطولان فى موقعة إنتهت بهزيمة البرتغاليين ومقتل لورانسو بن دالميدا وتحطيم سفينته وفرار بقية السفن البرتغالية الأخرى، كما تمكن الأسطول المصرى من أسر أحد الأغربة البرتغالية.

وعقب ذلك النصر إتجه الأسطول المصرى إلى جزيرة ديو للتموين والإصلاح وحتى ينقضى فضل الأمطار، كما وصلت إلى ديو أربعون غراباً صغاراً أرسلها السامرى من ساحل مليار لتكون فى خدمة القائد المصرى إذا ما تعرضت أساطيله لغارة إنتقامية من قبل البرتغاليين.

إنتهز فرانسسكوا دالميدا فرصة لجوء الأسطول المماليكى إلى ديو ليعيد تنظيم قواته، وإستعد فى نحو عشرين مركب وفاجأ الأسطول المصرى والأساطيل الهندية المتحالفة معه، فوقعت بين الفريقين معركة بحرية هائلة فى شهر صفر سنة (٩١٥هـ / ٣ فبراير ١٥٠٩م)، وركز البوكيرك ورجالة جهدهم ضد مراكب الأسطول المصرى بالذات، فأسر بعض الأغربة المصرية وحطم البعض الآخر، مما أضطر الأمير حسين الكردى إلى الإنسحاب بما سلم معه من المراكب إلى جده، وعمل على بناء سور ضخم محصن حولها بعد أن تواترت الأنباء عن محاولة دخول البرتغاليين للبحر الأحمر.

وأعقب البرتغاليون إنتصارهم الساحق بفرض حصار قوى لمنع السفن القادمة من الهند من دخول البحر الأحمر والموانى العربية، وإستطاعت السفن البرتغالية بهذه العملية أن تعزل موانى البحر الأحمر وبخاصة جده وسواكن والسويس، وأن تمنع وصول التوابل والسلع الأخرى إليها.

وفى الوقت الذى واصل فيه البرتغاليون نشاطهم ضد السفن المملوكية فى مياه المحيط الهندى والبحر الأحمر قام فرسان الإسبتارية بشن سلسلة من الغارات على السفن المصرية فى البحر المتوسط، وهى محملة بالبضائع والأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن بقصد عرقلة المجهود الحربى الذى تقوم به الدولة لمواجهة خطر البرتغاليين ، ويبدو أنه كان هناك إتفاق بين الفرسان الإسبتاريه وملك البرتغال على خطة العمل فى مهاجمة الدولة المملوكية.

عمل السلطان الغورى على إعادة بناء الأسطول المصرى بعد هزيمة ديو فإشتر من الدولة العثمانية الأخشاب والمعدات اللازمة، إلا أن الإستبارية علموا بخبر هذه الصفقة فترصدوا السفن المصرية البالغ عددها ثمانية عشر سفينة وهى فى طريق عودتها إلى مصر محملة بالأخشاب والمعدات، ونجح أسطول الإستبارية بقيادة أندريه دامارال البرتغالى الأصل من الإحاطه بالسفن المصرية، ودارت بين الفريقين معركة غير متكافئة وكانت الخسارة فادحة فقد غرقت بعض السفن المصرية وشبت النيران فى بعضها الآخر، وإستولى الفرسان على البعض الآخر بما عليها من أخشاب وعتاد، ولم يصل إلى الأسكندرية سوى ست سفن خاوية.

وإزاء هذه الصعاب المتلاحقة التى هددت الدولة من كل جانب بالإضافة إلى ما تعانيه الدولة من قلة الأموال وما نتج عن ذلك من عجزها عن بناء أسطول جديد وتسليحه وعمارة الأسوار والأبراج، لجأ السلطان

قنصوة الغوري مرة ثانية إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني طالباً منه أن يبيع له الأخشاب والنحاس والحديد، وطلب منه المساعدة للمحافظة على المقدسات الإسلامية، وأرسل إليه أحد خواصه وهو يونس العادلي ومعه المال اللازم لشراء مستلزمات إعداد حملة بحرية جديدة.

ولما بلغ السلطان بايزيد ذلك رفض أن يأخذ المال من الرسول وأرسل عدة سفن تحمل الأخشاب والمجاديف والمكاحل والنشاب والبارود وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب فوصلت إلى ساحل بولاق في شهر شوال سنة (٩١٦هـ فبراير ١٥١١م).

وفي أثناء ذلك قام الأسطول البرتغالي بمهاجمة عدن سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م) بقصد السيطرة على مدخل البحر الأحمر الجنوبي، كما هاجم هذا الأسطول سواكن، ونجح في الإستيلاء على جزيرة كمران من اليمن.

غير أنه شاءت الظروف أن يتمكن الغوري من الإنتهاء من إعادة بناء الأسطول في ذلك الوقت العصيب وإنزال وحداته التي تألفت من إثنين وعشرين غراباً كبيراً وغليونين، وضم إليه عسكراً من الترك والمغاربة وعهد بالقيادة إلى الأمير حسين الكردي، وما أن لمس البرتغاليون قوة الأسطول المصري حتى سارعوا بالإنسحاب من مياه البحر الأحمر، فتبعهم الأمير حسين إلى شواطئ الهند غير أنه لم يستطع إنزال الهزيمة بهم، وأرسل إلى السلطان في طلب النجدة، فبعث إليه الغوري بوحدات بحرية أخرى بقيادة سليمان العثماني (الذي بعثه إليه السلطان بايزيد) لمعاونته.

غير أن هذه القوة البحرية الضخمة لم يكن لها حظ كبير من النجاح فلم تستطع الحصول على انتصار حاسم ضد البرتغاليين، بسبب ما كان للبرتغاليين من قواعد قوية على الشاطئ الهندي وإن كانت قد نجحت في

إبعاد خطرهم مؤقتاً عن البحر الأحمر، إذ تمكن الأسطول المصرى من الإستيلاء على زبيد ثم توجه إلىعدن حيث تمكن من هزيمة أسطولاً برتغالياً.

ونتيجة لأعمال السلب والنهب التى قام بها الأمير حسين ضد المسلمين فى عدن، وقع الخلاف بينه وبين زميله فى القيادة سليمان العثمانى عاد الأسطول على أثره إلى جدة، بعد أن إستولى فى طريقه على اليمن من بنى طاهر وجعل عليها نائباً مماليكيا هو الأمير برسباى الجركسى.

وفى هذه الأثناء دخلت الدولة المملوكية مرحلتها النهائية ، حيث كانت الأقدار أقوى من عزيمة السلطان الغورى الذى كان كبير الأمل فى الانتصار على البرتغاليين لو لم يتحرك العثمانيون ضده وإضطراره إلى الخروج على رأس جيش كبير لمواجهة العزو العثمانى .

قنصوه الغورى والعثمانيون :

كان الأتراك العثمانيون يعيشون فى بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) فى إقليم خراسان، واضطروا نتيجة لغزو المغول إلى الهجرة نحو الغرب حتى استقروا فى أسيا الصغرى، وقد أتاح لهم إنهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية سنة (٧٠٧هـ / ١٣٠٧م) فرصة طيبة، فأخذوا (العثمانيون) يتوسعون بسرعة على حساب الإمارات والقبائل التركية الكثيرة التى وجدت بأسيا الصغرى فى ذلك الوقت، وعلى حساب الممتلكات والأراضى البيزنطية، فاستولوا على بروسة سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٦م) وعلى نيقيه سنة (٧٣٠هـ/١٣٣٠م) ثم عبروا إلى الشاطىء الأوربى وإستولوا على شبه جزيرة غاليبولى سنة (٧٥٥هـ/١٣٥٤م). وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوسع توسعاً آمنا سريعاً على حساب الدولة البيزنطية من ناحية وعلى حساب القوى الإسلامية فى أسيا الصغرى من ناحية أخرى دون أن يعوق

تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر للميلاد.

وفى أوائل القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر للميلاد ـ تعرضت الدولة العثمانية لضربة خطيرة كان من الممكن أن تقضى عليها قضاء نهائياً فقد قام تيمورلنك بإجتياح أراضيها فى أسيا الصغرى وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية فى موقعة أنقرة سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م)، وأسر السلطان العثمانى بايزيد الأول حيث مات فى الأسر فى العام التالى، ولكن الدولة العثمانية إستطاعت أن تنهض من تلك الكبوة فقد تمكن السلطان محمد الأول العثمانى من إحياء الدولة وإستئناف سياسة التوسع من جديد، ونجح محمد الثانى الفاتح فى الإستيلاء على القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) وإنتهت الدولة البيزنطية من سجل التاريخ وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان فى مدينة الإمبراطور قسطنطين العظيم.

ولم يظهر فى الأفق خلال تلك الأحداث التى صحبت نمو الدولة العثمانية وإتساعها ما يدل على إحتمال حدوث صدام بين العثمانيين والمماليك فى مصر والشام بل إن دولة المماليك أخذت تنظر بعين الإرتياح إلى كل نصر يحققه العثمانيون المسلمون على حساب القوى الأوربية المسيحية على إعتبار أنه نصر للإسلام والمسلمين فعندما إستولى العثمانيون على القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) أمر السلطان إينال بتزيين القاهرة ودقت البشائر بالقلعة.

وكان العثمانيون يدركون هذه الحقيقة فكانوا كلما أحرزوا نصراً يرسلون بعض الأسرى الأوربيين إلى القاهرة ليشاركهم إخوانهم المسلمون فى مصر فرحة النصر. وكان سلاطين المماليك يرسلون التهانى للعثمانيين بهذا النصر، وكذلك التهانى كلما تولى سلطان جديد.

ولكن فى عهد السلطان المملوكى خشقدم سنة (٨٦٥هـ/١٤٦١م) بدأت العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين تتعكر وذلك بسبب إكتفاء العثمانيون بما حققوه من تقدم فى وسط أوربا حتى وصلوا إلى مدينة فينا، وتوجيه إهتمامهم صوب السيطرة على ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من إمارات فى أسيا الصغرى وخاصة إمارتى قرمان ودلفادر المشمولتين بحماية سلطنة المماليك وإعتمدت عليهما هذه السلطنة فى شئون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال الشام والعراق، فعندما توفى أميرا قرمان ودلغادر سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٥م) قامت الدولة العثمانية بمناصرة أمير ين غير من قامت دولة المماليك بمناصرتهما وتحسنت العلاقات بين المماليك والعثمانيين بعد عهد خشقدم ولكنه كان تحسناً ظاهرياً بسبب أطماع العثمانيين ومخاوف المماليك، فكان كل طرف يأوى الأمراء الخارجين على الطرف الأخر، فقد رحب العثمانيون ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام، ورحب السلطان قايتباى بالأمير جم أخو السلطان بايزيد الثانى، وحاول بايزيد أن يحرم سلطنة المماليك من إنفرادها بحماية الحرمين مما يضفى عليها مكانة خاصة لاتتمتع بها دولة إسلامية أخرى، فطلب السماح له بالقيام ببضعة إصلاحات فى مكة ولكن قايتباى رفض طلبه، مما جعل بايزيد الثانى يتحرش بسلطنة المماليك على أنه مهما يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين فى ذلك الدور فإن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلاً جدياً خطيراً إلا فى عصر السلطان سليم الأول العثمانى من ناحية والسلطان قانصوه الغورى من ناحية أخرى، والواقع أن الصدام بين المماليك والعثمانيين كان أمراً طبيعياً بين أكبر قوتين تتزعمان العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى وإتخذتا الحرب والقتال أداة لسياستهما، فصار لابد لإحدى هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها وتستأثر بزعامة المسلمين فى تلك المنطقة.

وقد بدأ السلطان سليم الأول العثمانى بمحاربة الشاه إسماعيل الصفوى شاه إيران، لأن الصفويون كان يعتبرون بالنسبة للعثمانيين خطراً جديداً يتهددهم، وكان الصفويون كشيعة متحمسين يثيرون نقمة العثمانيين، فقد كان يسكن مقاطعات الأناضول الشرقية، الواقعة ضمن الدولة العثمانية كثير من القبائل التركمانية، من شيعة وغيرها، وأخذت هذه القبائل تتجاوب مع دعوة الشاه إسماعيل الشيعية، مما كان بمثابة إنذار للعثمانيين بالخطر الذى يمثله الشاه إسماعيل.

فإنتصر العثمانيون على الصفويين سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) فى موقعة جالديران وإستولى السلطان سليم على الجزيرة والموصل وغيرها من الجهات ذات الروابط القديمة بسلطنة مصر منذ أيام الأيوبيين، مما أدى إلى تهيئة مزيد من الفرص لوقوع الصدام بين العثمانيين والمماليك، ثم كان أن قضى السلطان سليم سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) على إمارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك، مما جعل الصدام بين الدولتين أمراً لا مفر منه .

ولم يستطع السلطان الغورى أن يظل ساكناً إزاء حوادث الإستفزاز العثمانى من ناحية، والأخبار التى أخذت تترامى إلى مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على أراضى الدولة المماليكية من ناحية أخرى، ولكن مماليكه لم يقدروا هذا الخطر ولم يدر بخلد أحدهم مدى ما سوف ينتهى إليه، وظلوا كأسلافهم لاهم لهم إلا الحصول على المال والنفقة حتى ضاق بهم الغورى، فهجر القلعة وأقام بجريرة الروضة ثلاثة أيام، وأخيراً إستطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغورى فإسترضى المماليك الثائرين بسبب تأخر رواتبهم ، ثم أخذ يستعد للمعركة القادمة فإستدعى العسكر إلى ديوان الجيش وأعد آلات الحرب، وأسرع بتحصين قلعة قايتباي فى الأسكندرية. وفى ذلك الجو المشحون بروح الحرب إذا برسالة تصل من خاير بك نائب حلب تطمئن

السلطان الغورى وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بصدد الاستعدادات العثمانية، لأن تلك الإستعدادات إنما قصد بها حرب الشاه إسماعيل الصفوى. وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى إنها ستكشف عن خيانة خايربك هذا، إذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير فى تسهيل مهمة العثمانيين فى إحتلال الشام، كما إتصل خايربك بالأمير سيباى نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغورى، فكتب سيباى إلى الغورى يخبره أن الأحوال الإقتصادية فى الشام سيئة بحيث لاتحتمل البلاد مجىء السلطان ومعه جيشه الغفير، لاسيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود "وإن كان العدو متحرك فنحن له كفايه".

ولم ينخدع الغورى بتلك الرسالة وإنما عقد مجلساً حربياً لبحث الأمر مع أمرائه، وإستقر رأى الجميع على ضرورة المبادرة بإرسال حملة كبيرة إلى حلب إستعداداً للطوارىء، على أن يكون السلطان الغورى نفسه على رأس تلك الحملة. وهكذا لم ينتصف شهر مايو سنة ١٥١٦م/٩٢٢هـ إلا وكان الغورى قد تأهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام. وفى الريدانية التى حشد فيها الجند والأمراء إستعداداً للخروج إلى الشام، وصلت إلى الغورى رسالة ثانية من خايربك تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثمانى كلها ألفاظ معسوله لمحاولة بث الطمأنينة فى قلبه وصرفه عن الإستعداد للحرب، وفيها يخاطب السلطان سليم الغورى قائلا "أنت والدى وأسألك الدعاء".

ومرة أخرى لم ينخدع الغورى بتلك الحيلة، فخرج على رأس جيشه إلى الشام بعد أن أناب عنه فى السلطنة أثناء غيبته الأمير طومانباى وعند غرة سمع السلطان الغورى لأول مرة بخيانة خايربك، ولكنه رفض تصديق التهمة، ومضى فى طريقه حتى وصل حلب فى جمادى الأولى سنة (٩٢٢هـ/ يوليو ١٥١٦م) وفى حلب وصل رسولان من قبل السلطان سليم يعرضان الصلح وذكرا للغورى أن السلطان سليم لاينظر له إلا نظرته للوالد، وعمل سليم على تدعيم حيلته بأن طلب على يد هؤلاء الرسل سكراً وحلوى، فأرسل له الغورى - كما يقول إبن إياس - "مائة قنطار سكر وحلوى فى علب كبار - ورغم أن السلطان الغورى كان يدرك خديعة سليم له، كسباً للوقت حتى تصل إمداداته بقيادة وزيره الصدر الأعظم سنان باشا وأن كل هذا حيل وخداع حتى يبطل همه السلطان عن القتال ويثنى عزمه عن ذلك.

لذلك إستدعى وهو بحلب أمراءه جميعا - ومن جملتهم خايربك - وحلفهم على القرآن - فى حضرة الخليفة العباسى على ألا يخونوه ولايغدرون به، فحلفوا جميعاً واستعرضهم بعد ذلك فى الميدان وهم فى كامل لباسهم وسلاحهم وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة كما هى العادة ، وهذا معناه القسم العظيم .

وإذا كان الغورى قد رد على رسالة سليم بالحسنى ، فإن السلطان العثمانى أساء إستقبال رسول الغورى مغلباى فقبض عليه وكاد يشنقه لولا شفاعة بعض وزراء سليم، وعلم الأمير كرتباى الذى كان فى طريقه إلى سليم بما وقع لمغلباى فعاد مسرعاً إلى الغورى وأعلمه بما حدث، كما أنهى إليه أن العثمانيين قد تحركوا فعلاً ووصلت أوائل جيوشهم إلى عنتاب وإستولت على ملطية وكركر وغيرها من القلاع، فحلف الغورى أمراءه للمرة الثانية، ولم يطق الأمير سيباى نائب الشام أن يرى خايربك والمعركة توشك أن تدور

رحاها بعد أن وقف على خيانته، فهجم عليه وأمسك بتلابيبه صائحا: "يا مولانا السلطان ! إذا أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال". ولكن تدخل الخائن الثانى جان بردى الغزالى نائب حماه، وأقنع السلطان بعدم الإصغاء لهذه التهم حتى لايفت ذلك فى عضد سائر الأمراء، وهكذا ترك خايربك حراً طليقاً ليتم الدور الشائن الذى بدأه.

وفى ذلك الوقت وصل مغلباى وأخبر السلطان بما حدث له وبما قاله السلطان سليم له "قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق".

وعند دابق إحدى قرى بلدة عزاز، دارت المعركة ـ فحارب المماليك بشجاعة نادرة أفاضت فى وصفها كتب التاريخ، حتى لقد فكر السلطان سليم فى التقهقر لإعادة تنظيم صفوفه. وفى تلك الساعة الحرجة ظهر خايربك ليتم دوره ا ثم، فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف الجند المقاتلين، فهو حيناً يشيع أن السلطان الغورى يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى، وحيناً آخر يشيع خايربك أن السلطان الغورى سقط قتيلاً فى المعركة ويتراجع هو وجنوده مولين الأدبار ليحذو حذوهم بقية الجيش المماليكى.

وهكذا تفرقت صفوف المماليك وإنهارت مقاومتهم، وعبثاً حاول الغورى أن يستحث جيشه ـ بعد فوات الأوان ـ على الثبات ، فصاح فى جنده المدبرين "يا أغوات الشجاعة صبر ساعة" ، وكان أن تقدم الأمير تمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ العلم السلطانى وطواه خشية أن يقع فى يد الأعداء، ثم نظر إلى السلطان الغورى وقال له "يا مولانا السلطان! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب!" وكان لهذه الصدمة وقعها فى قلب الشيخ فلم يحتمل قسوة الموقف فأصيب بفالج وطلب بعض الماء ليشرب، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً على الأرض. وقيل أن السلطان [illegible] إلى [illegible] فى حين دفنت جثته عند حلب

والصحيح أنه لم يعلم حاله وقد حكم ١٥ سنة وتسعة أشهر و ٢٥ يوماً وهكذا انتهت موقعة مرج دابق، الموقعة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين والتى حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية.

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب ومنها إلى دمشق حيث تجمعت هذه الفلول ثم خرجوا إلى مصر فوصلوها أرسالاً متقطعة، وتعرضوا خلال الطريق لأذى العربان، وكان دخلولهم القاهرة فى رمضان سنة (٩٢٢هـ / أكتوبر ١٥١٦م) وقد وصلت إلى القاهرة أنباء هزيمة مرج دابق قبل وصول الفلول الهاربة بنحو شهر وشمل الناس الفزع والجزع، خاصة وأن أنباء الهزيمة وصلت مصحوبة بأنباء زحف السلطان سليم العثمانى على بلاد الشام فى طريقه إلى مصر.

الأشرف طومان باى : (٩٢٢ - ٩٢٣هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧م)

حين تحقق طومان باى من مقتل السلطان قانصوه الغورى، أمر بالدعوة على المنابر بإسم الخليفة المتوكل، وقبض على بعض التجار فى خان الخليلى ثبت لديه أنهم كاتبوا السلطان سليم بما يجرى فى مصر، وكانوا وكراً لإخفاء جواسيس العثمانيين، وكان الموقف فى القاهرة يتطلب إجراء عاجلاً سريعاً فإتفقت كلمة الأمراء على إختيار طومان باى للسلطنة فأختير سلطاناً سنة (٩٢٢هـ / أكتوبر سنة ١٥١٦م) وتلقب بلقب الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك فى مصر والشام.

ومن الواضح أن منصب السلطنة فى تلك الظروف كان غير مرغوب فيه، مما جعل كبار الأمراء يذهدون فيه ، هذا إلى أن طومان باى وهو أحد أمراء المماليك - كان يعرف ما إعترى أخلاق المماليك فى تلك الدور من تدهور وفساد، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفاً شريفاً وحلف

الأمراء "بأنهم إذا سلطنوه لايخونونه ولا يغدرونه ولايخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله".

وأخذ طومان باى يستعد لحرب العثمانيين، وكانت خطته تقضى بلقاء الأعداء بالشام قبل وصولهم إلى الحدود المصرية، وفى تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جنود المماليك الموقف ، فإشترطوا على طومان باى للخروج والحرب مصاريف باهظة فى الوقت الذى إستولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فعلاً غزة فى طريقهم إلى مصر، أرسل طومان باى حملة بقيادة جان بردى الغزالى الذى عينه نائباً للشام فى ديسمبر سنة ١٥١٦م، غير أنه عندما وصل إلى غزة كان العثمانيون قد إستولوا عليها، فعرج عنها وإتجه شمالاً حتى يسبك دوره فى الخيانة.

وأخيراً إستقر عزم طومان باى على الخروج بنفسه وجمع من إستطاع جمعه "من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة وكل من كان مختف على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله" وخرج إلى الريدانية فى طريقه لمقاتلة العثمانيين.

وفى أثناء ذلك وصلت فى ذى القعدة سنة (٩٢٢هـ / يناير ١٥١٧م) رسالة من قبل السلطان سليم العثمانى يعيره فيها بأصله المماليكى ويعرض فيها الصلح على السلطان طومان باى على شرط أن يعترف طومان باى بتبعيته للسلطان سليم . هذا فى الوقت الذى دأب فيه خايربك الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين، فواصل إرسال الكتب إلى أمراء مصر "يرغبهم فى الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنب فى محاسنه وعدله فى الرعية".

أراد طومان باى الخروج لملاقاة العثمانيين فى صحراء مصر الشرقية وهم فى طريقهم إلى القاهرة متعبون من مشقة الطريق، ولكن أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه أعتقاداً منهم أن خنادقهم فى الريدانية ستعصمهم من

الهزيمة فإضطر طومان باي إلى إتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثمانى للبلاد ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية في صبيحة (٢٣ يناير سنة ١٥١٧م) حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الإصطدام بالمماليك، فإضطر طومان باى إلى اللحاق بهم وإلتحم الفريقان فى معركة حامية إشترك فيها السلطان طومان باى وسليم، واستطاع طومان باى أن يذبح الصدر الأعظم سنان باشا بيده، وظن أنه قتل سليماً، واستمر طومان باى يقاوم فى شجاعة نادرة، حتى ألقى نفسه وحيداً فى نهاية الأمر، فإضطر إلى الفرار والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية، لأن الخائن جان بردى الغزالى قد اتصل بالخائن الأمير خايربك وأعلمه بخطة السلطان طومان باى فى الدفاع، وهذا ما جعل العثمانيين يتجنبون فى زحفهم نحو القاهرة التحصينات التى أقيمت بالريدانية .

وفى اليوم التالى لموقعة الريدانية وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧م دخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة دون أن تلقى مقاومة.

طومان باى الذى فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح فى سهولة، إستمر يقاوم المعتدين، وإشتبك معهم فى معركة الصليبة، وإتخذ من مسجد شيخو مركزاً لعملياته الحربية وحفر عدة خنادق، غير أن الجراكسة تقاعدوا حين إشتد القتال فصاروا يختفون فى الزوايا والمنازل والإسطبلات خوفاً من سطوة العثمانيين، وتمكن العثمانيون من القاهرة وأحرقوا بعض أجزاء مسجد شيخو فإضطر طومان باى إلى الفرار إلى البهنسا بالصعيد حيث فكر فى الصلح مع سليم ، فأرسل إليه بعثة مع قاضى البهنسا يعرض عليه أن يكون نائباً عنه فى حكم مصر ويجعل الخطبة والسكة بإسمه ويجعل إليه خراج البلاد حسبما يقع عليه الإتفاق؛ بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر إلى الصالحية "وإن كنت ما ترضى بذلك، إخراج ولاقينى فى بر الجيزة

ويعطى الله النصر لمن يشاء ... وما أنا بعاجز عن قتالك ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين".

وافق سليم على الصلح بحسب الشروط التى ذكرها طومان باى، وكتب صورة معاهدة إليه ووقع عليها على أن يقوم الخليفة المتوكل والقضاه بحملها إلى طومان باى ولكن الخليفة إعتذر وأناب عنه دواداره الخاص بردبك، فخرج الوفد ومعه مندوب عثمانى، على أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الجراكسة وقتلوا المندوب العثمانى وهرب برديك .

حنق سليم وتحقق أن طومان باى لايريد إلا الحرب وأمر بضرب أعناق الجراكسة الذين سجنهم. وعند الجيزة دارت إشتباكات بين طومان باى وبين العثمانيين عبر النيل، ثم إلتقى الفريقان فى معركة عنيفة عند وردان فى أول إبريل سنة ١٥١٧م استمرت يومين، وقد فاقت الريدانية فى العنف والإستماتة وإنتهت أيضاً بإنتصار العثمانيين وهرب طومان باى وتوجه سليم بعد ذلك إلى الأهرام لمشاهدتها.

وكان من أسباب هزيمة طومان باى تفرق رجاله من الجراكسة وإنفضاضهم عنه، فضلاً عن خيانة البدو والأعراب الذين دأبوا على مهاجمته مما أوقعه بين نارين. وأخيراً وجد طومان باى نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة، فجمع من حوله من أفراد المماليك وقال لهم "لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم !! إعلموا يا أغوات أن دولتنا قد ذالت وآجالنا قد مالت، وما بقى لنا فى هذه الديار نصيب !!" وتوجه طومان باى إلى الغربية وقال لمن معه "لابقى لنا رأى إلا أن أذهب إلى حسن بن مرعى وابن عمه شكرى شيوخ عرب محارب، فإنى قد وليتهم عليهم، وأطلقت حسن بن مرعى من الحبس بعد أن كان المرحوم السلطان الغورى كتب على قيده (مخلد) وقد أطلقته لما أن صار الأمر لى، وأخذت عليه العهود والمواثيق والأيمان المغلظة أن يكون

معى ظاهراً وباطناً، ويقوم معى بالقلب والقالب، إذا إحتاج الأمر لذلك.

ولكن حسن بن مرعى نسى ما كان لطومان باى من فضل سابق عليه فتنكر له وسلمه للعثمانيين طمعاً فى المكافأة، دخل طومان باى على سليم وهو فى زى عرب الهوارة، وعلى رأسه زنط وعليه شاش، وعلى بدنه ملوطة - قباء - بأكمام طوال، فقام له سليم وأخذ يتأمله معجباً بشجاعته وفروسيته وتجمع المصادر على شجاعة طومان باى عندما وقف بين يدى السلطان سليم مقيداً بالحديد، ورغم أن سليم أخذ يوبخه ويقرعه على مقاومته وأفعاله، لم يفقد طومان باى رباطة جأشه وقال "أنه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب وأن الله تعالى أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين" وقال له "الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان".

ويقال أن السلطان سليم أعجب بشجاعة طومان باى وقال "والله مثل هذا الرجل لايقتل" وأوشك أن يبقى على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى القسطنطينية، لولا تحريض الخائن خايربك وجانبردى الغزالى للسلطان سليم ، مما جعله يأمر بإعدام طومان باى وسيق طومان باى إلى باب زويلة حيث شنق فى يوم الأثنين ١١ ربيع الأول سنة (٩٢٣هـ/ ٢٣ أبريل سنة ١٥١٧م).

وقد وصف المؤرخ المعاصر ابن إياس اللحظات الأخيرة من حياة طومان باى وصفاً رائعاً فقال أنه أخرج من سجنه فى إنبابه وسار وسط حرس عدته ٤٠٠ جندى حتى وصل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة وأخذ يسلم على الناس على طول الطريق وهو لايدرى ما يصنع به، فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال، ووقفت حوله العثمانين بالسيوف، فلما تحقق أنه سيشنق، وقف على أقدامه ودعا الملأ الذى اجتمع

حوله أن يقرأ له الفاتحة ثلاث مرات وبسط يده إلى السماء وقرأ الفاتحة عن نفسه فى صوت مسموع ، وقرأ الناس معه، ثم إلتفت إلى المشاعلى وقال له: "اعمل شغلك" فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فإنقطع به فسقط على باب زويلة، وقيل إنقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس وعلى رأسه شاياه جوخ أحمر وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار، وفى رجله لباس جوخ أزرق فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل، سنة نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعاً وبطلا، وظلت جثة طومان باى معلقة ثلاثة أيام ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان الغورى.

هذا هو حكم التاريخ على بطل من أبطاله، هو أخر سلاطين المماليك فى مصر والشام، وبذلك إنتهت سلطنة المماليك لتظل مصر والشام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية.

تاريخ الدولة العثمانية

نشأة الدولة العثمانية :

أجمعت المصادر التركية والعربية والغربية أن الدولة العثمانية أسستها قبيلة تركمانية من الغز كانوا يعيشون عند بداية القرن الثالث عشر في خراسان، ولكنهم اضطروا إلى تركها والاتجاه غرباً حوالى سنة ١٢٢٠م تحت ضغط المغول ، فإخترقوا أذربيجان وأرمينيا ووصلوا آسيا الصغرى في الوقت الذى كان علاء الدين الأول (١٢١٩ - ١٢٣٥) يحكم سلطنة الروم (قونية)، وكان يقودها شخص يسمى سليمان ، وهو والد أرطغرل وجد عثمان الذى سميت الدولة بالنسبة إليه. ويذكر بعض المؤرخين أن لعثمان هذا أثنان وخمسون جداً ينتهون بنوح ، ومنهم آوغوزخان ، الذى عرف قومه بالأغز أو الغز .

ونسمع عن هؤلاء العثمانيين لأول مرة عندما قام زعيمهم أرطغرل بمساعدة سلطنة قونية ضد مهاجميها من المغول، هذا وإن كان من غير الثابت فى التاريخ إن كان العثمانيين قد استقروا فى آسيا الصغرى على أساس التبعية لسلطنة قونية أو مستقلين عنها .

ومهما كان الأمر فقد ساعد أرطغرل علاء الدين، ورد السلطان السلجوقى على هذه المساعدة بمنح العثمانيين هبة سخية من الأراضى فى آسيا الصغرى وعندما انهارت سلطنة قونية بوفاة سلطانها علاء الدين كيقباذ الثالث سنة ١٣٠٧م كان عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦م) ابن ارطغرل أحد زعماء القبائل التركية الكثيرة التى استقلت فى آسيا الصغرى. وقد أخذ العثمانيون منذ ذلك الوقت يتوسعون فى سرعة تسترعى الإنتباه ساعد على

ذلك وقوعها قرب البيزنطيين جعل الغزاة الذين لم يجدوا عملاً في الإمارات الضعيفة الأخرى يهرعون إليها ويزيدون في قوتها .

كما أن وقوعها على الطرق التجارية الرئيسية التي تربط القسطنطينية بقونية وداخل العالم العربي الإسلامي سهل مجئ العلماء والعناصر المنظمة كالتجار والصناع، من داخل العالم الإسلامي إليها، وحلت تبعاً لذلك مشكلة وجود موارد للدولة، وكان لكثرة ورود العلماء أن نشطت المدارس الإسلامية، وطبقوا تعاليم الدين في نظم الإمارة، وأخذوا الجزية.

وكان التجار والصناع منظمين في ما يشبه النقابات، تسمى الأخية من أخ وصفها الرحالة ابن بطوطة حين زيارته لهم في الأناضول : "يتعاون فيها أصحاب كل مهنة، وتنشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم واتخذت هذه الظاهرة "الرابطة" مظهراً عسكرياً واستفادت إمارة عثمان من هذه المميزات ومن كثرة العنصر المحارب فيها على صغرها، فاستولوا سنة ١٣٢٦م على بروسة واتخذوها عاصمة لدولتهم كما دفن فيها عثمان نفسه مؤسس الأسرة التي نسبت إليه، مما جعل لهذه المدينة مكانة خاصة عند العثمانيين" .

ثم خلف عثمان – أكبر أبناءه – أورخان ٣٣ سنة (١٣٢٦م – ١٣٥٩م) الذي هاجم نيقية (إسنك الحالية) ١٣٢٩م وهي المدينة التي كانت بمثابة العاصمة الثانية للإمبراطورية البيزنطية وقد أسرع الإمبراطور – البيزنطي – أندرونيق الثالث باليولوجس (١٣٢٨ – ١٣٤١م) إلى الدفاع عن نيقية ، ولكن الهزيمة حلت به سنة ١٣٢٩م فإستولى العثمانيون على المدينة في العام التالي .

وهكذا استغل أورخان ضعف الإمبراطورية البيزنطية وأخذ يتوسع توسعاً سريعاً في آسيا الصغرى بحيث لم يبق للإمبراطورية سوى شريط ساحلي ضيق على البسفور. وهنا نلاحظ أن توسع العثمانيين في آسيا

الصغرى لم يكن على حساب الدولة البيزنطية وحدها، وإنما كان أيضاً على حساب بقية الإمارات التركية الصغرى الضعيفة التى قامت على أنقاض سلطنة قونية .

وبعد ذلك قضى أورخان السنوات العشرين التالية فى تنظيم دولته تنظيماً جعل هذه السنوات أعظم مرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية فبدلاً من محاربة الجيران بساحل آسيا الصغرى، أو مهاجمة الأقوام بشبه جزيرة البلقان، انصرفت حكمة أورخان، وانصرفت همة المحيطين به، إلى بناء المساجد والمدارس والمشافى والفنادق للتجار واختار الزى القومى للرأس (وهى طاقية من جوخ أبيض) فضلاً عن تنظيم الجيش، وهو أهم هذه الأمور جيمعاً. ولهذه المرحلة ترجع الفيالق العسكرية التى جعلت الأتراك العثمانيين مصدر الرعب فى شرق أوربا لعدة قرون، وهى فيالق الإيكنجية أى (فرق المناوشة الخفيفة)، وفيالق الفرسان الإقطاعيين، وفيالق الحرس السلطانى، وفيالق المشاة ذات الشهرة الهائلة وهى الينى شرية أى (الجنود الجدد)، وهم جميعاً أطفال مسيحيون انتزعهم العثمانيون انتزاعاً من مختلف البلاد التى خضعت لحكمهم ثم علموهم الإسلام فى مدارس رتبوا مناهجها لتمحو كل أثر من آثار أصولهم وعواطفهم المسيحية الأولى، وتجعل منهم أدوات طوع مشيئة الدولة والسلاطين وخصص العثمانيون بعض إلينى شرية لوظائف الغلمان بالقصر السلطانى وأولئك غدوا أتعس أخوانهم حظاً، على حين عينت الدولة بعضاً آخر منهم لوظائف الحكم والإدارة المدنية، أما الجزء الأكبر من الينى شرية فأضحى فيالق المشاه، وهى التى بلغ من شجاعتها وتفانيها فى الحروب أن وجود فرقة واحدة منها، فى أى جيش عثمانى، كان ضميناً باستماتة هذا الجيش كله فى ميدان القتال، ويتضح من هذا أن الينى شرية نشئوا أرقاء – أو أشباه أرقاء – متجردين من جميع المؤثرات السلمية

الإنسانية التى تهذب الطباع، محرومين من جميع الصفات المكتسبة التى تفتح العقول بعيدين عن جميع المثل العليا التى تحرك الإدارة، ومرجع ذلك كله صرامة النظام الذى نشأ فيه الفرد منهم، وتقيد به تقيداً محا ماضيه محواً يكاد يكون تاماً، وجعل أفق مستقبله محدوداً بالحروب، ذلك أن الينى شرية تعلم أن ينسى أباه وأمه وأخوته وأقاربه، وأن يعيش دون أمل فى زوج وبنات وبنين، فالثكنة العسكرية مأواه، والحرب مهنته، والقرآن عقيدته، وما عليه إلا أن يمضى فى قتال السلطان أعداء الله بروح رهبانية ملؤها حماسة متأججة وتعصب ركيز ..

أما الاقتراح بتكوين الينى شرية من أطفال مسيحيين - تجمعهم الدولة جزية من مختلف البلاد الخاضعة لحكمها - فيقال أن مصدره هابيل الأسود وزير أورخان، ومن الواضح أنه لولا هذه الجزية ما استطاعت الدولة العثمانية أن تجد مورداً دائماً لتجنيد هذه الفيالق فى نظام .

ويستخلص من هذا أن الإمبراطورية قامت وظلت قائمة لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب، وأولئك لم يكونوا كثرة فى الجيوش العثمانية، بل كذلك بفضل رجال معظمهم صقالبة الأصل، ولدتهم أمهاتهم مسيحيين، ثم جئ بهم إلى مدارس الينى شرية، حيث طبعوا بطابع الخضوع العسكرى والعقيدة الإسلامية. وليس فى استطاعة باحث أن ينكر أن أعظم رجال الإمبراطورية العثمانية جاءوا إلى هذه المدارس، بعد إنتزاعهم من أهلهم المسيحيين .

وبعد وفاة أندرونيق الثالث سنة ١٣٤١م حدثت حرب أهلية داخل الإمبراطورية البيزنطية، لم يتردد خلالها المتنازعون من الإستعانة بالعثمانيين، وفى سنة ١٣٥٤م كان حنا الخامس باليولوجس قد تخلص من منافسة كنتاكيوزنيوس وأصبح لا ينازعه منازع فى حكم الإمبراطورية البيزنطية (١٣٤١ - ١٣٩١م) .

استغل العثمانيون الفرصة وزحف سليمان الابن الأكبر للسلطان أورخان على موقع شبه جزيرة جاليبولى واستولى عليه وحصنه بحامية تركية تسهر على الحفاظ عليه ، وكانت جاليبولى أول أرض أوربية يستولى عليها العثمانيون سنة ١٣٥٤م .

توفى سليمان سنة ١٣٥٨م قبل وفاة والده أورخان بعام واحد سنة ١٣٥٩ وآل العرش العثمانى للسلطان مراد الأول : الذى عبر الدردنيل إلى شبه جزيرة جاليبولى واستولى على سالونيكا وأدرنة سنة ١٣٦١م، وهما أكبر مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية .

أن هذا التوسع التركى على حساب الأراضى والمصالح البيزنطية لا يعود إلى مقدرة العثمانيين بقدر ما يرجع إلى تمزق البيزنطيين وتآمر حكامهم الواحد ضد ا خر إلى حد تشجيعهم للقوى المعادية لهم على غزو بعض الأراضى البيزنطية .

على أن وصول العثمانيين إلى الحدود الشمالية للإمبراطورية البيزنطية فى البلقان، جرهم إلى الإشتباك فى حروب ضد بلغاريا والبوسنة والصرب، وهنا أيضاً صادف العثمانيون توفيقاً كبيراً حتى نجحوا فى إخضاع أجزاء واسعة من هذه البلاد وأجبروا أهلها على دفع الجزية وفى هذه الأثناء لم يجد الإمبراطور حنا الخامس وسيلة لحماية ما تبقى من دولته سوى الإستنجاد بالغرب الأوربى بالبابا أوربان الخامس ليحيى الحماسة الصليبية، ولكن دون جدوى مما أدى إلى دخول الإمبراطور حنا الخامس فى تبعية السلطان العثمانى على أن يدفع له جزية سنوية، كما سمح له بإحتلال سالونيكا .

أما الممالك السلافية فى شمال القسطنطينية وغربيها فقد أظهرت عناداً فى مقاومة العثمانيين أكثر مما فعل البيزنطيون أنفسهم، حتى كونت فيما بينها حلفاً دفاعياً سنة ١٣٨٧م تحت زعامة ملك البوسنة، وقد نجح هذا الحلف فى

أول الأمر فى وقف تقدم العثمانيين، ولكن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بقوى الحلف فى كوسوفا Kossova سنة ١٣٨٩م، وخر ملك الصرب نفسه قتيلاً فى المعركة فى حين قتل مراد هو ا خر بيد أحد نبلاء الصرب بعد الموقعة .

وسرعان ما اتضح أن مقتل مراد الأول لم يؤثر فى الموقف بأى حال من الأحوال، لأن ابنه بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢م) خلفه فى الحكم فأجبر الصرب على دفع الجزية، كما أخضع ولاشيا وبلغاريا. وبذلك امتدت الأملاك العثمانية حتى الدانوب .

وعندما حاول الأوربيون عمل حلف جديد من بعض الأمراء الفرنسيين وملك هنغاريا ضد العثمانيين أنزل بهم بايزيد الأول هزيمة ساحقة فى موقعة نيقوبوليس فى بلغاريا سنة ١٣٩٦م .

ثم استغل السلطان بايزيد فرصة الخلافات الداخلية فى القسطنطينية سنة ١٣٩٧م ليعاقب الإمبراطور مانويل الثانى بعد حنا الخامس باليولوجاس لإنضمامه إلى الحلف الأوربى السابق فأخضع أبيروس وتساليا، وقام بايزيد بحصار القسطنطينية، وكان من الممكن أن ينجح فى فتحها عندئذ لو لم يقطع عليه تيمورلنك مشروعه .

ذلك أن تيمورلنك اجتاح الجزء الأكبر من آسيا الصغرى على رأس جموع غفيرة من المغول، الأمر الذى اضطر بايزيد إلى ترك حصار القسطنطينية والعودة مسرعاً إلى آسيا الصغرى، حيث أنزل به تيمورلنك هزيمة ساحقة فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢م، حيث وقع الجيش العثمانى، ذو الإنتصارات الكثيرة المتتابعة، فى فخ هائل من الخيالة المغولية الساحقة العدد. وأبيد هذا الجيش العثمانى عن آخره، ووقع بايزيد نفسه أسيراً فى يد تيمورلنك حيث مات فى الأسر فى سمرقند فى العام التالى .

عوامل هزيمة بايزيد فى انقرة :

- أرهق نفسه وجيشه تحت شمس يولية المحرقة ليجعل المعركة أمام انقرة بل كان يجب أن يترك تيمور يستنفذ بعض قواه فى سقوط انقرة نفسها ثم يقابله بجيشه وراء انقرة .
- وضع بايزيد مقدمة جيشه من عناصر التتر .
- قيامه هو بالهجوم بدلاً من الانتظار حتى يقوم تيمور نفسه بالهجوم (العثمانيون يجيدون الدفاع عن الهجوم مثال ذلك موقعة نيكو بولس) الميمنة كانت تحت قيادة استيفن لازار حليف مخلص لبيازيد (وحدات أوربية) الميسرة كانت تحت قيادة سليمان شلبى أكبر أبناء بيازيد (الوحدات الأناضولية القلب بيازيد نفسه + الإنكشارية وابناؤه مصطفى عيسى موسى المؤخرة بقيادة ابنه محمد) .

ومن الواضح أن هزيمة أنقرة جاءت ضربة قاسية نزلت بالدولة العثمانية الفتية، فتمكن الإمبراطور مانويل الثانى من العودة إلى عاصمته واسترداد سالونيكا وبعض أجزاء تساليا وابيروس، كما استطاعت القسطنطينية أن تعيش خمسين سنة أخرى بعد أن أوشكت على السقوط فى أيدى العثمانيين. أما أمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى فقد تحرروا من السيطرة العثمانية وعادوا إلى استقلالهم السابق هذا فى الوقت الذى اشتد الصراع بين أبناء بايزيد الأربعة لعشر سنوات حول وراثة منصب السلطنة .

على أن الظروف سرعان ما ساعدت الدولة العثمانية على استعادة مكانتها إذ اضطر تيمورلنك - بحكم الأحداث الدائرة فى جوف الدولة المغولية إلى العودة شرقاً نحو الصين سنة ١٤٠٥م، كما نجح السلطان محمد الأول العثمانى (١٤١٣ - ١٤٢١م) فى توحيد أملاك ابيه سنة ١٤١٣، وعندئذ

لم يسع الإمبراطور البيزنطي (مانويل) وغيره من الأتباع الأوربيين سوى تقديم فروض الولاء مرة أخرى للسلطان العثماني .

وعندما توفي محمد الأول خلفه ابنه السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١م) وعندئذ تشجع الإمبراطور مانويل الثاني بالبولوجس وأخذ يساعد أحد أبناء بايزيد ضد السلطان الجديد، ولكن مراد الثاني نجح في القضاء على هذا المنافس ومن ثم بدأ يفرض حصاراً جديداً على القسطنطينية سنة ١٤٢٢م لمعاقبة الإمبراطورية على مسلكه، وعلى الرغم من المتاعب التي تعرض لها السلطان أثناء ذلك الحصار فإنه استطاع أن يواصل سياسة الضغط على القسطنطينية حتى اضطر الإمبراطور مانويل إلى زيادة الجزية التي يدفعها للعثمانيين، وتوفي مراد الثاني سنة ١٤٥١م فاعتلى عرش السلطنة ابن محمد الثاني أو الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١م) الذي احتفظ لنفسه في التاريخ بشرف فتح القسطنطينية .

وقد أحس الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر بخطر الاستعدادات التي يبذلها العثمانيون للإستيلاء على مدينته، فحاول أن يستجدي معونة الغرب ولكن دون جدوى فسقطت القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، وهي المدينة التي ظلت بمثابة الدرع الواقي، أو الحصن الشرقي الذي طالما حمى أوربا من الأخطار الآسيوية .

وفي نفس الوقت الذي تمكن فيه محمد الفاتح من تحقيق كثير من الإنتصارات في الميادين الأوروبية، اتجه إلى تنفيذ الشطر الآخر من مخططه لإقامة ودعم الكيان العثماني وذلك باستكمال السيطرة التامة على الأناضول وضمان المنافذ المؤدية إليه فاستولى على طرابزندة وأخضع إمارة قرة مان، فأمكنه بذلك أن يسيطر على أبواب بلاد سيس (كليكيا) ومنافذ طوروس الحدود المشتركة بينه وبين أملاك الدولة المملوكية، أما هضاب الأناضول

الشرقية فكانت خاضعة لتركمان ذى الغادر، ولم تخضع للسيادة العثمانية ولكنه لم تظل بمنجى عنها فسرعان ما أدرك العثمانيون خطورتها وتدخلوا فى شئونها لإخضاعها بمحاولة تنصيب والى يدين بالولاء للدولة العثمانية، وأدت تلك السياسة إلى احتكاك خطير الشأن بين العثمانيين والمماليك .

أما بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢م) فإنه كان رجل سلام أكثر منه رجل حرب، ولم يتميز عهده الطويل بمواقع حربية فاصلة سواء فى الميدانين الأوربى أو ا سيوى، ففى أوربا سير بعض الحملات إلى الحدود المجرية ولم تكن ذات جدوى للإمبراطورية العثمانية، والإضافة الوحيدة فى أوربا للإمبراطورية العثمانية كانت عام ١٤٨٣ وهى ولاية الهرسك .

أما فى الميدان ا سيوى فقد وقفت القوات المملوكية له بالمرصاد فى الأقاليم الواقعة بين أذنة وطوروس وهى الأقاليم التى حرصت الدولة المملوكية فى أن تكون لها السيادة الأسمية عليها كما حرصت على تدعيم قبضة حكامها من التركمان فى مقابل ولائهم واتباعهم السياسة التى تضمن مصلحة الدولة المملوكية .

وهكذا كانت الدولة العثمانية خلال حكمى محمد الفاتح وبايزيد الثانى قد تمكنت من تكوين امبراطورية آسيوية أوربية بعد أن أتمت سيطرتها على الإناضول والبلقان . وكانت تحتوى فى شقها الأوربى على أربعة وثلاثين سنجقية وفى شقها ا سيوى على أربعة وعشرين.

ونتيجة لإنكماش بايزيد ثارت الإنكشارية عليه وأرغموه على النزول عن العرش لأصغر أولاده سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م) .

العلاقات العثمانية - المملوكية

بدأت العلاقات العثمانية المملوكية أتم ما تكون صفاء لا سيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها فى الدور الأول من حركتها التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية، وهو أمر قوبل بالإرتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى، وزاد من ذلك الود الخطر المشترك الذى هدد الدولتين من ناحية تيمورلنك، وكانت الدولة العثمانية هى البادئة بالسعى لتأكيد هذه الصداقة أو إيجاد نوع من التحالف مع دولة المماليك لتعارض مصالح العثمانيين مع التيموريين فى السيطرة على آسيا والبداية التاريخية لهذا الإتصال هى سنة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) حين أرسل السلطان بايزيد الأول العثمانى سفاره إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين، كذلك طلب السلطان العثمانى من برقوق أن يبعث له "طبيباً حادقاً فى صنعة الطب وأدوية توافق مرضه" فقد كان بايزيد يشكو من ألم المفاصل (الروماتيزم) واستجاب برقوق وأرسل الطبيب شمس الدين بن صغير ومعه كمية كبيرة من الأدوية المطلوبة غير أن برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على مستقبل بلاده وقال "أنى لا أخاف من اللنك فإن كل أحد يساعدنى عليه وإنما أخاف من ابن عثمان" .

ويبدو أن برقوق كان على حق فى اعتقاده هذا لأن بايزيد أغار سنة (٧٩٣هـ - ١٣٩١م) على قيصرية وقبض على صاحبها وهى وقتذاك فى حماية السلطان برقوق، غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م) جعل بايزيد يبعث بإعتذاره إلى برقوق كما أرسل له هدية ثمينة وأخبره بأنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس .

وثمة مظهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين فى ذلك الدور بدولة المماليك فى مصر هو إرسال بايزيد سنة ٧٩٦هـ يطلب من الخليفة العباسى (المتوكل على الله) بالقاهرة تفويضاً شرعياً بالسلطنة، غير أنه لا يوجد ما يشير إلى إجابة الخليفة العباسى فى القاهر لهذا الطلب .

كما حرص السلطان العثمانى بايزيد على إرسال سفاره ليبشر المسلمين بإنتصاره على الأوربيين فى موقعة نيقوبوليس سنة (١٣٩٦م/٧٩٨هـ) كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتى أسير .

غير ان تلك العلاقات الودية لم تستمر طويلاً بسبب أطماع العثمانيين إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء فى مصر عقب وفاة السلطان برقوق وأغار فى أواخر شوال سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارندة. وارتكب السلطان بايزيد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما فى نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة فى تزعم العالم الإسلامى وحرمان دولة المماليك من هذه الزعامة كما دل على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسية بين البلدين فى تلك الظروف العصبية التى أحاطت بالدولتين ، وصار لهذا الخطأ أثره فى نفوس أمراء مصر، بدليل أنه حين زحف تيمولنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية، أرسل بايزيد يطلب محالفة السلطان فرج بن برقوق لصد خطر تيمورلنك رفض الأمراء الذين بيدهم الأمر محالفته، مذكرين إياه بإغارته على ملطية سنة ٨٠١هـ .

ولم يدر السلطان فرج والأمراء أنهم بإنتهاجهم سياسة العداء مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمناها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة ، فزحف على دولة المماليك وأباد حلب وحماة

ودمشـــق فى أواخر سنة (١٤٠٠م/٨٠٣هـ) كما أوقع بالسلطان بايزيد وأسـره فى واقعة أنقرة سنة ١٤٠٢م .

ولا شك فى أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكى والعثمانى أضاع هيبة كل منهما فى نظر ا خر. وأخرت هاتـان الكارثتـان اللتـان منيـت بهما الدولتان الإصطدام بينهما حوالى قرن مـن الزمـان تـأرجحت فيـه علاقـة الدولتين بين الود والعداء .

غير أن بقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثمانى محمد بـن يزيد ينتبه لخطورة الموقف بعد هزيمة والده، ووقوع شـرق بـلاده كلهـا تحـت رحمة الملوك الذين حالفوا تيمورلنك، فأسـرع بعقد صلـح مـع السـلطان فـرج أواخرسنة(٨٠٥هـ/١٤٠٢م) وبدأالطرفان يتبادلان الهدايافىكثيرمن المناسبات.

على أن وفاة تيمورلنك (أخر سنة ٨٠٧هـ ينـاير سـنة ١٤٠٥م) وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتى المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التى أنزلها بهما تيمورلنك. وكان ان تجددت علاقـات الـود بيـن السـلطنة العثمانيـة والسلطنة المماليكية، فأرسل السلطان مراد الثانى العثمانى سفاره إلـى القـاهرة (سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م) لتهنئـة السـلطان الأشـرف برسـباى بالسلطنة، ومعهـا هدية، فأجـاب برسـباى بمـا يناسـب مقـام السـلطنة المملوكيـة ورغـم أن هدايـا برسباى لم تصل إلى مراد الثانى لوقوعها فـى أيدى قراصنـة البحـر الأبيـض من القبارصة وغيرهم، فإن السلطان العثمانى أرسل يهنـئ برسـباى بعد ذلـك بثلاثـة أعـوام بإنتصـــاره النهــائى فــى قـبرص وأســــر ملكهـــا جانـــوس لوزجنـان وشـهدت هذه البعثـة الإحتفـالات التـى اقيمـت فـى القـاهرة ابتهاجـاً بعودة الجيش المملوكى .

أثارت هذه الإحتفالات الغيرة فى قلب مراد الثانى العثمانى، لذلك أرسل فى عام (٨٣٢هـ/١٤٢٨م) خمسين أسيراًمسيحياً على أثر استيلائه على إحدى

الإمارات البلقانية، لكي يدلل على أنه ليس دون برسباى فى إعلاء كلمة الإسلام.

وزادت مظاهر الصداقة والود على عهد السلطان جقمق، ويمكن تلخيص العلاقة طوال عهد جقمق فى أنها كانت تبادلاً للهدايا والتهنئات وغير ذلك من مظاهر المجاملة. ورأى مراد أن يظهر ما يقوم به العثمانيون من خدمات للإسلام ، فأرسل إلى جقمق هدية تضم خمسين أسيراً وخمسة من الجوارى وكمية كبيرة من الحرير، وذلك على أثر انتصاره على جيوش لادسلاس Ladislas ملك المجر وهنيادى Hanyadi نائب ترانسلفانيا فى واقعة فارنا عام ١٤٤٤م، كذلك كان الشأن زمن السلطان محمد الثانى ابن مراد الثانى، فظلت علاقات الود قائمة حتى وفاة جقمق عام ١٤٥٣م، وبعد أن أتم محمد الثانى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، أرسل إلى السلطان إينال يبشره بإنتصاره فإحتفل إينال بالقاهرة ودقت البشائر بالقلعة، وأرسل يهنئ بالفتح ولم يلتفت لشكاية الأمير إبراهيم بن قرمان من تدخل السلطان العثمانى عام (٨٥٩هـ/١٤٥٤م) فى إمارته نظراً لعلاقات الود القائمة بين الدولتين.

على أن هذه الصفحة فى تاريخ العلاقات المملوكية العثمانية لم تلبث أن طويت، وفتحت صفحة أخرى تنم عن اصطدام المصالح، وكان ذلك مما ليس منه بد، عاجلاً أو آجلاً، ولا سيما بعد أن تمت سيطرة العثمانيين على شبه جزيرة البلقان، إذ أخذت الدولة العثمانية تحول وجهتها شطر آسيا الصغرى لإستكمال سيادتها عليها، وجاءت نقطة البدء فى الإحتكاك بين العثمانيين والمماليك من الإمارتين التركمانيتين: قرمان ودلغادر، وهما تحت الحماية المملوكية ، تدخل محمد الفاتح فى شئون الإمارتين ونجح فى أن يتولى عرشهما أميران مواليان للعثمانيين، وذلك فى الوقت الذى فشل فيه مرشحا المماليك ، كذلك أخذ السلطان العثمانى يرحب بالأمراء المماليك الفارين من جهة السلطان خشقدم .

ثم كان عهد السلطان قايتباي (٨٧٢ -٩٠١هـ/١٤٦٧ - ١٤٩٦م) وفيه ساد بعض الود بين الدولتين إلى وفاة محمد الفاتح العثماني عام ١٤٨١م وذلك راجع إلى اتفاق المماليك والعثمانيين على عدم التدخل في شئون الإمارتين وإلى إنشغال محمد الفاتح في توسيع إمبراطوريته .

غير أن هذه العلاقات الطيبة بدأت تضطرب على أثر تولية بايزيد الثاني العرش بعد أبيه (١٤٨١ - ١٥١٢م) ومطلع هذا الإضطراب نزاع جم مع أخيه بايزيد وإلتجاجم (بعد أن هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه) إلى قايتباي الذي احتفل به عام ٨٨٦هـ/١٤٨٢م) وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج مع أسرته مما أثار غضب السلطان بايزيد لم يكن في نية السلطان قايتباي أن يصطدم بالعثمانيين من أجل جم وإن رغب فيإبقاء جم عنده بالقاهرة لكي يستأديه في مضايقة بايزيد.

ولذا تدخل في الصلح بين جم وأخيه، ولما رفض بايزيد اقتراحات قايتباي خرج جم من القاهرة أوائل عام ١٤٨٢م على غير رغبة السلطان قايتباي لغزو آسيا الصغرى ، ولكنه فشل في مشروعه، فإضطر إلى الرحيل إلى جزيرة رودس حيث أضافه رئيس الإسبتارية .

التفت بايزيد بعد ذلك إلى السلطنة المملوكية لتصفية حسابه معها على ما اقترفته في حق السلطان العثماني بمعاونة جم الذي كان أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى أول صراع مسلح بين مصر والعثمانيين، وهذا فضلاً عن رفض قايتباي طلب بايزيد بالسماح له بإصلاح بعض القنوات في مكة، وتهاونه في امر هدية مرسلة من الهند إلى السلطان بايزيد، إذا استولى نائب جدة على هذه الهدية وأرسلها إلى قايتباي إذن تجمعت لدى السلطان بايزيد عوامل جعلته يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطنة المملوكية، فما كادت تصل إلى بايزيد شكاية علاء الدولة أمير دلغادر من تصرفات قايتباي، حتى

أمده بقوة حربية عثمانية هاجم بها ملطية التابعة للمماليك، لم يقف السلطان قايتباى مكتوف اليدين، فأرسل حملة فى عام (٨٨٩هـ/١٤٨٣م) بقيادة تمراز الشمسى انتصرت على علاء الدولة واحلافه من العثمانيين، وهذه أول حرب وقعت بين المماليك والعثمانيين، ورغم انتصار قايتباى فإنه كان يؤثر السلام والصداقة وأرسل صحبة أمير سياسى داهية هو جانى بك حبيب أمير أخورثانى سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) تقليد من الخليفة إلى بايزيد بأن يكون مقام السلطان على البلاد فى الدولة العثمانية (وما سيفتحه الله على يديه من البلاد الكفرية) كذلك حمل السفير المملوكى رسالة شخصية أخرى من الخليفة تتضمن حث بايزيد على تجنب الحروب، ولم ينس قايتباى أن يرسل مع قاصدة الهدية التى كانت مرسلة من قبل ملك الهند مع الإعتذار للسلطان عما وقع بشأنها وأعد حملة حربية لإخضاع الثائر علاء الدولة .

على أن السلطان بايزيد استقبل جانى بك أسوأ استقبال، ورفض المصافاة وأجاب بإرسال جيش لغزو بعض البلاد المملوكة فى الأطراف فلم ير قايتباى بداً من إستئناف الحرب ضد العثمانيين، ومن هنا بدأت حملات القائد أزبك، وهى حملات ثلاث بدأت فى غام (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) وأسر فى الحملة الأولى عدداً كبيراً من العثمانيين وخرجت الحملة الثانية ١٤٨٦م ونجح أيضاً فيها أزبك وعاد ومعه عدد كبير من العثمانيين دخلوا فى خدمة السلطان قايتباى، فأنزلهم قايتباى بديوانه وقرر لهم الجوامك وظلت هذه الطائفة فى خدمة المماليك حتى نهاية العصر المملوكى، وهى المعروفة باسم (العثمانية) .

وأخيراً تم الصلح بين العثمانيين والمماليك سنة١٤٩٢م وانتهت حالة الحرب غير أنه كان انتهاء مؤقتاً، فقد حدث على عهد خلفاء قايتباى تطورات جديدة فى العلاقةالمملوكية العثمانية أثرت فيها عوامل خارجية إلا أن علاقات

الود ظلت قائمة حتى وفاة بايزيد الثانى ١٥١٢م وولاية أبنه سليم الأول، ولما كان السلطان سليم قد وضع لنفسه خطة توسعية نحو الشرق، ومعنى ذلك ابتلاع الإمارات الإسلامية المجاورة والإصطدام بدولتى الفرس والمماليك ، فإن علاقات الود باتت معرضة للإنقلاب إلى غير عودة، ثم إن سليم العثمانى لم ينظر إلى البحر الأبيض إلا على اعتبار أنه بحيرة أو خليج عثمانى ، وطمع فى انتزاع الأراضى المقدسة من سيطرة المماليك حتى يدعم مركزه فى العالم الإسلامى العربى وضد الشيعة الفرس بصفة خاصة استهل سليم عهده بقتل أخويه الكبيرين قرقد وأحمد وأولادهما، ثم التفت إلى الصفويين لكى يقضى عليهم وعلى مذهبهم الشيعى، وبعث برسالة فى (مايو سنة ١٥١٤م) إلى السلطان الغورى، يوضح له فيها نواياه ضد فارس وما يعتزم القيام به ضد الشيعة، فقرر الغورى إرسال جيش يرابط فى حلب دون أن يتدخل فى النزاع الفارسى العثمانى ، ويرقب ما يسفر عنه النضال ، تم انتصار سليم على الصفويين فى موقعة جالديران عام ١٥٢٤م ، ثم قضى على إمارة دلغادر عام ١٥١٥م .

تحالف الصفوى مع الغورى، ورحب سلطان المماليك بهذا الحلف، ومن ثم أخذ كل من السلطان الغورى والسلطان سليم يتربص بصاحبه الدوائر، ولا سيما وأن الغورى أوى الأمير قاسم العثمانى. أحد أبناء الأمير أحمد الذى قتله سليم واتخذ منه أداة للتهديد، كما اتخذ قايتباى من قبل عمه الأمير جم .

والواقع أن النزاع العثمانى الفارسى لم يكن السبب المباشر فى النزاع العثمانى المملوكى وإن كان عاملاً مباشراً للتعجيل به، أما الأسباب البعيدة وهى الحقيقية فهى التنافس على السيادة العليا على العالم الإسلامى .

وانتشرت الأنباء فى القاهرة (أوائل عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م) بأن السلطان سليم

يعد العدة لمداهمة الصفويين براً وبحراً، ولكن السلطان الغورى أدرك بفطنته وقرائن الأحوال أن هذه الاستعدادات الضخمة لا يعقل أن تكون من أجل الصفويين، وأن الهدف الحقيقى لها هو السلطنة المملوكية ولم يضع وقتاً بل سرعان ما بدأ فى الإستعداد الحربى، وساءه موقف الجلبان وعدم تقديرهم للخطر المحدق فأنبهم بقوله "لا تشمتوا العدو فينا، وابن عثمان متحرك علينا، ولابد من خروج تجريدة له عن قريب" وكلف أولاد علاء الدولة الذين كانوا بمصر منذ زوال إمارة دلغادر بالخروج وجمع العساكر التركمان ، فخرجوا.

وفى أثناء هذه الاستعدادت للقاء العثمانيين، وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب يذكر فيها أن السلطان سليم العثمانى ينوى مهاجمة الشاة إسماعيل الصفوى، وأن الشاة يستعد لمقابلته والحقيقة ان خاير بك كن متصلاً بالسلطان سليم وما أراد برسالته هذه إلا تثبيط همة الغورى وصرفه عن الاستعدادت القائمة، وقد بدأت اتصالات خاير بك بالعثمانيين منذ عهد بايزيد الثانى ولكن السلطان الغورى لم يركن إلى رسالة خاير بك رغم أنه لم يشك فى ولائه بل ضاعف جهوده وأعلن أنه سوف يقود الجيش بنفسه وقرر الخروج إلى حلب حيث يرقب الحوادث ويرى ما يكون "من أمر الصفوى وابن عثمان فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا" .

أمر الغورى عساكره بالخروج قبله إلى الريدانية، فخرجت أطلاب المماليك من القاهرة وكانت خمسة عشر طلباً، فضلاً عن الفرق الإضافية التى ألحقت بالجيش، وتلا ذلك طلب السلطان نفسه ومعه خزائنه

مغطاة بأغشية من الحرير الأصفر محملة على ٥٠٠ جمل فيها الذهب والفضة وآلات السلاح .

وخلال إقامة السلطان بوطاقه (بخيمته) بالعباسية، جاءته رسالة من خاير بك تنم عن الخديعة التى دبرها سليم العثمانى وعميله خاير بك، فقد أوضح خاير بك بأن قاصداً جاءه من قبل السلطان العثمانى للتفاوض فى أمر الصلح ومع رسالة خاير بك كتاب من السلطان سليم كله ألفاظ رقيقة منمقة ففية يقول سليم للغورى "أنت والدى وأسألك الدعاء ... وأن البلاد التى أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم، وجميع ما ترونه ويريده السلطان فعلناه".

استبشر السطان بحديث الصلح بعد قراءة الرسالة على أمرائه، ولكنه لم يتراجع ، وسار حتى دخل دمشق، وفى حماة احتفى به نائبها جان بردى الغزالى أكثر من حفاوة نائب دمشق ، وتوجه إلى حلب أخيراً فدخلها فى (جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ/يولية ١٥١٦م)، وكان خاير بك يحمل القبة والطير على رأسه .

نزلت جيوش المماليك فى منازل الحلبيين فضاق بهم أهل المدينة ولا سيما لما ارتكبوه من المنكرات، ولهذا أسوأ الأثر فى تطور الحوادث فيما بعد، وفى حلب استقبل الغورى بعثة عثمانية وعاتبها على أفعال سليم وما ارتكبه فى حق المماليك باعتدائه على إمارة دلغادر.

ورغم أن السلطان الغورى كان يدرك خديعة سليم له، كسباً للوقت حتى تصل إمدادته بقيادة وزيره الصدر الأعظم سنان باشا، فإنه لم يُرد أن يقابل السفراء العثمانيين بالجفوة أو اظهار التحدى، بل ظل محافظاً على هدوئه مظهراً رغبته فى السلم والصلح، وذكر له الرسل أن السلطان سليم لا ينظر إلى الغورى إلا نظرته للوالد الذى يطلب منه الدعاء، ويرجو ألا يتدخل الغورى فيما بينه وبين الصفوى، وأكدوا له أن العثمانيين ما قدموا إلا لحرب

الشاه وسوف لا يرجعون دون القضاء عليه.

خلع الغورى على سفراء سليم وردهم إليه ومعهم كتاب منه يعرض فيه التوسط فى الصلح بينه وبين الصفوى، وأرسل كاتم سره (الدوادار) الأمير مغلباى ليؤكد للسلطان سليم رغبته فى الصلح واهتمامه بأمر الوساطة ولشدة رغبة الغورى فى الصلح وتجنب الحرب، أرسل سفيراً أخر صحبة هدية تقدر بنحو عشرة آلاف دينار، وفى نفس الوقت أو عز إلى أحد القضاة بأن يجعل موضوع خطبته بالمسجد الكبير بحلب، حول الأحاديث النبوية التى تحض على عدم النفرة بين المسلمين ، على أنه لم يغفل عن أخذ الحيطة التى يقتضيها الوضع القائم ، فجمع أمراءه وحلفهم جميعاً على ألا يخونوه ولا يغدرون به ، فحلفوا جيمعاً .

أما استقبال سليم لسفراء الغورى فكان أسوأ استقبال، إذا قبض على مغلباى ورفض الصلح وكاد يشنقه لولا شفاعة بعض وزراء سليم، وعلم الأمير كرتباى الذى كان فى طريقه إلى سليم بما وقع لمغلباى فعاد مسرعاً إلى الغورى وأعلمه بما حدث، كما أنهى إليه أن العثمانيين قد تحركوا فعلاً ووصلت أوائل جيوشهم إلى غنتاب واستولت على ملطية وكركر وغيرها من القلاع .

فحلف الغورى أمراءه للمرة الثانية، ولم يطق الأمير سيباى نائب الشام أن يرى خاير بك والمعركة توشك أن تدور رحاها بعد أن وقف على خيانته ، فهجم عليه وأمسك بتلابيبة صائحاً : "يا مولانا السلطان، إذا أردت أن تنصر على عدوك بإذن الله، فأقتل هذا الغادر الخائن فى الحال" .

ولكن تدخل الخائن الثانى الغزالى نائب حماة أقنع السلطان بعدم الإصغاء لهذه التهم حتى لا يفت ذلك فى عضد سائر الأمراء، وهكذا ترك خاير بك حراً طليقاً ليتمم الدور الشائن الذى بدأه، وفى ذلك الوقت وصل

مغلباى وأخبر السلطان بما حدث له وبمقالة السلطان سليم له: "قل لأستاذك بلاقينا على مرج دابق" .

نادى السلطان الغورى فى عسكره بالرحيل وقبيل أن يلحق السلطان بجيشه بعث برسالة إلى طومان باى نائب الغيبة فى مصر يوصيه بالرعية ، وعند دابق إحدى قرى بلدة عزاز، أخذ الغورى يرتب صفوف جيشه بنفسه استعداداً للمعركة. (وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس ١٥١٦م [جمادى الثانية ٩٢٢هـ]) تقدمت الجيوش العثمانية ، وكان الغورى على أتم استعداد فلم يؤخذ على غرة وبدأت المعركة بهجوم خاطف عنيف زلزل أقدام العثمانيين وأنزل بهم خسارة فادحة، حتى فكر سليم فى التقهقر وطلب الأمان لكى يعيد ترتيب صفوفه .

وفى هذه اللحظة الحرجة أشاع خاير بك أن السلطان الغورى أمر جلبانه بعدم القتال حتى يصدر أوامره إليهم ، وحتى يقاتل القرانيص وحدهم وهم المماليك القدماء، وبسبب هذه الإشاعة فترت همة القرانيص اذرأوا فيها خطة دنئية من جانب السلطان أراد بها أن يكونوا الطعمة الأولة لنيران العثمانيين، انتقاماً منهم لما ارتكبوه فى حقة سابقاً وفى ذلك الوقت أظهر خاير بك الهزيمة وأشاع أن السلطان الغورى قد قتل ، فإنها رت قوة المماليك ، مع أن الغورى كان ثابتاً فى مكانه تحت الصنجق السلطانى، ولما أيقن من الهزيمة حاول الهرب إلى حلب ولكنه سقط عن فرسة بعد خطوات جثة هامدة من هول الهزيمة .

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب حيث انتقم منهم الحلبيون جزاء لما ارتكبوه فى حقهم سابقاً، وطردوهم، فخرجوا على دمشق فى اسوأ حال وفى دمشق تجمعت هذه الفلول ، ثم خرجوا إلى مصر فوصلوها أرسالاً متقطعة، وتعرضوا خلال الطريق لأذى العربان ، وكان دخولهم القاهرة فى

(رمضان ٩٢٢هـ/أكتوبر ١٥١٦م).

هذه هى واقعة مرج دابق الفاصلة فى أمر السلطنة المملوكية ، وأمر استقلال مصر، وقد وصلت أنباؤها إلى القاهرة قبل وصول الفلول الهاربة بنحو شهر وشمل الناس الفزع والجزع ، وقام نائب الغيبة بما ينبغى عليه، وحين تحقق طومان باى من مقتل السلطان، أمر بالدعوة على المنابر باسم الخليفة المتوكل .

اتفقت كلمة الأمراء على اختيار طومان باى للسلطنة ، فأخذ يستعد لحرب العثمانيين وكانت خطته تقضى بلقاء الأعداء بالشام قبل وصولهم إلى الحدود المصرية، على أنه لقى العنت فى سبيل الإستعداد، أرسل حملة بقيادة جان بردى الغزالى الذى عينه نائباً للشام، غير أنه عندما وصل إلى غزة كان العثمانيون قد استولوا عليها، فعرج عنها واتجه شمالاً حتى يسبك دوره فى الخيانة، وحينئذ استقر عزم السلطان على الخروج بنفسه ونادى فى الناس "أخرجوا وقاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار، وأنا واحد منكم، أن خرجتم خرجت معكم، وإن قعدتم قعدت معكم وما عندى نفقة أنفقها عليكم" .

وفى ذلك الوقت وصلت سفارة من قبل السلطان سليم تخبر بأن سليماً غادر دمشق إلى غزة، وأنه يعرض الصلح على السلطان طومان باى على شرط أن يعترف طومان باى بتبعيته للسلطان سليم أظهر طومان باى الميل إلى الصلح حقناً لدماء المسلمين ، وفى نفس الوقت ليكسب بعض الوقت لإستكمال استعداداته التى ظلت قائمة بهمة ونشاط تحت اشرافه .

أما خاير بك فقد دأب على متابعة خطته الغادرة، فأرسل كتباً إلى أمراء مصر ومشايخ العربان يرغبهم فيها بالدخول فى طاعة السلطان سليم، وأخذ يفيض فى وصف محاسنه وعدله وأن من يدخل تحت طاعته سوف يظل على وظائفه وأرزاقه .

اصدر طومان باى أمره بالرحيل ، ومن المؤسف أن المماليك فـى ذلك الظرف العصيب أظهروا الكثير من الإستهتار والإستهانة بالموقف ولم يستطع السلطان أن يعمل شيئاً سوى تأنيبهم على هذا الموقف المتخـاذل وترضيتهم ، وأخيراً أخرج إلى الريدانية وأخذ يلوم رجاله علـى تقاعدهم وانشـغالهم، حتـى اقتحم العثمانيون الحدود المصرية .

ورغم استعدادات طومان بـاى الضخمـة فقد جبن المماليك حتـى كـان منهم من لا يقيم بالريدانية إلا خلال النهار كى يراهم السلطان، ثم يعودون إلى القاهرة حيث يبيتون فى منازلهم .

وفـى صبيحـة (٢٣ينـاير ١٥١٧م) شـوهدت العسـاكر العثمانيـة وهـى تتحول عن الريدانية إلـى القـاهرة، فـإضطر إلـى التحـول سـريعاً للحـاق بهـم، والتحم الفريقان فى معركة حامية اشترك فيها السلطان طومـان بـاى وسـليم، واستطاع طومـان باى أن يذبح الصدر الأعظم سنان باشا بيده، وظن أنـه قتل سليماً، وكانت الخسائر من الجانبين فادحـة، حمـل العثمـانيون علـى الممـاليك حملة عنيفة زلزلت أقدام الجراكسة حتى بقى طومان باى وحده يقـاتل وعندئذ طوى طومان باى الصنجق السلطانى وولى مدبراً واختفى .

والواقع أن هزيمة المماليك فى وقعة الريدانيـة كـانت امـراً لا مفـر منـه نظراً لأن الخيانة ظلت تلعب دورهـا حتـى آخـر لحظـة فـى تـاريخ السلطنة المملوكية إذ كان الخائن جان بردى الغزالى قد اتصـل بالخـائن الأمـير خـاير بك، وأعلمه بخطة السلطان طومان باى فى الدفاع، وهذا مـا جعـل العثمـانيين يتجنبون فى زحفهم نحو العاصمـة التحصينـات التى أقيمت بالريدانيـة، وفـى (٢محرم سنة ٩٢٣هـ/٢٥ينـاير سـنة ١٥١٧م) أمـر سـليم بنقـل معسـكره مـن الريدانية إلى بولاق، واحضرت له مفاتيح القلعـة ، واتخـذ مـن بـولاق مركـزاً لقيادته وأعماله الحربية التى لم تنته بعد .

لم ييأس السلطان طومان باى من أمل الظفر والإنتصار فشن هجوماً على معسكر السلطان سليم فى بولاق ودارت معركة انتهت بإنتصار طومان باى واستيلائه على بعض أجزاء القاهرة، وعلم العربان بإنتصار طومان باى فهاجموا معسكر العثمانيين ونهبوهم ، ومن ثم قويت الروح المعنوية عند المماليك ولكن لفترة وجيزة مما اضطر طومان باى إلى الهرب للمرة الثانية إلى البهنسا وظل يكافح بما تيسر له من وسائل، من ذلك أنه منع وصول الغلال إلى القاهرة فوقع فيها الغلاء، غير أنه أدرك استحالة النصر النهائى فأرسل إلى سليم يفاوضه فى الصلح على أن يجعل الخطبة والسكة باسمه ويرسل إليه الخراج سنوياً على أن يكون طومان باى نائبه فى حكم مصر كما أخبره بأن طلبه للصلح ليس عن عجز منه ولكن لصون دماء المسلمين.

رأى السلطان سليم ألا يرفض الدخول فى الصلح بحسب القواعد التى ذكرها طومان باى وكتب صورة معاهدة إليه وأرسلها مع وفد برئاسة مندوب عثمانى غير أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الجراكسة وقتلوا المندوب العثمانى، فإستعد سليم للحرب، واشتبك الفريقان قرب وردان فى (أول ابريل ١٥١٧م) حيث دارت معركة حامية استمرت يومين انتهت بهزيمة المماليك وانتصار العثمانيين وهرب طومان باى لثالث مرة، وتوجه سليم بعد ذلك إلى الأهرام لمشاهدتها توجه طومان باى هذه المرة إلى الغربية حيث اختفى عند الشيخ حسن بن مرعى وابن عمه شكرى شيوخ عرب محارب، فرحب آل مرعى بقدوم السلطان وركن السلطان إلى ولائهم بعد أن حلفوا له على المصحف سبع مرات، غير أن حسن بن مرعى استقر عزمه على الخيانة طمعاً فى المكافأة بالرغم ما للسلطان طومان باى عليه من أياد بيضاء، فأحاط ضيوفه بعربانه حتى لا يفلت السلطان، وأرسل إلى سليم ينبئه بالخبر، فبعث سليم بفرقة من جشه قبضت على طومان باى وقيدته فى

الحديد وعادت به إلى سليم الذى قام له وأخذ يتأمله معجباً بشجاعته وفروسيته. ثم دار بين الرجلين حديث طويل عبر فيه سليم عن اعجابه بطومان باى بقوله لمن حوله : "والله مثل هذا الرجل لا يقتل" فلما شاع هذا الخبر قام خاير بك وجان بردى الغزالى بتحريض السلطان سليم على قتله بحجة أن لا بقاء لملكه ما دام طومان باى على قيد الحياة وافق سليم على اعدام طومان باى، وفى (يوم الإثنين ١١ ربيع الأول ٩٢٣هـ/٢٣ ابريل ١٥١٧م) أخرج طومان باى من سجنه فى إمبابة وسار وسط حرس عدته ٤٠٠ جندى حتى وصل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة حيث شنق وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام على باب زويلة، ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان الغورى .

هكذا انتهت الإمبراطورية المملوكية ، وفقدت مصر استقلالها وسيادتها وأصبحت ولاية عثمانية، وعليها خاير بك الخائن والياً من السلطان العثمانى، بل صارت له إقطاعاً طوال حياته، وهو ثان وال من قبل العثمانيين ، إذ وليها قبله لفترة قصيرة يونس باشا العثمانى ومن ثم صفا الجو لسليم العثمانى، فشق القاهرة فى موكب وصلى الجمعة بالأزهر وتصدق وعاد إلى بولاق .

أما أسباب سقوط المماليك :

فيمكن التماسها من جوانب عدة فهناك النزاع الأبدى بين الجديد والقديم، ويتمثل الجديد فى النظم العثمانية وأساليب الحرب والمعدات، والقديم فيما ظل عليه المماليك من ممارسة نظمهم القديمة رغم ما عرفوا به من الشجاعة والفروسية المنقطعة النظير، غير أن الشجاعة والفروسية ليست شيئاً بجانب وسائل الحرب الحديثة فى ذلك الوقت، والواقع ان الذى شتت قوة المماليك هو استخدام البنادق واعتماد العثمانيين عليها بصفة أساسية ، وكثيراً ما عبر المماليك عن مدى تأثرهم بهذا السلاح واعترفوا بنكايته بهم اعترافاً صريحاً .

ومن ناحية أخرى ، هناك استقرار النظم الداخلية عند العثمانيين حيث ولاية العرش والمحافظة على اتباع نظام الوراثة، وذلك على عكس ما سارت عليه الأمور فى دولة المماليك ولا سيما عصرها الأخير حيث كانت الفتن والإضطرابات حول العَرْشِ هى السائدة، مما جعل الحكم غير مستقر حتى فى أحرج الأوقات ، يضاف إلى ذلك كراهية الرعايا لسلاطينهم من المماليك ، فقد ظل االمماليك طبقة ارستقراطية حربية منعزلة عن رعاياهم ، كما ظلت ثروات البلاد موزعة بينهم .

تلك هى الأسباب البعيدة، أما الأسباب المباشرة، فتتلخص فى سوء تدبير السلطان الغورى فى أمر النفقة وشحه فيها، وحرمان بعض جنودة منها، مما أثار المماليك ، غير أن الغورى ومن قبله قايتباى ، كانا معذورين من جانب واحد وهو سوء الحالة الإقتصادية، التى تعرضت لها البلاد عامة منذ تحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسى عقب الكشف الجغرافى ، وهذا فضلاً عن كثرة الحروب وما تستلزمه من نفقات، ولكنهما لا يعذران من ناحية إيثار فريق من الجنود على فريق آخر، وقد جاهد الغورى فى مكافحة النتائج التى ترتبت على الكشف الجغرافى، ولكن كفاحه لم يجد، فالدولة المملوكية قد انهارت فعلاً قبل سقوطها .

ولا شك أن الخيانات التى وقعت بين صفوف المماليك، كان لها أثر كبير فى التعجيل بسقوطها، وعلى رأس الخونة خاير بك وصنوه جان بردى الغزالى، وهما اللذان ظلا يعملان لهدم المماليك .

وخلال جهاد طومان باى الأخيرة وقعت خيانات أخرى منها خيانة جانم السيفى كاشف الفيوم، فقد تخلى عن طومان باى بعد وقعة الريدانية وانضم إلى سليم الذى صار يستشيره كما كان يستشير خاير بك وزميله وقد يقول بعض المؤرخين أن مثل هذه الخيانات الأخيرة لا قيمة لها بعد أن وضح

عجز الجراكسة عن دفع العثمانيين ، وإن دولة الجراكسة كانت تلفظ أنفاسها الأخير، ولكن الواقع لو لم تحدث هذه الخيانات ولا سيما خيانة خاير بك وابن مرعى لطال أمد النضال ، وربما انتهى بصلح وبقاء طومان باى على عرش مصر، نظير الإعتراف الاسمى بسيادة العثمانيين ، ولقد عرض سليم الصلح على طومان باى أكثر من مرة .

وبعد أن دانت البلاد المملوكية للعثمانيين، سافر سليم إلى بلاده بعد أن خرب مصر وأفقرها مالياً وعسكرياً وحضارياً، فقد جمع مهرة الصناع والفنانين، كما نهب ما استطاع حمله من الأثاث والتحف، وبدأ هذا عقب إعدام طومان باى، إذ اجتمع وزراء سليم فى مدرسة السلطان الغورى وطلبوا كبار التجار والوراقين والبنائين والنجارين والمرخمين والمبلطين والحدادين وغيرهم من أرباب الحرف ، وكتبوا اسماءهم وألزموهم بالسفر إلى القسطنطينية بل إن العثمانيين أمرو بإقتلاع رخام القلعة وما بها من أعمدة، فاستولوا كذلك على رخام المنازل والمدارس وعلى عدد كبير من خزائن الكتب والمدارس ثم قبض سليم على الناس وسخرهم فى حمل المنهوبات .

النظم العثمانية فى مصر

رأى السلطان سليم أن وفرة خيرات مصر وتنوع مواردها وكثرة سكانها وبعدها عن مقر الحكم فى القسطنطينية ما يغرى والياً ذا أطماع سياسية على الاستقلال بها عن الدولة العثمانية فوضع نظاماً معقداً يستهدف بقاء مصر ولاية عثمانية وتمثل هذا النظام المعقد فى وجود ثلاث هيئات يشترك بعضها مع بعض فى حكم مصر ويوازن بعضها بعضاً حتى لا تستبد بالحكم هيئة دون الهيئتين الأخريين وسرعان ما توارت شخصية السلطان سليم بموته سنة ١٥٢٠ وخلفه ابنه السطان سليمان القانونى أو المشرع فعكف على وضع تفصيلات لهذا النظام ولهذا يجب التمييز بين **أمرين** :

أولاً : قواعد عامة وسياسة عامة وضعت لمصرعلى عهد السلطان سليم .

ثانياً : تفصيلات مختلفة لهذا النظام وضعت على عهد السلطان سليمان وتمثل هذا النظام فى وجود والى، والمماليك، الحامية العسكرية العثمانية ولنعرض بشئ من الإيجاز لهذه الهيئات كل على حدة :

الوالى : هو نائب السلطان فى حكم مصر ورئيس الحكومة المصرية وكانت له عدة ألقاب منها والى مصر والباشا، حافظ مصر المحروسة، وحضرة الوزير، ذى الضمير المنير وكان مقره القلعة . **واختصاصاته عديدة متنوعة** : فهو ينفذ أوامر السلطان وله رياسة الديوان الذى يساعده فى الحكم ويرسل إلى السلطان الجزية السنوية المفروضة على مصر كما يرسل معتادات القسطنطينية مثل (مهمات بناء السفن وبعض المنتجات الزراعية) ويرسل أيضاً إلى الحجاز الخيرات النقدية والعينية

المرصودة على الحرمين الشريفيين فى مكة والمدينة وفقرائهما وكان على الوالى أيضاً أن يعد قوات مسلحة عثمانية ومملوكية إذا نشبت حرب بين السلطان وبين دولة أجنبية و كانت له رياسة الاحتفالات العامة وهو الذى يعلن الفرح والمناسبات السارة أو السعيدة مثل انتصار السلطان فى حروبه أو زواج بنات السلطان أو ختان أولاده وإلى جانب ذلك كانت تقع عليه الأعباء العادية مثل اقامة العدل وتوطيد الأمن ودفع مرتبات الموظفين فى الحكومة والنهوض بالزراعة وتقدم التجارة وتنظيم الأسواق، واعتماد ممثلى الأفرنج من القناصل .

وكان الوالى يصل أما بحراً من رشيد بطريق النيل حتى بولاق ميناء القاهرة النهرى وأما براً عن طريق سورية ويقام له حفل استقبال رسمى يشترك فيه الأمراء المماليك والعلماء وضباط الحامية والاعيان ومن اليهم ويذهب فى موكب فخم إلى مقره فى القلعة. وكان الوالى يشترى منصبه من الباب العالى فيشترى الالتزامات المفروضة على مصر ثم يجمع خلال الفترة التى يقضيها فى منصبه مبالغ تزيد عما دفعه للسلطان. وكانت للوالى موارد مالية فى مقدمتها مرتب سنوى ثابت يسمى ساليانة يصرف له من خزانة الروزنامة ، وله نسبة مقررة من الضرائب على بعض أصناف من المتاجر وعلى الجمارك وعلى تولية الأمراء والكشاف وعند نقل الالتزام من شخص إلى آخر. وكانت هذه الإيرادات تقيد فى خزانة الباشا المعروفة باسم خزانة ولى النعم .

وتتراوح مدة بقاء الوالى فى منصبه بين سنة وبين ثلاث سنوات ولا تزيد عن هذه الفترة إلا نادراً جداً. ولهذه المسألة – أى قصر مدة بقاء الوالى فى منصبه – جانبان أحدهما سياسى وا خر مالى. فالجانب السياسى يرجع إلى أن الباب العالى كان حريصاً على بقاء مصر ولاية فى نطاق الدولة

العثمانية فهو لم يكتف بوجود رقيب عتيد على تصرفات الوالى وكان هذا الرقيب العتيد يتمثل فى الأمراء المماليك وضباط الحامية، بل رأى عدم اتاحة الفرصة للوالى إذا طال به المقام فى مصر أن يكون له أنصار ويقوم بحركة انفصالية عن جسم الدولة العثمانية ومن ثم كان هذا التغيير المستمر للولاة العثمانيين وهى سياسة إذا عادت بالأمن على الدولة العثمانية إلا أنها أضرت بمصر ضرراً بليغاً. أما الجانب المالى فيتلخص فى أن الدولة كانت تعين كبار الموظفين وبعد مضى سنة تعيد النظر فى أمر كل موظف وهل يظل فى منصبه أو ينقل إلى جهة أخرى. وكانت المناصب تعطى فى الدولة العثمانية بالشراء أى بذل المال، وكانت عملية البيع والشراء مستمرة ولم يكن هذا النظام غريباً فى ذلك الوقت وكان معمولاً به فى بعض الدول الأوربية وقتئذ.

وعند انتهاء مدته كان الديوان يعقد جلسة فى هيئة محكمة عليا يحضرها أمراء المماليك وضباط الحامية العثمانية والأعيان ثم يقرر رجال المال فى الحكومة وهم الدفتردار ورجال الروزنامة أن الوالى كان نزيهاً فى تصرفاته وأنه أوفى بالتزاماته ودفع الأموال إلى مستحقيها "ولم تبق فى ذمته بارة واحدة ولا أردب ولا قدح واحد" ثم تحرر بذلك حجة شرعية يقدمها الوالى إلى السلطان .

وقد أصبحت مصر ثانى ولاية فى الدولة العثمانية بعد المجر وقد فتحت على عهد السلطان سليمان المشرع وكان السلطان يختار الوالى من بين الشخصيات الهامة التى لها من ماضيها وتجاربها مايؤهلها لشغل هذا المنصب فبعض الولاة كانوا قبل تعيينهم فى مصر يشغلون مناصب رئيسية فى حكم الأقاليم أو البلاط العثمانى بل كان منهم من شغل منصب الصدارة العظمى (رياسة الوزارة) وفى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حين كانت الدولة العثمانية مهيبة الجانب كان الوالى يتمتع بنفوذ كبير لم ينازعه فى

اختصاصه أحد من الأمراء المماليك أو ضباط الحامية وقد تغير هذا الوضع. منذ القرن الثامن عشر حين ضعفت الدولة العثمانية وتعرضت لهزات عنيفة من بعض الدول الكبرى.

المماليك : وأهم ما يلاحظ على سياسة السلطان سليم هو أنه احتفظ بنظام المماليك بعد زوال السلطنة عنهم، فلم يأمر باخراجهم من مصر بل أبقى عليهم كأمراء وذهب إلى أبعد من ذلك فجعلهم عنصراً هاماً في الشئون الحربية والإدارية في مصر تحت السيادة العثمانية وأمعن في هذه السياسة إلى حد أن ثاني وال عينه على مصر بعد الفتح العثماني هو خير بك الذي كان قد انضم إلى سليم ضد الغوري. ولم يكن الباعث لسليم على الاحتفاظ بخصومه السابقين حباً لهم أو احتراماً لميثاق عقده معهم ولكن كانت هناك عدة اعتبارات أملت على السلطان سليم اتباع هذا الأسلوب : فالمماليك قوة حربية ممتازة رأى توجيهها لخدمة الدولة العثمانية والدفاع عن البلاد، وهم يعرفون مصر جيداً لطول اقامتهم فيها وقد اعتاد المصريون الخضوع لهم، وإذا استمر المماليك في مصر عنصراً هاماً في إدارتها كانوا قوة مفيدة توازن سلطتي الوالي والحامية العثمانية ومن اختلاف هذه القوى الثلاث تستمر مصر خاضعة للدولة العثمانية. وكانت السياسة العامة للدولة العثمانية في حكم البلاد التي فتحتها تتحاشى قدر الاستطاعة أحداث تغييرات اساسية وانقلابات خطيرة في نظم هذه البلاد.

والمماليك على بكرة أبيهم أرقاء جئ بهم وهم فتية صغار من خارج مصر، من ايطاليا وفرنسا وإسبانيا وبلاد البلقان وبلاد القوقاز في آسيا وكذلك من مناطق سواحل البحر الأسود، وبحر آزوف وكانوا يدربون منذ نعومة أصفارهم في رعاية أمير مملوك وينسون ماضيهم ولا يعرفون لهم أباً غير سيدهم الأمير المملوك ولا وطناً سوى مصر، ويتلقون تعليماً عسكرياً قوامه

الفروسية بكل ما يحمل هذا اللفظ من معان فيتعلمون ركب الجياد الأصيلة ، واستخدام السيوف والخناجر والهجوم الخاطف على العدو والكر والفر والضرب السريع والنزال الفردى. وإلى جانب هذه الناحية العسكرية كانوا يتعلمون اللغة العربية والقرآن الكريم وأصول الدين ومبادئ الفقه الإسلامى والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وكان الأمير المملوكى يحرص على زيادة عدد اتباعه واقتناء الخيول المطهمة والمزركشة بالفضة والذهب .

وكان عدد الأمراء المماليك فى معظم الأحوال عشرين أميراً ويعين السلطان العثمانى من قبله أربعة من العثمانيين يشتركون فى الحكم والإدارة مع الأمراء المماليك وهؤلاء الأربعة يعينون فى الإسكندرية ودمياط والسويس ونائب الوالى ويسمى كتخدا. أما العشرون ا خرون فكانوا من أمراء المماليك ويطلق على كل منهم صنجق طبلخانة أى تدق له الطبول عند تحركاته لرفعة شأنه وعلو مركزه وكان كل منهم يحمل رتبة بك وميرلو (أى أمير لواء) ويصل إلى هذا المركز تبعاً لعصبيته وقوته التى تتمثل فى كثرة اتباعه. وكان الأمراء المحليون هم الذين يختارون الأمير الذى يرقى إلى هذه الرتبة فيصدر الوالى العثمانى فرماناً لتعيينه ومنحه الرتبة ثم يرسل الفرمان إلى السلطان للتصديق عليه ويقام حفل لهذه المناسبة .

وكان الصناجق المصريون يحكمون الصنجقيات أو المديريات المهمة فى مصر وكانت وقتئذ الشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة وجرجا ويجمعون فى أيديهم سلطات واسعة واختصاصات متباينة : من توطيد الأمن واقامة العدالة والضرب على أيدى العربان إذا تعرضوا للفلاحين والقبض على الأشقياء من المصريين والاهتمام بشئون الزراعة وتقوية جسور النيل ابان الفيضانات العالية والاشراف على جمع الضرائب ومراقبة جامعيها من الأقباط ونظراً لهذه السلطات الواسعة التى كان يتمتع بها الصناجق فكان الوالى

العثمانى يجرى حركة تنقلات بينهم فى فترات متقاربة خشية أن يستقل أحد منهم فى صنجقيته .

وكان للصناجق أتباع من مماليكهم الممتازين يطلق عليهم الكشاف وكان للكاشف اختصاصات مختلفة : كان أحياناً ينوب عن الصنجق فى حكم الصنجقية إذا ما آثر هذا الأخير الاقامة فى القاهرة على الذهاب إلى مقر وظيفته، وكان الكاشف أحياناً أخرى يحكم بعض المناطق من الصنجقية، كما كان يحكم إقليماً لم يبلغ مرتبة الصنجقية وتسمى كاشفية. ومن الكاشفيات الهامة فى الوجه البحرى دمنهور والمنصورة والمحلة ومنوف . أما أهم الكاشفيات فى الوجه القبلى فكانت الجيزة والفيوم والبهنسا ومنفلوط وأسيوط وطما وطهطا وسوهاج وفرشوط والأقصر .

وكان من بين اختصاصات الأمراء المماليك إمارة الحج وهى وظيفة من الوظائف الهامة ولا ترجع اهميتها إلى أنها تضفى على شاغليها الكثير من مظاهر الأبهة والتشريف بل كانت وظيفته ذات طابع حربى فالمحمل الشريف كان ينقل كل عام من مصر إلى الحجاز براً ويسافر فى رفقة المحمل عدد كبير من الحجاج كما تحمل معه أيضاً الصرة وهى عبارة عن الخيرات المرصودة للأماكن المقدسة فى مكة والمدينة والتى أجراها السلطان سليم وزادها عما كانت عليه أيام الدولة المملوكية فكان أمير الحج يحمل تبعات ضخمة فى حماية أرواح الحجاج والمحافظة على المحمل والأموال ولذلك كانت تخرج قوة حربية للحراسة ويبدأ مسيرها من شمال القاهرة إلى السويس ثم تتجه إلى الشاطئ الشرقى للعقبة والبحر الأحمر حتى يصل الركب إلى المدينة المنورة ولم يكن هذا الطريق الطويل آمناً إذا كان الركب يتعرض لخطر القبائل العربية ولذلك قسم الطريق إلى مناطق تختص كل قبيلة بمنطقة تتعهد بعدم الإخلال بالأمن أو التعرض للحجاج فى مقابل مبالغ تتقاضها من

الحكـــومة المصريـة وكـانت القبـائل لا تحـترم عهودهـا إذ تهـاجم المحمـل فـي منطقـــة قبيلة أخرى وتضطر القـوة الحربيـة المرافقـــة إلـى مقاتلـة القبيلـــة المهاجمـة .

ومن وظـائف الأمـراء الممـاليك حمـل الجزيـة السـنوية المفروضـة علـى مصر إلى القسـطنطينية وكـان إيـراد الحكومـة المصريـة ينفـق منـه علـى القوة الحربية فى مصر والمماليك والخيرات فـى الحجـاز والمنـافع العامـة فـى مصر والجزية كانت تحمل كـل سنة إلـى القسـطنطينية بمعرفـة أمـير مملوكـى يسمى صنجق الجزية وكانت هذه الوظيفة أقل مـن وظيفـة أمـير الحـج وكـان صاحبها يستقل سسفينة يبحر عليها إلى القسطنطينية ويأخذ الهدايا فى عودته .

الحامية العسكرية العثمانية :

وجد السلطان سليم أنه من الخطر ترك المماليك القوة الحربية الوحيدة فى مصر فأبقى فى البلاد حامية عثمانية منفصلة عن المماليك وهى عبارة عن فرق من أسلحة مختلفة مـن الجيش العثمـانى، تسـمى كـل فرقـة أو جـاق وكـان عـدد الأوجاقات سبعاً، ولكل أوجاق رئيس يسمى أغا ونائـب رئيس يسمى كتخدا وكان يطلق على اقدم ضـابط "بـاش اختيـار" وعلـى الضبـاط الشـوربجية أو الأجاقليـة وكـان كـل الاجـاق ممثـلاً فـى ديـوان الروزنامـة(١) بكـاتب يسـاعد فـى صـرف مرتبات أفراد الأوجاق . وقد تراوح عدد أفراد الحامية بمختلف فرقها بين اثنى عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً. ولم تكن الحامية العثمانية

---

(١) كانت مهمة هذا الديوان – كما سنرى – جمع الأموال الأميرية وانفاقها فى وجوهها المقررة المختلفة تحت اشراف الديوان الدفترى .

ذات صبغة تركية عثمانية خالصة فقد كانت تضم عناصر متباينة من العثمانيين والشوام والمغاربة والعرب والمماليك أيضاً.

وقد نظمت اختصاصات فرق الحامية العثمانية على النحو الآتى :

١ - **أوجاق متفرقة :** يعهد إليه المرابطة فى القلاع المصرية مثل الإسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وكانت القوات التى تعسكر فى هذه القلاع تشمل اسلحة المشاة والفرسان والمدفعية (الطوبجية). وكان لهذا الأوجاق اختصاص آخر هو تشهيل القوافل التى تسير من الصعيد والقاهرة والسويس حاملة الغلال وغيرها من الحاصلات والبضائع .... ويقوم هذا الأوجاق أيضاً يجمع البارود اللازم للشئون الحربية.

٢ - **أوجاق جاوشان :**(١) كانت اختصاصات هذا الأوجاق مالية اقتصادية تموينية يقوم أفراده بجمع الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها بعد ذلك إلى خزانة الروزنامة ويشرف على الشون التى تودع فيها الغلال. وكان المحتسب يعتبر من قوة أوجاق جاوشان وكان المحتسب يشرف على الأسواق ويراقب أسعار الحاجيات والموازين والمكاييل وما إلى ذلك .

(٣) أوجاق كوكللويان(٢) .

(٤) أوجاق تفنكجيان .

(٥) أوجاق جراكسة .

كان أفراد هذه الفرق الثلاث من الفرسان ويطلق عليهم لفظ الأسباهية ويراقب كبار أفرادها تصرفات الوالى ويقيم البعض الآخر فى الأقاليم

---

(١) الجيم المعطشة تنطق فى اللغة التركية شيناش . وإذا أضيف حرفا الألف والنون فى آخر اللفظ يعتبر جمعاً . وجاوشان من شويش وهى رتبة عسكرية أرقى من الأومباشى .

(٢) تنطق جونو للويان .

ويسمون الشوربجية(١) والمتولية(٢) ويشرفون على حكام الأقاليم الذين

.وا يرجعون إليهم فى كل أمر .

(٦) **أوجاق مستحفظان** : أى رجال الحفظ وكان هذا الأوجاق أقوى الأوجاقات وأكثرها عدداً وكان يسمى أوجاق السلطان، وكانت له رقابة على تصرفات الوالى ويتأكد من تنفيذ الأوامر التى يصدرها السلطان إلى الوالى. وكان من بين أفراد هذا الأوجاق أغا الانكشارية ويشبه اختصاصه مدير الأمن فى محافظة القاهرة حالياً .

(٧) **أوجاق عزبان** : أى رجال البحرية العسكريون وكان أفراده بإدارة ترسانة الإسكندرية والسويس وأمير البحرين ويختص بالأشراف على السفن النيلية التى ترد إلى ساحل بولاق ومصر القديمة وتحصيل الضرائب المقررة على الغلال والحاصلات التى ترد إلى هذين الميناءين النهريين، وكان أفراد هذا الإوجاق يشرفون كذلك على الملاهى والبهلوانات والحواة ومن إليهم . وكان لهم أيضاً اختصاصات الشرطة فكانت تتكون منهم مراكز الشرطة فى القاهرة.

ويتضح من هذا العرض السريع لاختصاصات فرق الحامية العثمانية أنها لم تكن قوة حربية مهمتها الدفاع عن البلاد فحسب أو الاشتراك فى حروب السلطان ولكنها اسهمت فى حكم مصر اسهاماً متنوعاً تناول ميادين متباعدة فكانت لها اختصاصات سياسية وإدارية مثل مراقبة تصرفات الوالى والصناجق والكشاف والمحافظة على الأمن ثم اختصاصات مالية مثل جمع

---

(١) الشوربجى كلمة تركية لها ثلاثة معانى : حائز لرتبة عسكرية تعادل نقيب (يوزباشى) أو أحد كبار رجال الحفظ فى الأرياف أو أحد كبار النصارى فى الأرياف .

(٢) أى الذين يتولون الاشراف على الأمن فى الأقاليم .

الضرائب، واختصاصات تموينية مثل الاشراف على نقل البضائع ومراقبة

الاسعار وحالة الأسواق .

ومما هو جدير بالذكر أن مصر لم تتعرض لهجوم مسلح عليها من الخارج منذ الفتح العثمانى لمصر فى مستهل القرن السادس عشر وحتى قدوم الحملة الفرنسية إليها فى نهاية القرن الثامن عشر، ولكن الحامية العثمانية اسهمت فى الحروب التى خاض السلطان غمارها خلال هذه القرون الثلاثة ونذكر منها الحرب التى نشبت بين الدولة العثمانية وبين جمهورية البندقية وانتهت بانتزاع جزيرة كريت من البنادقة سنة ١٦٦٩ والحرب التى قامت بين الدولة العثمانية والنمسا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر واشتركت فرق الحامية مع قوات المماليك فى هذا الصراع الدامى وارسلت قوات إلى رودس وأدرنة والقسطنطينية وسالونيكا وبلغراد، وكذلك الحرب الروسية التركية على عهد كاترين الثانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. ويلاحظ أيضاً أنه بمضى الأيام ظهر عنصر المماليك فى الحامية على حساب العنصر العثمانى .

الـــــديـوان

لم يكتـف السـلطان سـليم بهذه الهيئـات الثـلاث التـى اشـركها فـى حكـم مصر، ولكنه كون، قبل رحيله إلى القسطنطينية، مجلساً إدارياً يعـاون الوالـى فى حكم البلاد ويحول فى نفس الوقت دون استئثاره بالسلطة وكـانت عضويـة هذا المجلـس الإدارى مقصـورة علـى الضبـاط مـن رؤسـاء الحاميـة العثمانيـة والكتخدا (نائب الوالى) والدفتردار (مدير الشئون المالية) وأمير الحج .

ولمـا ارتقـى السـلطان سـليمان عـرش أبيـه فـى سـنة ١٥٢٠ وسـع مـن اختصاصات هذا المجلس وزاد فى عضوية اعضائه وحوله من مجلس إدارى إلى ما يشبه ديوان القسطنطينية. ومما يجدر ذكره هنا أن السلطان سليمان هـو الذى وضع للدولـة العثمانيـة نظمهـا وسـن قوانينهـا ومـن هنـا جـاءت تسـميته بالقانون أو المشرع. وهو الذىوضع تفصيلات نظم الحكم العثمانى فى مصر.

وقد شملت عضويـة الديـوان رؤسـاء فـرق الحاميـة العثمانيـة والامـراء الصناجقـة والدفـتردار وقـاض عسـكر افنـدى ورجـال الإفتـاء علـى المذاهـب الأربعـة (أبـى حنيفـة – الشـافعى – مـالك – ابـن حنبـل) وكبـار رجـال الديـن وتلحق بالديوان هيئة إدارية لتعاونه فى أداء أعماله منها المهردار، وهو حامل الأختام، والدويتدار، وهو حامل الدواة، وأكثر من فرمانجى لتحرير الفرمانـات وعـدد مـن الكتـاب والتراجمـة، ويجتمـع الديـوان أربـع مـرات فـى الاسـبوع، ويرأس جلساته الوالى أو الكتخدا أى نائبه، وفـى بعـض الأحيـان كـان الوالـى يتـابع جلسـاته من وراء سـتار كمـا كـان يفعـل سـلطان تركيـا فـى ديـوان القسطنطينية .

ويتولى الديوان إدارة شئون مصر، وفى مقدمـة اختصاصاتـه البت فـى

الاجراءات المالية واعمال الخزانة وضرائب الأرض وبحث القضايا الهامة. وإرسال أموال الحرمين. ولا يستطيع الوالى أن يبت فى مسألة إلا بعد أخذ رأى المختصين من الأمراء المماليك أو رجال الحامية أو الدفتردار أو قاض عسكر افندى وتعرض قرارات الديوان على الوالى فيصدر عليها أوامره بالموافقة ويوقع عليها بخاتمه .

وإلى جانب الديوان الكبير كان يوجد الديوان الصغير. وكانت اجتماعاته يومية وتعقد فى قصر الوالى ويحضره الكتخدا والدفتردار وبعض رجال الحامية وينظر فى المسائل الإدارية العاجلة التى لا تتحمل التأخير .

القضـــــاء

هيمن الأتراك العثمانيون على القضاء فى مصر هيمنة كادت تكون تامة فجعلوه تابعاً لهيئة القضاء الإسلامى فى الاستانة واختص السلطان نفسه بحق تعيين كبير القضاة فى مصر يسمى قاضى عسكر أفندى. وكان تركياً حنفياً أى من اتباع الإمام أبى حنيفة، لأن الاتراك العثمانيين كانوا يعتنقون مذهب هذا الإمام، وأصبحت مناصب القضاء مقصورة على المذهب الحنفى ومع ذلك فقد وجد مفتون على المذاهب الثلاثة الأخرى (الشافعى ومالك وابن حنبل) يرجع إليهم القضاء عند اللزوم. وفى بدء الحكم العثمانى كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضى القضاة فى تطبيق العدالة فى مصر وكانوا هم وقاضى عسكر افندى لا يعرفون اللغة العربية فاستعانوا بالتراجمة، ثم أصبح قاضى عسكر افندى يعين قضاة الأقاليم وكانوا من المصريين وبذلك قل عدد القضاة العثمانيين فى مصر وان ظل قاضى القضاة عثمانياً . وعلى ذلك لم يكن للوالى حق تعيين قاض عسكر افندى أو قضاء الأقاليم فالقضاء فى مصر كان مستقلاً عن الوالى .

وكان القضاة فى مصر يختصون بنظر قضايا الأحوال الشخصية والقضايا المدنية والجنائية وكانت احكامهم نهائية إلا فى القضايا الكبرى المتعلقة بالشخصيات الكبرى أو الاحداث الخطيرة فإنها كانت قابلة للطعن بالنقض وكانت المشاكل القضائية الهامة تعرض على الديوان الكبير لابداء الرأى فيها. وإلى جانب الفصل فى القضايا كانت للقضاة اختصاصات إدارية مثل الاشراف على إدارة الاوقاف والمرتبات الخيرية المخصصة لاهل الحرمين فى مكة والمدينة والعلماء والمجاورين بالأزهر وتقسيم التركات والتصرفات العقارية وتسجيل حجج البيع والشراء . وكان الديوان الدفترى

، وهو ديوان المالية، يحول إلى قاضى عسكر افندى عرائض الشكوى الخاصة بالملتزميين لبحثها وإبداء الرأى فيها من الناحية القانونية فيأخذ به الوالى العثمانى. وكانت تصدر عن قاضى عسكر افندى بعض وثائق هامة منها :

١ - حجج شرعية يثبت فيها صرف مرتبات الجنود وتسجل بها حالات انتقال الالتزامات .

٢ - اعلامات شرعية وتحتوى على أحكام قاضى عسكر افندى فى مسائل الالتزام .

٣ - إشهادات شرعية تسجل فيها حالات معينة كانشاء سفن نقل الغلال إلى الحرمين أو حماية اليهود من استبداد الانكشارية .

٤ - تمكينات شرعية تسجل فيها بعض المرتبات والمنح أو ينص فيها على حق الموظفين فى وظائفهم .

وكان قاضى عسكر أفندى وسائر القضاة يحصلون على مناصبهم بطريق الشراء ثم يتولون بعد ذلك استرداد المبالغ التى دفعوها. فكانوا يأخذون الرسوم المقررة على التحقيقات والقضايا ومعاينة التركات وتقسيمها ورسوم الحجج وتدوين الاشهادات التى تصدر عن المحاكم. وناحية الشراء للمناصب القضائية تفسر لنا قصر مدة بقاء قاضى عسكر افندى فى منصبه فكانت الدولة العثمانية تغير شاغل هذا المنصب بعد فترة قصيرة وقد حدث لغط كثير عن ذمم بعض القضاة وقبولهم الرشا وشططهم فى فرض الرسوم وانحراف احكامهم عن العدالة وقد ظهرت هذه المساوئ بشكل واضح عندما ضعفت الدولة العثمانية وقد حاولت التدخل لمنع هذا الاختلال والعمل على احقاق العدالة ولكن لم تسفر محاولاتها عن نتيجة ايجابية فى معظم الأحوال نظراً

لاضطراب الاحوال في مصر. وكان قضاى عسكر افندى بحكم منصبه عضواً في الديوان ويشترك في محاسبة الوالي في آخر عهده بالولاية. كما كان يشرف على القضاة في الاقاليم .

الإدارة الماليــة

اهتمت الدولة العثمانية اهتماماً خاصاً بالإدارة الماليـة وضبـط حساباتها وأشرفت عليها عدة عناصر: الديوان الدفترى وديوان الروزنامـة وبعـض العسكريين من رجال الحامية العثمانية .

أولاً : الـديوان الدفتـرى :

بمثابــة ديــــوان الماليـــة ويرأســــه الدفتــــردار أى صـاحب الشئون المالية وكان عادة من الصناجق المصريين وله الأشراف على كافـة الشئون المالية فى مصر :

فـيراقب تحصيـل الأمــوال الأميريـة ويراقـب صرفهـا فـى الأوجـه المخصصـة لها مثل ارسـال الجزيـة إلى السلطان وتسمى خزينة السـلطان ويرسل معتادات الآستانة وصرة أهالى مكة والمدينة ومهام الحرمين كما كـان يحاسب الوالى عند انتهاء مدة ولايته .

وله مرتب ثابت وعوائد مختلفة على أصحـاب المرتبـات الثابتـة وعلـى بعض ايرادات الوالى وللدفتردار وكيل ومهردار أى حـامل اختـام وموظفـون يعملون تحت إدارته يسمون الافندية .

والديوان الدفترى هو عصب النظام المالى القائم علىنظـام الالـتزام فكـان الديــوان يتــولى جميع عمليات الالتزام : يطرح مقاطعـات الالتزام فــى المـزاد، ويقرر اسم الشخص الذى يرسو عليه المزاد، وترفع إلى الديوان الدفترى أوراق الملتزمين من ديوان الروزنامة التابع له، فيقوم بفحصها ويضيف إليها البيانـات اللازمة ثم يحولها بدوره إلى الوالى فى "عرضحال" خاص.

ثانياً : ديوان الروزنامة :

هو الديوان الذى يقوم بتحرير الحسابات فى الدفاتر الرسمية وضبط هذه الحسابات وهو يتبع الديوان الدفترى ويقوم بالعمل فيه كتبه يطلق عليهم لفظ الأفندية. وكان الأفندى يعمل فى هذا الديوان مدى الحياة ويرثه فى عمله ابنه بعد التمرن على أعمال الروزنامة. والمدير العام لديوان الروزنامة يسمى الروزنامجى، ويعينه الوالى بعد موافقة شيخ البلد والصناجق ورؤساء الأوجاقات، وللروزنامجى مساعدون أهمهم أربعة يسمى كل منهم قلفة(١)، ومن هؤلاء القلفاوات يتكون مكتب مدير الروزنامة، ويشرف القلفاوات على أعمال الحسابات التى يقوم بها الأفندية ويراجعون السجلات التى تحت أيديهم.

ويضم ديوان الروزنامة عدة أقسام تسمى **مقاطعات** يرأس كل منها أفندى يسمى **مقاطعجى**. وتوزع أعمال ديوان الروزنامة على هذه المقاطعات، ويوجد بها سجلات عديدة متنوعة منها سجلات معتادات الآستانة وسجلات أموال الحرمين وسجلات الغلال المخصصة للوالى وللدفتردار ولقاضى عسكر افندى وللأمراء الصناجق، وسجلات الغلال المطلوبة من أقاليم الوجة القبلى وسجلات التزامات الأراضى الزراعية وسجلات التزامات الجمارك وسجلات الأراضى الموقوفة وسجلات الاحسانات. وكانت بالمقاطعات أيضاً السجلات العسكرية وهى الخاصة بمرتبات العسكريين والمرتبات الاضافية التى تمنح لهم. وكان يطلق على هذه السجلات "مواجبات العسكر وجامكياتهم"(٢) وكان

(١) قلفة كلمة تركية معناها كبير البنائين أو أقدم الجوارى ومعناها هنا أقدم الكتاب أو أقدرهم فى ديوان الروزنامة .

(٢) مواجبات العسكر معناها المرتبات الثابتة التى يتقاضاها الجنود وجامكية بمعنى علوفة أو الأغذية أو بدل الأغذية .

يعاون أفندية الروزنامة فى تشهيل مرتبات العسكريين أفندية الاوجاق :

السبعة الممثلين فى ديوان الروزنامة

وهناك طوائف أخرى من موظفى ديوان الروزنامة منهـا التذكره جى: وكان يختص بتحرير تقاسيط الالتزام ويحرر التذاكر الديوانية عن المرتبات المختلفة والمخصصات الأميرية والتاريخجى وهو : الذى يضع تاريخ كل مستند رسمى وروزنامة جى وإردات وهو: الذى يقيد وإردات الوالى العثمانى وأمين صناديق وهو : بمثابة أمين محفوظات الروزنامة والمهردار وهو : حامل اختام الروزنامة .

ثالثاً : نصيب العسكريين العثمانيين فى الإدارة المالية :

مر بنا أن الوظيفة الرئيسية لإحدى فرق الحامية العثمانية وهى أوجاق جاوشان تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزانة الروزنامة. كما كان من بين واجبات بعض الفرق العسكرية الأخرى مساعدة الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين .

الــزراعـــــة

- إهمال الحكومة للقطاع الزراعى :

الزراعة هى عصب الاقتصاد القومى فى مصر فكانت منذ أقدم العصور ولا تزال حتى إلى اليوم أهم مرفق فى حياة البلاد الاقتصادية، وفى عهود الإصلاح تظفر الزراعة بأوفى نصيب من عناية الحكومة فتحفر الترع وتقيم السدود وتنظم استخدام مياة الرى فتزداد مساحة الأراضى المزروعة وتزداد كثافة الإنتاج الزراعى وفى عهود التأخر تغير الصحراء على الأراضى الزراعية فتنكمش مساحتها ويغدو الإنتاج الزراعى قليلاً .

ولم يكن للحكومة فى مصر فى العهد العثمانى سياسة زراعية تستهدف زيادة الإنتاج أواستغلال الأراض استغلالاً زراعياً منظماً بل على العكس أرهقت الحكومة الفلاحين من أمرهم عسراً. بما فرضتـه عليهم من ضرائب عديدة مختلفة الاسماء والفئات. وعجزت عن بسط حمايتها على الفلاحين والحقول من غارات القبائل العربية الضاربة فى مناطق الصحراء وعلى حافة المناطق الزراعية عندما يحين موسم الحصاد، كما أن الحروب التى يشنها الأمراء المماليك بعضهم على بعض كانت سبباً فى اجتياح حقول الفلاحين وهلاك مزارعهم .

وكانت تستخدم فى الزراعة الأساليب البدائية البسيطة والآلات الأولية مثل المحراث والنورج والزحافة وما إلى ذلك. وكان نظام الرى السائد هو رى الحياض فكانت الأراضى - لا تزرع أكثر من مرة واحدة فى السنة - ولذلك كانت محاصيل مصر شتوية مثل القمح والشعير والبصل والكتان أما القطن الذى كان يزرع فكان من نوع ردئ يستهلك فى المنازل والمناسج

المحلية وكانت الزراعة تقوم على المجهودات الفردية .

٢ - ملكية الأراضى الزراعية :

فتح السلطان سليم الأول مصر عنوة فأصبح هو المالك لجميع أراضيها طبقاً لمبدأ فى الفقة الإسلامى يقول أن الأرض التى تفتح عنوة تصبح ملكاً لفاتحيها، أما إذا فتحت صلحاً فإنها تكون مناصفة بين فاتحها وبين أصحابها الأصليين، ولم تكن ملكية السلطان سليم لجميع الأراضى الزراعية شيئاً جديداً بالنسبة لمصر فقد كانت النظرية السائدة فى مصر منذ أقدم العصور أن الحاكم هو المالك لجميع الأراضى وكان مبعث هذه النظرية أمرين :

أولاً : توالى الفتوح الأجنبية على مصر وكان الفاتح يدعى ملكية الأرض بحق الفتح وقد فعل هذا البطالمة والرومان والعرب والسلاطين المماليك والعثمانيون وكذلك انتحل محمد على نفسه حق ملكية الأراضى الزراعية على أساس أنه ممثل السلطان ونائبه فى مصر .

ثانياً : أهمية الدور الذى تقوم به السلطات الحكومية فى القطاع الزراعى فى مصر من حفر الترع وإقامة القناطر والاشراف على توزيع مياة الرى فإذا لم تقم الحكومة فى مصر بهذه الاعباء "تتدهور الزراعة" .

ولكن التطبيق العملى لهذه النظرية - ونعنى بها ملكية الحاكم لجميع الأراضى الزراعية - كان ضرباً من المستحيلات، لأن الحاكم لا يستطيع زراعة هذه المساحات الشاسعة من الأراضى بنفسه مهما كانت إمكانياته . فكان يتصرف فيها على نحو من **النحوين الآتيين :** أما أن يوزعها على اتباعه وأعوانه ورجال حاشيته فى مقابل الخدمات التى يقومون بها، وهؤلاء يقسمونها على اتباعهم الذين يقسمونها مرة أخرى على آخرين ويستمر التقسيم حتى تقسم الأراضى نهائياً على الفلاحين الذين يقومون بزراعتها ويدفعون عنها الضرائب وأما أن يقسمها الحاكم بين الزارعين فيكون لهم حق

استثمارها فى مقابل دفع الضرائب المفروضة عليها.وتدفع هذه الضرائب إما نقداً وإما عيناً أى من نفس المحصول .

ولما فتح العثمانيون مصر وجدوا أن الأرض الزراعية فيها مقسمة إلى أنواع مختلفة هى :

١ – **الرزق السلطانية وهى** : الأراضى الموقوفة على الحرمين فى مكة والمدينة وعلى مختلف وجوه البر من الأهالى المستحقين .

٢ – **الرزق والاقطاعات الجيشية وهى** : الأراضى الموقوفة على الأمراء والجنود ولوجوه البر .

٣ – **رزق الأهالى** : المحبوسة على وجوه البر .

٤ – أراضى يحوزها الأفراد بالشراء من بيت المال .

٥ – **الأراضى الديوانية** : وهى أغلب أراضى مصر والتى يجمع منها خراج البلاد .

وقد عنى العثمانيون بحصر هذه الأراضى وبخاصة الأراضى الديوانية وتقدير الضرائب المقررة عليها وتحديد أقساطها وفى مستهل الحكم العثمانى لمصر كانت الحكومة تتولى جمع الضرائب من الفلاحين تحت اشراف حكام الأقاليم من الصناجق والكشاف ولكن بعد أن ضعفت الدولة العثمانية وتضاءل نفوذ الوالى والحامية العثمانية قلت حصيلة الضرائب فلجأت الحكومة إلى اتباع أسلوب آخر فى جمع الضرائب يضمن لها الحصول عليها بأيسر السبل

---

(١) الوقف : هو تخصيص دخل الأرض لغرض معين تبعاً لإرادة من يمتلك الأرض ويسمى الواقف وقد يخصص الواقف دخل الأراضى الموقوفة على عمل أو أعمال خيرية يحددها الواقف وهذا ما يسمى الوقف الخيرى، وقد يخصص الواقف الإيراد لأفراد عائلته فإذا انقرض المستحقون يصرف الإيراد فى وجة من وجوة الخير والبر وهذا ما يسمى الوقف الأهلى ومن خصائص الوقف أن الورثة لا يستطيعون التصرف فى الأرض بالبيع أو الرهن أو التبرع أو اى وجة من وجوة التصرف وكانت أراضى الوقف معفاة من الضرائب .

وكان هذا الأسلوب هو نظام الالتزام وهو نظام قديم في مصر .

٢ - نظام الالتــزام

وتبعاً لهذا النظام كانت الحكومة لا تتولى تحصيل الضرائب المقررة على الأراضى الزراعية من الفلاحين وإنما كانت تعطى هذا الحق أما بطريق الاتفاق وإما بطريق المزايده وهو الأكثر شيوعاً لبعض الأمراء الأثرياء من المماليك أو العثمانيين من رجال الحامية أو التجار أو مشايخ العرب فيلتزمون تحصيل الأموال من الفلاحين فى منطقة معينة تسمى دائرة الالتزام وكان الملتزم يدفع للحكومة المال المقرر لسنة واحدة عن دائرة التزامه مقدماً .

وعندما يرسو المزاد على الملتزم كان الديوان الدفترى يحرر له عقد الالتزام أو تقسيط الالتزام وتحدد فيه دائرة التزامه والأموال المقررة عليها ويصب إليه أن يعامل الفلاحين بالرحمة والعدل كما يرفق بهذا التقسيط أمرا يسمى (قاميك) وهو عبارة عن خطاب موجه للأهالى المقيمين فى دائرة الالتزام كى يؤدوا له الضرائب المفروضة عليهم وكانت تحرر بها تذاكر ديوانية . وهى تحدد الأموال المفروضة على الأراضى وتسلم إلى سكان كل قرية حتى لا يطلب منهم الملتزم أكثر مما هو مفروض عليهم ... وكان الملتزم يقسم الأرض الواقعة فى دائرة التزامه بين الفلاحين بنسب تتفاوت مساحتها بين فدان وعشرة أفدنة ويعطى كل فلاح المساحة التى يستطيع زراعتها حسب امكانياته المالية والجسمانية كما كان الملتزم يحتفظ لنفسه بقطعة أرض تسمى الوسية يزرعها الفلاحون لحسابه الخاص وبطريق السخرة ويستولى على غلاتها وكانت أرض الوسية معفاة من الضرائب وتعتبر منحة من الحكومة للملتزم لمساعدته فى القيام بواجبات الالتزام وضيافة موظفى الحكومة عند مرورهم فى دائرة التزامه .

وكان الالتزام يعطى أول الأمر لمدة سنة أو بضع سنين ثم أصبح يعطى مدى الحياة . وعند وفاة الملتزم تنتقل إلى ورثته الأراضي التي كانت في دائرة التزامه إذا دفعوا مبلغاً من المال يسمى الحلوان . أو تطرح أراضى الالتزم فى المزاد وترسو على ملتزم جديد .

أما الفلاح فكان يحوز الأرض التى يزرعها ولكنه لا يمتلكها فلا يحق له أن يبيعها أو يرهنها وكان إذا تأخر فى دفع الضرائب تنزع منه الأرض وتعطى لغيره، وإذا مات الفلاح يرث أبناؤه حق حيازة الأرض وحق زراعتها طالما كان فى مقدورهم زراعتها ودفع الضرائب المقررة عليها وكان الملتزم فى العادة لا يعارض فى هذا الإجراء وهكذا نرى أنه إذا لم يكن للملتزم ورثة أو توقف عن دفع الضرائب عادت أراضيه للحاكم وكذلك الفلاح إذا لم يترك ورثة أو توقف عن أداء الضرائب عادت أراضيه للملتزم .

وكانت دائرة الالتزام فى بعض الأحيان واسعة رحبة تشمل عدة قرى وكان الملتزم يشرف على هذه القرى الواقعة فى دائرة الالتزام بمساعدة بعض الأفراد منهم :

١ - شيخ البلد : يشرف على الأراضى ويراقب أهل القرية ويقوم بدور الوسيط بين الملتزم وبين الفلاحين فيبلغ أوامر الملتزم إلى الفلاحين ويعرض طلباتهم عليه ويحل محله أثناء غيابه. وكان شيخ البلد يخطر الملتزم باسماء الفلاحين الذين يمتنعون عن تنفيذ الاوامر وكان لهؤلاء المشايخ أرض معفاة من الضرائب ولهم عوائد مقررة يأخذونها من الملتزم وإذا عين الملتزم أكثر من شيخ كان أكبرهم يسمى شيخ المشايخ .

٢ - الشاهد : يمسح الارض ويحفظ سجل الأراضى الذى تدون فيه مساحتها واسماء مستثمريها من الفلاحين وفئات الضرائب المفروضة عليها .

٣ - الصراف : يجمع الضرائب النقدية والعينية طبقاً للتوزيع المدون

بسجل الشاهد ويسلم هذه الضرائب إلى الملتزم .

٤ - الخولي : يعرف حدود القرية وحدود كل تكليف (أى ملكية) ويفصل فى المنازعات التى تقوم فى هذا الشأن كما أنه يقوم بإدارة أراضى الوسية .

٥ - المشد : ينفذ العقوبات على الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب أو يرفضون العمل فى أرض الوسية وكان الجلد هو العقوبة الشائعة فى هذا الوقت التى يتعرض لها الفلاحون .

٦ - الكلاف : يقوم بخدمة مواشى الوسية ومواشى الفلاحين التابعين لدائرة الالتزام وكان لكل قرية امام ونجار وحداد وحلاق يعيشون على ما يدفعه لهم الفلاح فى موسم كل محصول من المحصولات الزراعية ويقدمون خدماتهم لجميع أفراد القرية .

ويؤخذ على نظام الالتزم أن الفلاح قد فقد الرغبة فى العمل بشكل جدى ولم يكن يبذل قصارى جهده فى الإنتاج وتحسين الأرض والنهوض بالزراعة لأنه كان يعرف ان الأرض التى يزرعها ليست ملكاً خالصاً له وقد قيل أن سحر الملكية يحول التراب تبرا. وهناك كتاب يسمى هز القحوف[1] فى شرح قصيد[2] ابى شادوف للشيخ يوسف محمد خضر الشربينى وقد أعطى المؤلف الفلاح المصرى اسماً رمزياً هو أبو شادوف ويوضح هذا الكتاب فى اسلوب تهكمى لاذع قلة تدين الفلاح وانغماسه فى الجهل الدينى وهو يعطينا صور عن الفلاح فى ذلك الوقت .

---

(١) القحوف : جمع لحف وهو العظم الذى فوق الدماغ وهو أيضاً اناء من خشب على مثاله أو لبدة تغطى بها الزلبن .

(٢) القصيدة جمع قصيدة من الشعر .

، كان الفلاح فى ظل نظام الالتزام يؤدى الضرائب نقداً وعيناً وعملاً.
الضرائب النقدية والعينية فيما يقدمه الفلاح للملتزم من أموال
في مقابل حيازة الأرض. أما الضريبة التي يؤديها عملاً فكانت
الخدمة التي يقوم بها فى أرض الوسية .

وكاد الفلاح فى ظل نظام الالتزام أن يصبح رقيقاً فالملتزم كان يفرض على الفلاح رقابة دقيقة خشية أن يهاجر الفلاح إلى منطقة أخرى ولا يجد الملتزم الأيدى العاملة التى تزرع الأرض ولا يجد من يقدم له الضرائب وقد ينتهى الأمر بالملتزم إلى أن يفقد حق الالتزام .

ولكن من ناحية أخرى اكتسب الفلاح نوعاً من الضمان وأصبح له الحق فى زرع جزء معروف من الأرض وأصبح هذا الحق متوارثاً. فوجدت مصلحة مشتركة بين الفلاح والملتزم فمصلحة الملتزم كانت تتطلب مساعدة الفلاح ومراعاة حالة الفيضان وألا يرهقه من أمره عسراً فى زراعة أرض الوسية حتى يستمر الفلاح مقيماً فى أرضه ولا يضطر إلى الهجرة من القرية وفى نفس الوقت كانت مصلحة الفلاح أن تتوفر له أسباب الاستقرار فى أرضه .

وقد عاد نظام الالتزام على الحكومة بعدة فوائد منها أنه ضمن زراعة الأراضى واستثمارها كما أنه كفى الحكومة عناء الاتصال بالفلاحين اتصالاً مباشراً وأصبحت تتصل بفئة قليلة العدد نسبياً هى فئة الملتزمين .

وقد أفاض المؤرخون فى الكتابة عن مساوئ نظام الالتزام والواقع أن المساوئ التى كشف عنها تطبيق هذا النظام فى العهد العثمانى لم تكن نابعة من نظام الالتزام نفسه بل كانت نتيجة حتمية لحالة الفوضى والاضطراب والحروب الأهلية وظلم الحكام عندما ضعفت الدولة العثمانية وكان من هذه المساوئ السلطة المطلقة التى أصبحت للملتزم على الفلاحين

حتى غدا الملتزم حاكماً بأمره فى دائرة التزامه وأمعن فى ظلم الفلاحين وفرض عليهم ما شاء له جشعه من ضرائب واتاوات ولم يكن الملتزم يعبأ بسلطة أخرى فى دائرة التزامه غير سلطته. تضاف إلى هذه المساوئ المزايدات الصورية التى حدثت فى عملية الالتزام وأعفاء الاتباع والمحاسيب من الحلوان وتحويل الالتزام قسراً وبدون وجه حق من شخص ضعيف إلى آخر قوى ذى عصبية وجاه. وكان الفلاح يدفع أكثر مما هو مقرر عليه من الضرائب .

٤ - ضرائب الأراضى الزراعية :

وكانت أهم الضرائب التى تجمع من الأراضى الزراعية هى :

أولاً : الميــــرى :

وهى الضريبة المقررة على الاطيان وسميت ميرى لأنها تذهب إلى الحكومة أو - الأمير- فلفظ ميرى مأخوذ من أمير وكانت هذه الضريبة أهم مورد للحكومة تعتمد عليه في تمويل خزائنها. وقد زيدت هذه الضريبة عدة مرات على تعاقب السنوات وأطلقت على الزيادة الأولى لفظ برانى لأنها خارجة عن الميرى، وأطلق على الزيادة الثانية لفظ مضاف، وعلى الزيادة الثالثة فرط ثم عدة مضافات أخرى، وكانت هذه الضريبة تجمع من الفلاحين على اقساط شهرية على عهد السلطان سليمان المشرع ثم قررت الحكومة أن يتم تحصيلها على قسطين سنويين أحدهما فى الصيف وا خر فى الشتاء. ومن حصيلة هذه الضريبة كانت تدفع مرتبات الجنود ونفقات المشروعات العامة كشق الترع وإقامة الجسور ابان الفيضانات الغالية، ثم نفقات أمير الحج وصرة الحرمين. وما يتبقى من حصيلة هذه الضريبة كان يضاف إلى خزينة السلطان التى كانت تتكون من فائض ضريبة الميرى ومن المبالغ المفروضة على أصحاب الوظائف ومن رسوم الجمارك ومن جزية أهل الذمة. ولم تكن

خزينة السلطان توجه كلها إلى السلطان فكان "يخصص جزء منها لتزويد فقراء الأراضى المقدسة فى الحجاز بالأموال والغلال ولتعمير بعض المساجد والتكايا وبناء السفن وشراء معتادات ا ستانة، وما يتبقى بعد ذلك يرسل إلى السلطان ويتضح من هذا أن السلطان لم يسرف فى استغلال مصر من الناحية المالية كما أن مصر لم تكن على عهد الحكم العثمانى مزرعة للقسطنطينية كما كانت مصر مزرعة لروما على عهد الحكم الرومانى .

ثانياً : مال الكشوفية :

هى ضريبة يقوم الكشاف بجمعها من بعض القرى وتخصص حصيلتها لمواجهة نفقات الإدارة المحلية فى الاقاليم مثل مرتب الكاشف ومرتب العسكر المحليين وترميم الجسور .

ثالثاً : رسوم الجاوشان :

هى رسوم مقررة لافراد أوجاق الجاوشان فى مقابل قيامهم بجمع اقساط المال الميرى من الملتزمين والكشاف. وكان ديوان الروزنامة يصرف لهم تذاكر الجاوشان وتكتب فيها البيانات عن الضرائب المستحقة عن كل أقليم .

رابعاً : مال كوركجيان :

هى ضريبة يدفعها السكان فى القرى لتنظيف العاصمة وازالة الأتربة منها كما ينفق من حصيلتها على ترميم الجسور. ويلاحظ أن لفظ كورك معناها أداة الجرف .

خامساً : مال الحماية :

هى اسم على غير مسمى فهى ضريبة فرضت على أراضى الأوقاف يدفعها المستحقون فى مقابل حماية أراضيهم من العدوان. وكان الملتزمون يشرفون على أراضى الأوقاف وينفقون جزءاً من إيرادها على المستحقين أو وجوه البر المخصصة لها والجزء الباقى يحتفظون به لأنفسهم. وكان يشترك

معهم فى ذلك بعض رجال الدين .

سادساً : ميرى الاوقاف :

كان يفرض على جهات خاصة محبوسة على اوقاف الدشيشة الكبرى والدشيشة المحمدية والدشيشة الاحمدية والدشيشة المرادية والدشيشة هى طعام يتخذ من قمح مرضوض والدشيشة الكبرى عبارة عن وقف يرجع إلى عهد السلطان قايتباى من سلاطين الدولة المملوكية أما الدشايش ا خرى فترجع إلى العهد العثمانى وكان الملتزمون يجمعون إيراد هذه الأوقاف وينفقونها فى الوجوه المخصصة لها مثل أطعام أهل الحرمين وكذلك الفقراء فى شهر رمضان والاعياد والمواسم الإسلامية .

وفى جهات الدلتا كانت كل هذه الضرائب تدفع نقداً وبخاصة ضريبة الميرى أما فى الوجه القبلى اعتباراً من بنى سويف إلى أسوان فكانت الضرائب تدفع عيناً أى من نفس المحصول .

سابعاً : ضرائب متنوعة :

كانت هناك ضرائب متنوعة تفرض أما على الحرف وأما على الأفراد مثل الضرائب المفروضة على المطربين والمطربات والموسيقيين والحواة والرسوم المفروضة على الحانات والسفن والسلع أمام أبواب المدن وفى أسواق المدن وعلى الصيد والملح وعلى خروج الأجانب وكذا دخولهم وضرائب لأختراق مناطق يسيطر عليها اللصوص وقطاع الطرق كما كانت هناك ضرائب أخرى على بعض الموظفين فى مقابل انتفاعهم ببعض الامتيازات مثل ضريبة الكشوفية الصغيرة المفروضة على الكشاف وعلى الدفتردار والاوجاقات وعلى بعض افندية الروزنامة وكان يحصل من الباشا نفسه (مال ميرى) فى مقابل انتفاعه ببعض الالتزامات وكانت هناك ضريبة الجزية أو الجوالى وهى مفروضة على الذكور البالغين من النصارى واليهود

وكان يحضر إلى مصر كل سنة مندوب من قبل السلطان لجمعها .

ثامناً : ضرائب وقتيـة :

كانت الحكومة تنتهز فرصة انتشار الاوبئة والطواعين فـي مصـر فـرض ضريبة على دفن الموتى كما كانت تفرض في بعض الأحيان ضريبة على رجال الأدب .

لم تكن الحكومة تراعى العدالة بين دافعى الضرائب ولا وقت جبايتهـا ولا اختيار الوقت المناسب لقدرة المموليـن ولا مراعـاة المسـاواة فـى جمـع الضرائب. بل كان تقدير الضرائب وتحصيلها منوطين برغبة الحكام وحاجتهم إلى المال ولذلك اتسم جمع الضرائب فى هذا العهد بألوان من الظلم والقسوة.

ويلاحظ أنه لما ضعفت الدولة العثمانية واستبد الأمراء المماليك بـالحكم امتنعو فى بعض السنوات عن ارسال الجزية إلى السلطان فكان الأخير يرسـل مندوبين عنه إلى مصر للإشراف على ارسالها وقد أرسل فى بعض الأحيان حملات حربية لتأديب المماليك وأرغامهم على ارسال الجزية وكـان المماليك أثناء القرن الثامن عشر يفرضـون علـى التجـار الاجـانب غرامـات أو مغـارم استبدادية لا يستطيعون الامتناع عن دفعها وفزعوا إلى حكوماتهم يشكون إليه تصرفات المماليك معهم .

الصناعة

تأخرت الصناعة في مصر عما كانت عليه في عهد دولة المماليك الجراكسة ويرجع ذلك إلى أن السلطان سليم قد أمر بترحيل الصناع المصريين البارزين في الصناعات المصرية إلى القسطنطينية ليقوموا على تعليم الاتراك أسرار صناعتهم، فكان إرتحالهم نذيراً باضمحلال الصناعة المصرية. كما كان من أسباب تدهور الصناعة انتقال مركز الحكم ومقر الخلافة من القاهرة إلى القسطنطينية فقلت مظهر الترف وأبهة الحكم وتأخرت الصناعات الخاصة بالكماليات. ولم يظفر القطاع الصناعي باهتمام السلطات الحكومية في مصر اللهم إلا تحصيل الضرائب من أرباب الحرف والصناعات وكان الجيش والاسطول في عهود الاستقلال التي سبقت الفتح العثماني أساساً لكثير من الصناعات الحربية مثل الاسلحة والدروع والخيام وصناعة بناء السفن فلما فقدت مصر استقلالها اضمحلت الصناعات الحربية تدريجياً يضاف إلى هذه الأسباب فقر السواد الأعظم من الشعب المصري وبالتالي هبوط مستوى المعيشة وضعف القوة الشرائية عند المصريين .

وكان من أهم الصناعات التي بقيت في العهد العثماني غزل ونسج الأقمشة القطنية والصوفية والكتانية وصناعة اللبد التي يستعملها الفلاحون وصناعة الأكلمة والاشرعة للمراكب والحصر واستخراج الزيوت من بذور الخس والقرطم والسمسم والكتان وكان الزيت يعصر في معاصر يديرها الحيوان . وكذلك الصناعات الخاصة بالبناء كضرب الطوب وصنع الجير والجبس والمصيص وصناعة التطريز والنحاس والفضة وضرب الأرز وصناعة السكر (ويلاحظ أن صناعة تكرير السكر لم تكن معروفة في مصر

حتى ذلك الوقت) وكانت معظم الصناعات يدوية وبعضها يعتمد على قو
الحيوان. وكانت أشهر المراكز الصناعية فى ذلك العهد توجد فى القاهرة
والإسكندرية ودمياط وأسيوط وقنا .

وكانت للصناعة فى مصر ابان الحكم العثمانى عدة خصائص نذكر منها :

أولاً : أن الصناعة المصرية كانت على الرغم من تأخرها تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتى بمعنى أن الشعب المصرى فى مجموعه كان يأكل ويلبس من انتاج مصنوعات بلاده نفسها أما الأغنياء مثل : الأمراء المماليك وبعض العلماء المصريين ومن إليهم فكانوا يستكملون حاجياتهم باستيرادها من الخارج مثل الأجواخ والأقمشة الحريرية والسجاجيد وغيرها ولكن كانت الصناعة المصرية تفى بحاجات السكان ولا يؤثر فى أهمية هذه الظاهرة أن مطالب المصريين كانت محدودة وكذا قدرتهم الشرائية ضعيفة وعلى ذلك فإن مصر كانت فى العهد العثمانى تعتمد على الصناعة الوطنية أكثر من اعتمادها عليها فى القرن التاسع عشر .

ثانياً : توصف الصناعات المصرية فى ذلك العهد بأنها صناعات صغيرة وليس معنى ذلك أنها صناعات ضئيلة الأهمية بل المقصود أنها كانت لا تمارس فى مصانع كبيرة ولا يشترك فيها عدد ضخم من العمال ولا تستخدم فيها آلات ميكانيكية فالصانع يباشر حرفته فى إحدى غرف منزله أو فى دكان صغير يكون عادة مجاوراً لسكنه. وكان الصانع يشتغل بمفرده أو بمعاونة عدد قليل من المساعدين أو الصبيان وكانت الالات متواضعة بسيطة تدار أما باليد أو بقوة الحيوان .

ثالثاً : ارتبطت الصناعة فى مصر بقيام نقابات الحرف .

نقابـــات الحـــــرف :

ونقابات الحرف فى العهد العثمانى لها مدلول يختلف كل الاختلاف عن مدلول كلمة نقابات العمال فى العصر الحديث. فإذا قلنا فى الوقت الحاضر نقابة عمال مؤسسة النقل العام بمدينة القاهرة انصرف الذهن إلى أن جموع العمال الذين يشتغلون فى المؤسسة كأجراء قد اتحدوا وكونوا لأنفسهم نقابة تطالب بحقوقهم وتدافع عن مصالحهم وتعرض على ذوى الشأن مطالب العمال مثل الاستمرار فى صرف الأجور أثناء الأجازات المرضية أو منح أجازات سنوية بأجر كامل أو تقرير مكافآت عند ترك العمل وما إلى ذلك. وقد شهدت معظم دول أوربا هذا التنظيم فى القرن التاسع عشر كنتيجة من نتائج الأنقلاب الصناعى فيها وانتقل إلى مصر فى القرن العشرين .

أما النقابات الحرف التى كانت قائمة فى مصر فى العهد العثمانى فتنظيم يجمع جميع الأفراد المشتغلين بحرفة واحدة بصرف النظر عن وضعهم فى هذه الحرفة فهى تضم العمال المأجورين كما تضم أصحاب العمل أى أصحاب رأس المال وكانت لكل نقابة أربعة مهام :

أولاً : مهمة الأشراف الفنى على الصناعة :

فهى تنظم الناحية الفنية للصناعة وتشرف عليها وتتخذ كل الوسائل للنهوض بالصناعة أو الحرفة والمحافظة على مستوى معين فمثلاً نقابة النسيج كانت تضم جميع النساجين الذين ينسجون الحرير والصوف والكتان وما إلى ذلك وكانت النقابة تضع القواعد والنظم التى يسير عليها هؤلاء النساجون فتشترط النقابة شروطاً معينة فى النسيج نفسه وفى المادة الخام التى تستخدم فى النسيج وعدد الأنوال ونوع الصباغة وبعد ذلك تحدد الأسعار وتحدد المقاييس والمكاييل والموازين المستعملة بطريقة تضمن حقوق كل من

البائع والمشترى . حتى تقضى النقابة على أساليب الغش وغيرها من العوامل التى تدهور صناعة النسيج .

وهكذا كان دور النقابة : العمل على اتقان الصنعة .

ثانياً : مهمة تدريبيـــة :

كانت النقابة تضم **ثلاثة عناصر** : المعلـم والعريـف والصبـى **فالمعلم :** يكون ملماً بكل دقائق الحرفة التى يمارسها وكان المعلمون ينتخبون من بينهـم رئيساً يسمى شيخ النقابة. وأمـا **العريف** : فهـو أجير يعيش فـى الغـالب عند المعلم الذى يتكفل بايوائه واطعامه وكل معلم لا يستخدم أكثر من عريف واحد أو عريفين على الأكثر تبعاً لإتساع نطاق نشاطه التجارى وتتراوح مـدة عمل العريف بين ثلاث سنين وخمس سنين ويكون هناك اثناءهـا ارتبـاط أدبـى بين المعلم والعريف فلا يجوز للعريف ترك معلمه خلال هذه المدة وإذا تركه فلـن يجد معلماً آخر يقبله، كما كان المعلم لا يستطيع الاستغناء عن العريف قبل انقضاء مدته بدون سبب قوى. فإذا انتهت المدة جاز للعريف أن يصبح معلماً ويطلب منه فى هذه الحال أن يقدم عملاً يثبت أنه قد أصبح على حظ موفور من البراعة والدقة فى ممارسة حرفته. ويعـرض هـذا العمـل أو الإنتاج على المعلمين وشيخ النقابة فإذا وافقـوا عليـه أعطـاه الشـيخ شـهادة تسـمى رخصـة تخول له مزاولة المهنة باعتباره معلماً وتعطى له هذه الرخصة فى حفل تتلى فيه آيات من القرآن الكريم ويدعى إلى الحفل ا قارب والمعلمين وشيخ النقابة وبعد هذا الحفل ينتقل العريف إلى مرتبة المعلم ويستطيع أن يعمل مستقلاً .

أما الصبى : فيعيش عند المعلـم ويتعهـد بطاعتـه ويقـوم المعلـم بتدريبـه تدريباً فنياً على الحرفة التى يزاولها وتبلغ مدة تمرين الصبى سبع سنوات فإذا ما انتهت مدة التدريب يعقد له امتحان عملى فإذا اجتازه بنجاح رقى إلى مرتبـة العريف. وكان لكل معلم عدد من الصبيان لا يجوز له أن يتجاوزه.

ثالثاً : مهمة تنظيميـــة :

كان شيخ النقابة يتولى شئونها فيعاقب من يخالف نظمها وتقاليدها وكـان يحسم ما قد ينشأ من النزاع بين المعلمين والعرفان والصبيـان أو مـا قـد يحـدث بين المنتجين والمستهلكين ومراقبة المقاييس والموازين وتقدير الثمن المعتدل.

وكان الشيخ مسئول أمام الحكومة وقد رحبت الحكومة بهـذه التنظيمـات لأنها خلصتها من عبء مراقبة الصناعة ومكافحة الغش التجارى وغـير ذلـك من الأمور التـى أصبحـت تتولاهـا النقابـة ومـن جهـة أخـرى كـانت الحكومـة تستولى من شيخ النقابة على الضرائب المطلوبة من المشتغلين بهذه الصناعـة ويقوم الشيخ بدوره وبتحصيلها من أفراد النقابة .

رابعاً : مهمة اجتماعيـــة :

كـانت تربـط أفرادالنقابـة علىاختـلاف مراتبهم علاقـات شـخصية وثيقـة وذلك بسبب طول مدة التمرين والرقابة الدقيقةعلى الصنـاع وقـد أوجـدت هـذه العلاقـات جـواً اجتماعيـاً مـن الإخـاء والتعـاون والارتبـاط بيـن أفـراد المهنـة الواحدة وكانت النقابة تقوم بخدمة اعضائها اجتماعياً عن طريـق تحقيـق نـوع من الضمان الاجتماعى وتقديم المساعدات لمن يصاب منهم بمـرض أو عجـز فإذا مات أحد أعضاء النقابة اشترك سائر الأعضـاء فى تشييع جنازته واهتمـوا بأمر أسرته .

وكان أفراد النقابة يشتركون فى المواكب الدينية كالمولد النبوى الشريف واعـلان بـدء شـهر الصيام أى موكـب رؤيـة هـلال رمضـان وسـفر المحمـل وعودته كما كانوا يشتركون فى الحفـلات القوميـة والمناسـبات السياسية مثـل حفل وفاء النيل وقدوم الوالى العثمانى الجديد إلى القـاهرة وذهابـه فـى موكـب رسمى من بولاق إلى القلعة وكانت كل نقابة تجتهد فى أن تظهر فى مثل هذه

المواكب بمظهر مشرف خلاب من كثرة عدد أفرادها وارتدئهم أفخر ما لديهم من ملابس وكان لكل نقابه أعلامها وطبولها وشاراتها .

وقد كثر عدد النقابات إلى حد بعيد فى ذلك العهد حتى شملت جميع الحرف تقريباً حتى الحرف البسيطة التى كانت تعتبر قليلة الشأن أو وضيعة فكان للشحاذين نقابة وكذلك للقرداتية وكان للصوص نقابة وإذا وقع حادث سرقة لجأ المجنى عليه إلى شيخ نقابة اللصوص فيساعده على استرداد مسروقاته أو على الأقل جزء منها ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد فإذا وقعت سرقة واكتنف هذا الحادث الغموض فإن السلطات الحكومية كانت تلجأ إلىشيخ اللصوص الذىيساعدها علىاكتشاف الجريمة. ومما هو جدير بالذكر أن نقابات الحرف كانت موجودة فى أوربا فى العصور الوسطى وتشابهت إلى حد كبير نقابات الشرق [illegible] من حيث تكوينها واختصاصاتها .

ولكن يؤخذ على نقابات الحرف أنها كانت تقتل روح الابتكار والتجديد وكانت عاملاً من عوامل الجمود فعرقلت التقدم الصناعى وأخرت تطوره، كما أنها كانت تنطوى على تقييد الحرية الشخصية وتضييق النطاق على الصناعة لأنها كانت تحرم على أى شخص تتوفر لديه الأموال أن يفتتح مصنعاً ليمارس فيه الحرفة أو الصناعة ما لم يكن من اعضاء النقابة فحرية الاحتراف لم تكن مطلقة كما هى فى الوقت الحاضر ولكن هذا التقييد قد أفاد الصناعة فحافظ على مستوى رفيع فيها لأن الحرية فى فتح المصانع تؤدى إلى دخول صناع غير مدربين وغير مهرة فى حظيرة الصناعة ومن ناحية أخرى كانت الصناعات يدوية يبدو فيها أثر براعة الصانع ومهارته وتدريبه وعلى هذا فنقابات الحرف على الرغم من بعض عيوبها كانت من أصلح الانظمة للصناعات فى ذلك العهد .

التجـــارة

عند التعرض لموضوع التجارة في مصر ابان العهد العثماني يجب التمييز بين التجارة الداخلية وبين التجارة الخارجية .

التجارة الخارجيـــة :

ذكرنا فيما سبق أن البرتغاليين استطاعوا فى نهايةالقرن الخامس عشر الوصول إلى الهند عن طريق بحرى متصل هو طريق رأس الرجاء الصالح . وتلا هذا الحادث بعد عدة سنوات، فتح الأتراك العثمانيين لمصر وتضافر الحادثان معاً على توجيه ضربة قوية إلى اقتصاديات مصر التى كانت تعتمد اعتماداً رئيسياً على الرسوم الجمركية والمكاسب التى كان يدرها مرور متاجر الشرق بالأراضى المصرية فى طريقها إلى أوربا. فقد أخذت البرتغال تنقل منتجات الهند وعلى الأخص التوابل على سفنها إلى لشبونة حيث كان يتلقفها التجار الأوربيون لتوزيعها فى البلاد الأوربية واختفت إلى حد بعيد من أسواق الاسكندرية البضائع الهندية التى كانت تزخر بها هذه الأسواق وقل مجئ سفن البندقية إلى هذا الثغر المصرى واتجهت السفن إلى لشبونة لأخذ متاجر الهند منها وهكذا انتقل مركز التجارة الشرقية من الإسكندرية إلى لشبونة وفقدت مصر دعامة كبرى من دعائم ثروتها إذ هبطت حصيلة الضرائب الجمركية وقل ما كانت مصر تجنيه من أجور النقل وقد بذلت محاولات طوال عهد الحكم العثمانى لانعاش الحياة الاقتصادية وإعادة تجارة الهند إلى المرور بمصر كما كانت الحال قبل كشف طريق رأس رجاء الصالح . وقد أتخذت هذه المحاولات صوراً شتى منها تشجيع تجار البندقية على الابقاء على علاقاتهم الاقتصادية بمصر ومن ذلك المعاهدة التى أبرمها

فى ١٤فبراير سنة ١٥١٧ السلطان سليم الأول أثناء اقامته فى مصر مع جمهورية البندقية وقد أقر لتجار هذه الجمهورية الامتيازات التى كانت مقررة لهم فى عهد دولة المماليك وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة تعهد سلطان الدولة العثمانية بمعاملة البندقية بالاحترام والعدالة وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم أثناء اقامتهم فى الاسكندرية أو دمياط أو غيرهما من ثغور مصر وألا يدفعوا أكثر من الضرائب المقررة وقنصل البندقية هو الذى يختص وحده بمحاكمة مواطنيه وليس للقاضى المسلم أن يتدخل فى هذا الشأن وليس للسلطات المصرية أن تتدخل فى أمر السفن البندقية التى تصل إلى المياة المصرية وللقنصل أن يركب حصاناً يسير به إلى مصالح الحكومة المصرية أو إلى أى مكان آخر دون أن يتعرض له أحد بسوء .

وللبنادقة مطلق الحرية فى اصلاح وترميم مبانيهم أو اقامة منشآت جديدة لهم فى الحى الذى ينزلون فيه ولهم مطلق الحرية فى أن يستخدموا لهذا الغرض عمالاً من البنادقة أو من الأجانب أو من المصريين ويتمتع رعايا السلطان فى جمهورية البندقية والجزر التابعة لها بالامن وإذا استولى القراصنة على سفينة تتبع جمهورية البندقية وأتوا لبيعها فى ثغر مصرى لا يتقدم أحدلشرائهابل يجب اطلاق سراحهاواعادتهاواعادة متاجرها إلىاصحابها.

واستهدف البعض ا خر من هذه المحاولات حفر قناة تصل بين البحرين المتوسط والاحمر : ففى عهد السلطان سليمان القانونى فكر العثمانيون سنة ١٥٢٩ حفر القناة وبعد مضى أربعين عاماً حاول سنان باشا فاتح اليمن شق القناة حتى تتم عملياته الحربية فى منطقة البحر الأحمر فى يسر ونجاح سنة ١٥٦٩ ثم حاول السلطان مراد الثالث حفر القناة فى سنة ١٥٨٦ وخصص لذلك مائة ألف عامل وقد بقيت هذه المحاولات مجرد مشروعات .

وكان من بين هذه المحاولات أيضاً ما قام به فى القرنيـن السابع عشر والثامن عشـر بعض الأفراد مـن رعايا انجلترا وفرنسا والنمسـا لاحيـاء الطريق القديم: طريق البحر الأحمر ومصر للتجارة الهندية وقـد اتجهوا فـى مساعيهم لدى السلطان العثمـانى فـى القسطنطينية صـاحب السيادة علـى هذا الطريق ولدى الأمراء المماليك فى القاهرة : يستصدرون مـن الأول ترخيصـا بالمرور فى هذا الطريق ويرجون من الأمـراء الممـاليك ان يبسطوا حمـايتهم على متاجرهم وسفنهم وأموالهم وانفسهم.. ولكن لم تؤد محاولاتهم إلى نتيجـة ايجابية لعدة اسباب منها :

١ - اضطراب الأمن فى مصر وقد حدث أن هوجمت قافلـة انجليزيـة فى سفرها من السويس إلـى القـاهرة ونهبت البضـائع وجـرد المسـافرون مـن ملابسهم .

٢ - عدم استقرار الحكم فى مصر إذا كان يتنازع الحكم الفعلى طوائـف من أمراء المماليك فإذا عقد اتفاق مع أمير لا يلبث أن يعزل أو يقتـل ويتطلب الأمر بعد ذلك تجديد الاتفاق مع الأمير الذى يخلفه وهكذا .

٣ - معارضـة الحكومتيـن البريطانيـة والعثمانية للفكـرة وكـان هـذا هـو السبب الاساسى. وقد عارضـت الحكومة البريطانية الفكرة لأنها كانت تخضـع سياستها الشرقية فى ميادين التجارة والاستعمار للاتجاهات التى تضعها شركة الهنـد الشـرقية التـى تأسسـت فـى (٣١ ديسـمبر سـنة ١٦٠٠م) وعملت علـى احتكـار تجـارة الهنـد عـن طـريق رأس الرجـاء الصـالح وكـانت هـذه الشـركة تخشى ظهور منافسة لها فى التجارة الشرقية أو متـاعب تواجههـا أو ضرائـب تؤديها عن البضائع فى أثناء مرورها بمصر. وكانت هذه الشركة ترغـب فـى أن يكون اعادة الطريق القديم مقصوراً على نقل البريد. أمـا نقل المتـاجر فلـم ترض عن طريق رأس الرجـاء الصـالح بديـلاً . وعلـى ضـوء موقـف شـركة

الهند أبدت الحكومة البريطانية معارضتها لدى الباب العالى .

أما الحكومة العثمانية فقد عارضت هذه المحاولات لأنها خشيت أن يكون فتح البحر الأحمر للتجارة ودخول الأوربيين فى مياهه مقدمة لاستعمار أوربى مسيحيى مقنع لا يلبث أن ينقلب إلى استعمار سافر لتلك الجهات القريبة من الأراضى المقدسة الإسلامية وكانت الحكومة العثمانية لهذا السبب ولاسباب أخرى ليس هنا مجال مناقشتها تحرم على السفن الاجنبية المسيحية الملاحة فى مياة البحر الأحمر شمالى جدة، وقد أرسل سلطان الدولة العثمانية إلى شريف مكة الذى كان يحكم الحجاز وميناء جدة يحذره من هذه المحاولات ويطلب منه أن يتعظ بما حدث للهند على اساس أن الانجليز نزلوا فى الهند أول الأمر تجاراً ثم أنشأوا محطات التجارة ثم انشأوا قوات حربية لحماية المتاجر واستخدموا هذه القوات المسلحة للتغلب على القوات الاهلية وانتهى بهم الامر إلى أن غدوا سادة حكاماً وأرسل السلطان كتاباً بهذا المعنى أيضاً إلى مصر لإحباط محاولات الاجانب فى اعادة الطريق القديم .

ولكن من الحقائق الثابتة أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح لم يقض على التجارة الخارجية لمصر قضاءً تاماً ولكنه أدى إلى هبوط هذه التجارة ومن حيث مقدارها واهميتها هبوطاً كبيراً. فقد بقيت تمر بمصر بعض البضائع المنقولة بين الشرق والغرب وخصوصاً بين أوربا وداخل افريقية وفى بعض الاحيان بلاد العرب فالحاصلات الافريقية كانت تنقل بطريق القوافل إلى مصر أما لاستهلاكها داخل البلاد وأما ليعاد تصديرها إلى أوربا وكانت القوافل تأتى من السودان والحبشة وأواسط افريقية حاملة العاج والصمغ العربى وريش النعام والتمر الهندى والجلود والكحل والتمر . كانت هذه القوافل تأخذ فى عودتها بضائع بعضها مستورد إلى مصر من الخارج وبعضها مصنوع فى مصر كالمنسوجات. وكانت القوافل التى تأتى من

كردفان ودارفور - أى من غرب السودان - تسلك درب الأربعين فى صحراء ليبيا وسمى الدرب بهذا الاسم لان الرحلة فيه كانت تستغرق فيه أربعين يوماً، ثم تصل القوافل إلى اسيوط، أما القوافل التى تأتى من - سنار أى من شرق السودان - فكانت تسلك طريق الصحراء الشرقية وتصل إلى مصر عن طريق النيل وتتجه إلى اسوان وتتابع السفر شمالاً. أما بلاد العرب فكانت فى بعض الأحيان تصل إليهما حاجياتها من أوربا عن طريق مصر كما أنها كانت تصدر عن طريق مصر أيضاً حاصلاتها أو حاصلات شرقية بيعت فى بلاد العرب وكان البن هو أهم هذه البضائع وقد زاد اقبال الأوربيين على شرب القهوة وكثر الطلب على بن بلاد العرب ثم قلت تجارة البن العربى فى القرن الثامن عشر إذ ظهرت منافسة للبن اليمنى فى البرازيل وجزر الهند الغربية .

وكانت هناك قوافل أخرى ترد من بلاد شمال افريقية وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش لأن مصر ارتبطت بعلاقات تجارية مع شمالى افريقية فكانت ترد إلى مصر الطرابيش والبطاطين والمصنوعات الجلدية مثل الاحزمة والبلغ وكذلك الزيوت. وقد اتقن المغاربة صناعة الطرابيش التى كانت سوقها رائجة لأن كثيراً من سيدات الطبقتين الراقية والمتوسطة كن يتزين بالطربوش بعد تحويرة إلى نوع من الطاقية يغطى جزءاً من رؤوسهن ويرصعنه بقطع من الذهب وغيره من الأحجار الكريمة .

وفى مقدمة البلاد التى ارتبطت مع مصر بعلاقات تجارية كانت بقية بلاد الدولة العثمانية مثل بلاد الشام والاناضول وجزر البحر المتوسط. وكانت مصر تصدر الغلال والأرز وبخاصة إلى ا ستانة وكانت أهم الواردات إلى مصر الجوخ ويستورد من البندقية وفرنسا وانجلترا والاسلحة والادوات المصنوعة من الحديد وترد من ألمانيا والسجاجيد وترد من تركيا وبلاد فارس

وكانت ترد من البندقية المرايا والزجاج الفاخر وبخاصة أنواع الزجاج الملون الذى يسخدم فى الزخرفة .

وكانت هذه الواردات كما رأينا مقصورة على السلع الكمالية ومن أهمها الحرير والاجواخ والقطيفة والتبغ والعاج وريش النعام وكانت هذه السلع تستورد لاستعمال الامراء المماليك والعلماء وبعض التجارالموسرين أما السواد الأعظم من الشعب فكان يعتمد على المنتجات المحلية وكان يشتغل بالتجارة الخارجية أفراد من جنسيات وديانات مختلفة مثل البنادقة والفرنسيين واليونان واليهود والاتراك والعرب وكانت كل طائفة منهم تختص بنوع معين من المتاجر وكانوا يعملون فى الاسكندرية والقاهرة ودمياط ويسكنون احياء خاصة بهم وكانت منازلهم فى العادة فوق حوانيتهم وقد حصلوا على امتيازات عديدة من السلاطين العثمانيين تتيح لهم حرية المعاملات واقامة الشعائر الدينية والإعفاء من الخضوع للانظمة القضائية والمالية السائدة فى مصر وعلى الرغم من ذلك فقد أساء الامراء المماليك معاملة التجار الأجانب فى مصر فاكثروا من فرض المغارم على هؤلاء التجار وكانت أغلب المغارم على شكل قروض ولكن لم يفكر الامراء المماليك فى رد هذه القروض إلى اصحابها . وقد سكن التجار الشوام فى القاهرة فى وكالة التفاح والاتراك فى وكالة الشوربجى وتجار العبيد فى وكالة الجلابية والتجار المغاربة فى وكالات المغاربة والمجاورين والتجار الاوربيين فى جهة الموسكى .

وكان عدد كبير من قناصل الدول فى مصر يمارسون التجارة لحسابهم الخاص إلى جانب عملهم القنصلى وكانت حكومات الدول التى يمثلونها هى التى تختارهم من بين الشخصيات البارزة المقيمة فى مصر لرعاية مصالحها

التجارية وكان هؤلاء القناصل لا يتقاضون مرتبات فى الغالب ولكنهم كانوا يجنون ارباحاً وفيرة من اختيارهم فى السلك القنصلى لأن صفتهم الرسمية كانت تضفى عليهم جاهاً ونفوذاً لدى الحكام فى مصر وتيسر لهم سبل الاتصال السريع السهل المثمر مع امراء المماليك ويظفرون منهم بأنواع شتى من الامتيازات والاحتكارات وكان يتبع القنصل فى مصر فى غدواته وروحاته قواص يلبس ملابس رسمية فضفاضة من الجوخ المزركش ويحمل السيف وكان يطلق على هؤلاء القناصل اسم "القناصل المختارون" تمييزاً لهم عن "القناصل المبعوثون" cansuls de carriere الذين ينقطعون للأعمال القنصلية فيحرم عليهم الاشتغال بأية مهنة حرة أو عمل تجارى خاص شأنهم فى ذلك شأن باقى الموظفين. ومن الشخصيات القنصلية الهامة فى مصر كارلودى روستى Carlo de Rossetti قنصل النمسا فى مصر عاصر عهود على بك الكبير وابى الذهب ومراد بك وإبراهيم بك والحملة الفرنسية وشطرا كبيراً من عهد محمد على إلى سنة ١٨٢٠م حيث مات عن تسعين عاماً .

وكانت غرفة التجارة الفرنسية فى مارسيليا تحتكر توريد البضائع الفرنسية إلى مصر بينما احتكرت شركة الليفانت The Levant Company البضائع الانجليزية وكانت بعض الاصناف المصرية تخضع أيضاً لنظام الاحتكار بمعنى أن يتولى جمع هذا الصنف وإعداده وبيعه شخص واحد نظير مبلغ يدفعه للحكومة. ومن الاصناف المحتكرة كان النطرون المستخرج من وادى النطرون وقد احتكره كارلو دى روستى .

وقد فقدت الاسكندرية اهميتها التجارية التى كانت تتمتع بها فى العصور الوسطى فقد انسدت الترعة التى كانت تصلها بفرع رشيد ونجم عن ذلك صعوبة المواصلات بينها وبين الداخل. ثم اهمال الحكومة اصلاح مينائها وأصبح قليل الصلاحية لايواء السفن ، يضاف إلى ذلك السبب الهام

وهو قلة البضائع المارة بها وبمضى الايام اكتسبت رشيد اهمية تجارية على حساب الاسكندرية أما دمياط فكانت تأتى إليها البضائع الواردة من تركيا والشام ومن بين هذه البضائع التبغ والصابون والزيت والاخشاب والحرير وأصناف الياميش لشهر رمضان وكانت المنصورة تشتغل بتوزيع هذه التجارة فى داخل البلاد أما السويس فكانت من أكثر الثغور المصرية حركة وتأتى إليها بضائع الحجاز واليمن وبعض متاجر الهند كالحرير والبن والتوابل والشيلان وكان يمر بها السياح وهم فى طريقهم من أوربا إلى الشرق وبالعكس .

التجارة الداخلية :

كانت التجارة الداخلية تتأرجح بين النشاط والركود وتتأثر باضطراب الأمن وكثرة الضرائب التى كان يفرضها أو يبتدعها الأمراء المماليك للحصول على المال. وكان نقل المتاجر يتم بواسطة النيل أو الترع إلى الأسواق الرئيسية فى المدن الكبيرة. والفروق كانت واضحة جداً بين اسواق القرى واسواق المدن الكبرى : فسوق القرية يعقد فى يوم معين من أيام الأسبوع يجتمع فيه سكان القرية للمقايضة أو ابتياع الحاجيات أما سوق المدينة فقائم طوال الاسبوع وله أهميته وقيمته يزخر بالتجارة والبضائع ويلبى حاجات المدينة وسكانها والمناطق المجاورة لها والمحيطة بها وكانت السلع توزع من القاهرة والاسكندرية ودمياط والسويس على الاسواق الداخلية وأهمها فى الوجة البحرى المنصورة وسمنود وطنطا ومنوف . أما اسواق الوجة القبلى فكان أهمها أسنا وأسيوط وقنا .

وتعرضت التجارة فى مصر فى القرن الثامن عشر للاضطراب الشديد **للأسباب المختلفة التى منها :**

١ - لم تعمل الحكومة على تنشيط التجارة وكان اهتمامها يكاد يكون مقصوراً على جمع الضرائب .

٢ - اهملت الحكومة الضرب على أيدى العربان الذين كانوا يعتدون على القوافل التجارية وهى تسلك طريق الصحراء وبرزخ السويس وذلك فى طريقها إلى القاهرة من بلاد العرب أو الشام فكانت هذه القوافل تتعرض لنهب العرب وسلبهم .

٣ - إذا تأخرت الحكومة فى دفع مرتبات فرق الجند بانتظام - وهو أمر كان يحدث غالباً - فإن الجنود كانوا يتدخلون فى السوق ناهبين بائعين : ينهبون من الفلاحين أرزاقهم ومحاصيلهم ويبيعونها لأهل المدن بأغلى الأسعار .

٤ - كانت المشاحنات بين الأمراء المماليك لا تنتهى فتزيد من حالة الإضطراب والكساد فى الدوائر التجارية وفى ذلك الوقت كان الأمراء المماليك يحتاجون إلى مزيد من الأموال فيتجهون إلى التجار يفرضون عليهم ضرائب عدة مرات واضطر التجار إلى اغلاق حوانيتهم بعض الوقت ونجم عن ذلك زيادة أثمان السلع كى يعوض التجار بعض ما نزل بهم من خسائر فاضطربت الاسواق .

٥ - كان النقد مضطرباً والعملات الأجنبية تتداول بأسعار غير أسعارها الحقيقية .

٦ - إذا جاء فيضان النيل منخفضاً انعكست قلة المياة على الإنتاج الزراعى فتقل مقادير المحاصيل الزراعية .

٧ - انتشار الأوبئة وبوجة خاص الطاعون وقد بلغ من فداحة الخسائر التى سببته هذه الطواعين أن المصريين كانوا يؤرخون بها حوادثهم ويطلقون عليها اسماء معينة مثل : طاعون اسماعيل بك الذى حكم مصر نتيجة للحملة التى ارسلتها الحكومة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ لمحاربة ابراهيم بك ومراد بك وقد انتصر الجزائرلى باشا عليهما وأقصاهما

عن حكم مصر وعين أحد الأمراء المماليك مكانهما وكان إسماعيل بك ولكنه ما لبث أن أصيب بالطاعون ولقى حتفه وفى الجبرتى وصف مسهب لهذا الطاعون وقد أغلقت بيوت بعض الأمراء بأسرها بما تضم من جوارى وسيدات ومماليك وكان الميراث ينتقل في اليوم الواحد خمس مرات لكثرة الوفيات فى الأسرة الواحدة ولا شك أن الطواعين كانت سبباً هاماً فى تأخر مصر وبعض المؤرخين ينسب ضعف الحضارات إلى مثل هذه الاوبئة مثل الكوليرا فى الهند والملاريا فى ايطاليا .

رســوم الجمــارك :

ارتبطت الجمارك بالتجارة وكان لمصر فى العهد العثمانى عدة جمارك أهمها جمرك الإسكندرية ويتبعه رشيد وأبو قير ثم جمرك دمياط وجمرك البرلس وكانت هذه الجمارك الثلاثة مخصصة للتجارة التى ترد أو تصدر عن طريق البحر المتوسط ثم جمرك السويس وتأتىإليه تجارة بلاد العرب والهند، أما جمرك بولاق ويتبعه جمرك مصر القديمة فكانت ترد إليه التجارة الداخلية الواردة من الصعيد أو من جهات الوجة البحرى عن طريق النيل وكانت قوافل السودان تأتى إلى مصر عن طريق دارفور فالواحة الخارجة وتنتهى عند أسيوط حيث تدفع رسوماً جمركية فادحة على البضائع الواردة من السودان وكذلك على الرقيق الوارد منها أيضاً وكان جزء من ايرادات هذه الجمارك مخصصاً للانفاق على مرتبات الوالى وبعض العسكريين العثمانيين وكان الجزء الآخر مخصصاً لأموال الحرمين فى الحجاز ولجزية السلطان .

وكان يوجد جمرك على مقربة من القاهرة ويقع على طريق السويس الصحراوى يسمى جمرك البهار ويقوم بتحصيل الرسوم الجمركية من البضائع الواردة من مكة والمدينة وكان هذا الجمرك التزاماً للوالى .

وكما طبق نظام الالتزام على الأراضى الزراعية طبق أيضاً هذا النظام

على الجمارك فكانت تباع رسوم الجمارك فى المزاد العلنى، كل جمرك على حدة ، يشتريها أحد الملتزمين فيقوم بإدارة الجمرك واستغلاله ويوردها إلى خزينة الروزنامة بعد استقطاع قيمة معينة من الإيراد فى نظير ذلك وكان للملتزم وكيل يشرف على الجمرك يسمى الجمركى هو أمين الجمرك، وهو يهودى ويسمى المعلم .

المجتمع فى مصر ابان الحكم العثمانى

كان عدد سكان مصر فى العهد العثمانى يبلغ حوالى ثلاثة ملايين نسمة. وكانوا يتألفون من عناصر متباينة أشد التباين : منهم أقلية ممتازة قوامها ارستقراطية حربية من العثمانيين والمماليك وارستقراطية فكرية قوامها العلماء من خريجى الأزهر ثم أكثرية مهضومة الحقوق تتكون من الفلاحين ويعيشون فى الريف والتجار وأرباب الحرف والصناعات ويعيشون عادة فى المدن وكانت الغالبية العظمى من هذه الأكثرية تكدح فى سبيل لقمة العيش ولا تصيب من ثمرة كدها سوى الكفاف .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية لم تحاول أن تصبغ المصريين بالصبغة العثمانية أو تربطهم بالحضارة العثمانية بل إكتفت برباط الدين الإسلامى ولم تحاول أن تتعرض للتقاليد المصرية كما أن اللغة التركية لم تنتشر بين الشعب المصرى على الرغم من أن الحكم العثمانى لمصر استمر عدة قرون وكان عدم انتشار اللغة التركية راجعاً إلى أن الأتراك العثمانيين عاشوا فى معزل عن المصريين وكانت طريقة استيطانهم مصر تختلف اختلافاً جوهرياً عن الطريقة التى إتبعها العرب مع المصريين فى الاندماج بهم والارتباط معهم برباط المصاهرة والتعاطف .

وقد اختلفت ظروف الحياة بين هذه العناصر بحيث أصبحت الفروق بينها واسعة عميقة فالعثمانيون والمماليك كما مر بنا ، يظفرون بالمناصب الرئيسية فى الحكومة سواء المناصب العسكرية أو الإدارية أو المالية وسرعان ما استغل المماليك ضعف الدولة العثمانية وظهروا على الوالى العثمانى وضباط الحامية واستحوذوا على الموارد المالية فى مصر واستأثروا بالنفوذ فى البلاد واستبدوا بالفلاحين وارهقوا الزراع وأصحاب الحرف

والتجار بالضرائب لأن اهتمامهم كان موجهاً إلى جمع المال وتدبير المؤامرات ضد بعضهم البعض طلباً للإنفراد بالسلطان وجمعوا ثروات ضخمة وعاشوا فى نعيم وبذخ كانا مضرب الأمثال، سكنوا فى قصور شيدت على الطراز العربى الجميل وزخرفت بثمين التحف وفاخر الأثاث وقد استورد من الخارج وكانت تحف بالقصور حدائق، وكانوا يرتدون ثياباً فاخرة فضفاضة مصنوعة من الجوخ أو الحرير أو القطيفة المستوردة من الخارج ويضعون فوق رؤسهم عمائم كبيرة وكانوا يطلقون لحاهم إذا بلغوا مبلغ الرجال واعتقهم سادتهم ، واستكثروا من شراء المماليك والجوارى الحسان والخيول المطهمة وزخرفوا سروجها بالذهب والفضة .

وترفع المماليك على الشعب المصرى فى مجموعه فلم يختلطوا بأهل البلاد ولم يتزوجوا بالمصريات بل اعتمدوا على الجوارى الحسان. ولم تربطهم بالمصريين أصرة من الود والتعاطف .

العلمـــاء

تمتع العلماء فى ذلك العهد بمركز اجتماعى ممتاز وجاه وثراء. كانوا فى الغالب من ابناء الفلاحين الفقراء نزحوا إلى القاهرة والتحقوا بالأزهر ولما أتموا دراستهم شغلوا المناصب القضائية والتعليمية كالقضاء والتدريس فى الأزهر كما اشتغلوا نظاراً على الأوقاف الخيرية أو أوصياء على القصر من اليتامى وجمع معظمهم ثروات ضخمة ونهجوا على نسق المماليك فى معيشتهم فامتلكوا القصور واقتنوا الجوارى واستكثروا من الخدم .

وكان العلماء بمنجاة من أذى الأمراء المماليك فلم يتعرضوا لهم بسوء ولم يفرضوا عليهم الاتاوات أو المغارم كما كانوا يفعلون مع سائر طبقات الشعب المصرى [illegible] كان الأمراء المماليك يحسبون لهم حساباً كبيراً خشية أن يثير العلماء [illegible] على الرغم من ذلك فقد كان للعلماء مواقف وطنية

مشرفة إذ كانوا يتزعمون الحركات الشعبية فى القاهرة عند اشتداد الظلم وكانت طريقة العلماء هى الاضراب عن التدريس فى الأزهر ويعقب الاضراب هياج الطلبة وهم المجاورون ويغلقون الأزهر ويصحب ذلك هياج العامة وتسير المظاهرة يتقدمها مشايخ الأزهر ومجاوروه أى طلابه فى شوارع القاهرة إلى قصر الأمير الذى لا يلبث أن يرد المنهوبات أو يرفع الاتاوات ويزخر تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر بالكثير من الأمثلة على المواقف المشرفة التي كان يقفها العلماء في وجة الأمراء المماليك لمنع الظلم عن الشعب المصرى. ففى عهد إبراهيم بك ومراد بك ذهب أمير مملوكى يسمى حسين بك شفت (كلمة تركية معناها اليهودى) ومعه جنوده إلى منزل شيخ الطريقة البيومية فى حى الحسينية ونهبوا محتوياته وعلم سكان الحسينية بهذا الحادث فى اليوم التالى فحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم الطبول والنبابيت وكان لهم فى الطريق ثورة وعجيج وقابلوا الشيخ الدردير الذى نظم حركة المقاومة وتزعمها ورأى استكمالاً لأسباب نجاح حركة المقاومة أن ينضم إليها سكان بولاق ومصر القديمة وقال "اركب معكم وننهب بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم" ومن ثم انتشر أهالي الحسينية في جامع الأزهر وأغلقوا الأبواب وابطلوا الدروس بالجامع، كما أبطلوا الأذان والصلاة وصعد أهالى الحسينية إلى مآذن الأزهر يدقون الطبول ويصيحون بأعلى أصواتهم يدعون الشعب إلى محاربة المماليك. ولما ترامت هذه الأنباء إلى إبراهيم بك اتصل بالشيخ الدردير ورجاه أن يعمل على تهدئة النفوس الثائرة كما طلب إليه أن يرسل كشفاً بالنهوبات التى ارتكبها حسين بك شفت وجنوده وفعلاً أعيدت المنهوبات إلى أصحابها. وهكذا كان الشعب يجد فى العلماء ملاذاً يقيه السوء والشر من المماليك ولذلك كتبت للعلماء مكانة مرموقة عند الحكام والمحكومين .

وكان العلماء يقومون بدور الوساطة ايضاً بين المماليك بعضهم وبعض ليزيلوا خصومة ويضعوا حداً لحرب واضطرابات تقوم بينهم ويكون من نتائج هذه المنازعات أرهاق المصريين فى معايشهم واضطراب الأمن فى البلاد. وكان العلماء يتقدمون على غيرهم من الناس فى المناسبات العامة. وكان الولاة العثمانيون والأمراء المماليك يزورون العلماء فى بيوتهم وكان بعض الولاة يظهرون احترامهم العميق للعلماء فيقبلون أيديهم .

وقد ضرب كثير من العلماء المثل الأعلى فى الزهد والورع والتواضع والإيثار والانصراف عن جمع المال إلى العلم كما يتضح من سير الشيخ العفيفى والصائم والشيخ محمد الشنوانى ومما يذكر عن الأخير أنه كان يشمر ثيابه ويكنس مسجد الفاكهانى بيده ويسرج قناديله بيده وامتنع أن يكون شيخاً للأزهر واختفى فى مصر القديمة حتى لا يلى مشيخة الأزهر فلما أكره عليها ظل وفياً لمسجدالفاكهانى لم ينقطع عن كنسه واسراج قناديله حتى جازإلىربه.

ولكن كانت توجد فئة أخرى من علماء الأزهر انصرفت عن العلم وفتنت بالدنيا واغرمت بحب المال حباً جماً واقتنت الجوارى الحسان وسلكن مسالك يأباها الدين وتاجر بعضهم بالفتاوى وتملقوا الحكام وامعنوا فى ظلم المصريين جرياً وراء مصلحة ذاتية يستيدفونيا. ومن أمثلة الاتجار بالفتاوى أن حرباً وقعت بين فريقين من المماليك واستطاع كل فريق أن يستصدر فتوى من العلماء بأنه على حق وأنه يجوز له أن يقتل الفريق الآخر. أما الحرص على جمع المال فقد ترك الشيخ محمد شنن شيخ الأزهر عند وفاته أربعين ألف قطعة ذهبية (الذهب البندقى) عدا الفضة والاسلاك والضياع فما ورث أبنه هذا الأرث الضخم بدده ومات الابن مديناً ويروى الجبرتى قصة عن عالم اسمه الشيخ عبد الباسط السنديونى دخل فى نزاع طويل مع سيدة عجوز على فدان ونصف فدان وتعرض الشيخ للاهانة حتى قال له الشيخ

العروسى "والله لو كان هذا الفدان والنصف لى فى الجنة ونازعتنى عليه هذه العجوز لتركته لها" . وظلت الخصومة قوية عنيفة حتى مات ويعقب الجبرتى على هذا الحادث بقوله أنه يستحي من ذكر أمور أخرى ارتكبها الشيخ عبد الباسط السنديونى .

التجــــار :

كان فى المدن الكبرى طائفة كبيرة من التجار منهم عدد قليل من أغنياء التجار اشتغلوا بالتجارة الخارجية والداخلية ونجحوا فى تكوين ثروات ضخمة واقتنوا الدور الفخمة وظفروا بمركز اجتماعى ممتاز أما باقى التجار فكانوا متوسطى الحال ولكنهم كانوا يعيشون فى مستوى أعلى من مستوى الزراع والصناع، كما كانوا أسعد حالاً منهم. وقد سبق أن تكلمنا عنهم عند الكلام على موضوع التجارة .

المباشــرون :

شبيهة بطبقة التجار طبقة المباشرين وهم رؤساء جباة الضرائب من الأقباط، وقد تخصص الأقباط فى الأعمال الحسابية والمالية بجانب اشتغالهم فى الزراعة والصناعة والتجارة. وقد عهد إليهم الأمراء المماليك الصناجقة وكذلك الكشاف بتقدير الضرائب على الأراضى الزراعية وتحصيل هذه الضرائب سواء كانت نقدية أو عينية. وكان رؤساؤهم يسمون المباشرين.

وقد تمتع المباشرون بسلطات واسعة ونفوذ كبير فكانت لديهم دفاتر الروزنامة والميرى وغيرها من سجلات الأراضى الزراعية وكانوا يدونون فيها مساحة الأراضى المزروعة ومساحة الأراضى البور ويحتفظون باسماء الفلاحين الذين يقومون بزراعة الأراضى فى كل قرية ويحددون أنواع الضرائب المفروضة على كل منهم وفئاتها. وكانت أحكام المباشرين فى هذا

الشأن – نهائية لا معقب عليها. وكانوا يشرفون اشرافاً دقيقاً مباشراً على عمليات تحصيل الضرائب .

وكان المباشرون يؤدون في نفس الوقت خدمات جليلة للأمراء المماليك إذ كانوا وكلاءهم في إدارة املاكهم وضبط حساباتهم ومعرفة أوجه الإيرادات والمصروفات. واشتغل المباشرون أيضاً وكلاء لكبار الملتزمين فكان كل منهم يباشر سلطات الملتزم في دائرة التزامه وكلمته نافذة حتى غدا الحاكم بأمره في المنطقة .

وكان للمباشرين رئيس يسمى "كبير المباشرين بالديار المصرية" يشرف على المباشرين جميعاً وعلى الصيارفة والكتبة والمساحين ومن إليهم وكان يتمتع بمركز اجتماعي مرموق في مصر. وقد وصل بعضهم إلى أعظم مراتب الجاه والنفوذ وسكنوا الدور الفخمة وكان يقف على أبوابها الحجاب والخدم. ومن الشخصيات التي برزت في الحياة المصرية في القرن الثامن عشر المعلم إبراهيم رزق الذي كان مديراً يدير حسابات الحكومة على عهد علي بك الكبير وكان مقرباً إليه ويرجع إليه في كافة الشئون المالية والاقتصادية لمصر وقد طغى نفوذ المعلم إبراهيم رزق على غيره من كبار موظفي الحكومة في ذلك العهد ثم خلفه المعلم إبراهيم الجوهري وقد علا شأنه أيام محمد بك أبي الذهب وإبراهيم بك ومراد بك ويقول عنه الجبرتي أنه كان المشار إليه في الكليات والجزئيات وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يغرب عن ذهنه شئ من دقائق الأمور "وكان بعضهم ينتهز فرصة حلول شهر رمضان فيجاملون المسلمين : يقدمون لاعيانهم الهدايا ويوزعون السكر والأرز على فقراء المسلمين.

الفـــلاحــــــون :

كان الفلاحون هم الغالبية العظمى من الشعب المصرى اشتغلوا

بالزراعة فى ريف مصر. وكانوا يعيشون عيشة ضنكاً : تعرضوا لظلم الأمراء المماليك وعسف الملتزمين وعليهم أداء الضرائب المتنوعة، وكان الضرب والتعذيب وغير ذلك من صنوف القسوة أمراً مألوفاً حتى يظهر الفلاحون ما عسى أن يكونوا قد أخفوه عن أعين الملتزمين والمباشرين وقد سبق أن ذكرنا أن الفلاحين قد خضعوا لنظام الالتزام فكان كل فلاح يزرع الارض ولكنه لم يكن يمتلكها ولم تكن له حرية التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو الهبة بل كان يزرعها ويظل قائماً على زراعتها طالما كان يسدد الضرائب النقدية والعينية إلى الملتزم على النحو الذى شرحناه فى نظام الالتزام .

وكان الفلاحون يرتدون ملابس من أقمشة رخيصة ويقتاتون خبز الذرة ويسكنون اكواخاً حقيرة ورضوا من الحياة بمعيشة الكفاف ولكن لم تكن معيشةالكفاف ميسورة دائماً لأن المجاعات من ناحيةوالاوبئة من ناحية أخرى كانت تجتاح البلادوتحصد آلاف السكان ولم يكن فى مصرطب ولاأطباء وكان ادعياء الطب من الحلاقين والمنجمين هم الذين يتصدون لعلاج المرضى .

الصناع :

سبق أن تكلمنا عن الحالة الاجتماعية لهذه الطائفة عند التعرض لنقابات الحرف .

استئثار المماليك بالنفوذ

حدثت فى مصر فى القرن الثامن عشر ظاهرة لم تكن فى حسبان السلطان سليم الأول حين وضع نظامه المعقد لحكم مصر. فقد غدا الامراء المماليك هم الهيئة الحاكمة فى مصر على الرغم من وجود الوالى والحامية العثمانية. وفى الواقع بدأ إستئثار الأمراء المماليك بالنفوذ والسلطان فى مصر منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر نتيجة ضعف الدولة العثمانية وكان من أهم أسباب ضعفها :

أولاً : اختلال الأداة الحكومية فى القسطنطينية وقد احتجب السلطان فى قصره وكثر تدخل الجنود فى أعمال الحكومة من خلع الوزراء وقتلهم بل وقتل السلاطين. وانعكس هذا الاضطراب على الولايات العثمانية وعلى الأخص الولايات البعيدة كمصر .

ثانياً : الضغط الشديد الذى تعرضت له الدولة العثمانية من الدول المسيحية الأوربية وعلى الأخص روسيا والنمسا. وكانت بلاد البلقان تموج بحركات انفصالية تستهدف تخلص الشعوب المسيحية من حكم السلطان العثمانى المسلم، وكانت الروح القومية والدينية والدعاية الروسية هى وقود الحركات الانفصالية الاستقلالية فى الممتلكات الأوربية المسيحية للدولة العثمانية مثل البوسنة والهرسك (الشطر الأكبر من يوغسلافيا حالياً) والافلاق والبغدان (رومانيا حالياً) والجبل الأسود (شمال ألبانيا وجزء من يوغسلافيا حالياً) وهذا هو الفارق بين هذه الحركات التى قامت فى القسم الأوربى المسيحى من الدولة العثمانية وبين الحركات التى شهدتها الممتلكات الشرقية الإسلامية للدولة العثمانية مثل حركة على بك الكبير فى مصر وظاهر العمر فى فلسطين والاكراد فى شمال العراق والشام والاغوات الحكام فى مدن

الأناضول وموانيه . كانت الحركات الأخيرة في الشرق الإسلامي تستهدف التنافس على الحكم والاستئثار به ولكنها لم تكن في مجموعها تروم الاستقلال أو الانفصال عن جسم الدولة العثمانية لأن هذه الولايات كانت ترتبط برباط الدين الإسلامي مع الدولة العثمانية .

وقد استغل الأمراء المماليك في مصر هذا الضعف الذي انحدرت إليه الدولة العثمانية فعملوا على تقوية نفسهم بالأستكثار من شراء المماليك وتدريبهم تدريباً عسكرياً وتزويدهم بالأسلحة والخيول الأصيلة واستولوا على معظم الأراضي الزراعية عن طريق نظام الالتزام وأصبحوا حكام مصر بالفعل وبلغوا من القوة بحيث أنهم كانوا يمتنعون عن ارسال الجزية إلى السلطان بانتظام وإذا غضبوا على الوالي أو لم ترقهم سياسته خلعوه من منصبه(١). أما رجال الحامية العثمانية فقد ضعفت صلاتهم بالدولة العثمانية . وكانت الإدارات المالية في الحكومة المصرية في أيدي المماليك فكان بيدهم صرف مرتبات العسكريين وأصبحوا تابعين لهم من الناحية المالية في وقت عظم فيه نفوذ المماليك فتملقهم العسكريون العثمانيون وصاهروهم وأصبحوا من عشيرتهم واتباعهم كما أن المماليك تغلغلوا في مناصب الحامية العثمانية حتى أصبح رؤساء الأوجاقات واغلب ضباطها من المماليك .

---

(١) كان للأمراء المماليك تقاليد في عزل الولاة الأتراك فإذا استقر رأيهم على عزل الوالي اصدروا قراراً بذلك وعهدو بتنفيذ القرار إلى واحد منهم يسمى أوده باشي يرتدي عباءة سوداء ويضع على رأسه قبعة سوداء ايضاً لها حافة تشبه الطبق ولهذا السبب كانت الجماهير في القاهرة تطلق عليه "أبو طبق" ويركب أوده باشي حمارا إلى القلعة يحف به طائفة من الجند ثم يدخل على الوالي وبعد أن يحييه يطوي طرف السجادة التي يجلس عليها الوالي ويعلنه بقرار العزل ويقول له انزل يا باشا فيمتثل الوالي لهذا القرار الشفوي ويترك القلعة مجرداً من كل سلطان ويقيم في أحد المنازل حتى تتم اجراءات ترحيله، وكان مثل هذا الوالي المعزول يحاسب حساباً عسيراً على تصرفاته المالية وكان يطالب بأداء المبالغ التي يكون قد استولى عليها بدون وجه حق ولم يصرفها في الأوجه المخصصة لها .

وبرزت هذه الظاهرة استئثار المماليك بالحكم - عند قدوم الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ فقد كان حكام مصر من الأمراء المماليك هم الذين وقفوا فى وجة الفرنسيين وتصدوا للدفاع عن البلاد وقاوم بعض المماليك الجيش الفرنسى مقاومة عنيفة الأمر الذى لم يحاوله الوالى العثمانى أو الاتراك العثمانيون العسكريون .

وإذا كان الامراء المماليك قد بلغوا هذا الحد من القوة بحيث أنهم كانوا يمتنعون عن ارسال الجزية إلى السلطان ويخلعون الوالى العثمانى ويسيطرون على البلاد عسكرياً ومالياً واقتصادياً فلماذا لم يستقلوا بمصر عن الدولة العثمانية ويقطعوا صلات التبعية وتعود سلطنة المماليك إلى ما كانت عليه قبل الفتح العثمانى لمصر فى سنة ١٥١٧م بماذا يفسر فشلهم فى تحقيق الاستقلال التام ؟

يرجع فشلهم إلى انقسام الامراء المماليك بعضهم على بعض إذ عجزوا عن توحيد كلمتهم والخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم وبمصر إلى الاستقلال التام عن الدولة العثمانية وكان إذا ظهر أمير منهم وتجمعت له أسباب القوة والنفوذ والسلطان كان الأمراء الآخرون المنافسون له هم أول من يثورون عليه ويناصبونه العداء السافر وتقع المشاحنات والحروب وكثيراً ما يلقى هذا الأمير مصرعه. أما إذا نجا من القتل الأمير المنهزم فإنه يذهب إلى الصعيد ويعيد تنظيم قواته ويعود إلى محاربة خصمه وهكذا تستمر الحرب سجالا. وكانت مهمة الدولة العثمانية هى الايقاع بين الامراء المماليك وزيادة اسباب التفرقة والانقسام بينهم وكانت المنازعات والحروب والمشاحنات بين الأمراء المماليك هى الظاهرة الشائعة فى مصر. وتاريخ الجبرتى حافل بهذه الصور الدامية للحروب الداخلية التى كانت تدور فى شوارع القاهرة وفى قرى مصر .

وينشأ أو يتفرع من هذه الحقيقة سؤال آخر هو : إذا كنا قد أرجـ فشلهم السياسي إلى عدم اتحادهم. فلماذا كان الأمراء المماليك منقسمين على أنفسهم ؟

السبب في ذلك هو نفسية المملوك هي التي كانت تملي على الأمراء المماليك هذه السياسة الخرقاء ونعني بها عدم الاتحاد وهي ظاهرة قديمة موغلة في القدم ترجع إلى أيام دولتيهم القديمتين : **المماليك البحرية والمماليك الجراكسة** فقد كان هناك تنازع مستمر على عرش السلطنة وكان القتل والغدر من سمات ذلك العهد حتى أن سلطنة المماليك لم تصبح وراثية في معظم الاوقات وكان كل أمير يدعي أنه هو والسلطان سواء. وقد سيطرت عليهم هذه النزعة سيطرة كاملة انعكست على منهجهم في الحياة لأن أصل المماليك واحد وهم من حيث النشأة الأولى سواء وهم جميعاً أجانب عن مصر وكانوا من الرقيق، انتزع الفرد منهم من بين أهله وهو صغير وحيل بينه وبين ماضيه ودرب تدريباً مصطنعاً غير طبيعي وليست هناك ميزة لأحد على غيره إلا الميزات الشخصية كأن يكون أكثر شجاعة وأوفر مهارة في الحرب والسياسة وأشد دهاء وأوسع حيلة وما إلى ذلك. وقد وجد علماء النفس أن من شروط الطاعة تميز الأنساب بعضها عن بعض واختلاف الطبقات . ولم تكن هذه الشروط متوفرة في الأمراء المماليك .

ونفسية المملوك تفسر وجهة نظره في الحكم والسياسة فالجو غير الطبيعي الذي نشأ فيه والتربية المصطنعة التي ترعرع في ظلالها وحرمانه من عطف الوالدين ومحبة الأخوة كل ذلك جعله لا يكترث إلا بنفسه. ومن الحقائق المسلم بها أن الأسرة هي المجال الطبيعي لتربية عواطف الفرد ففي جو العائلة يدرب الطفل على حب والديه وأخوته ويدرب على ألا - يستأثر لنفسه بكل الخيرات. أما الأقسام الداخلية في المدارس والتربية

العسكرية فى الثكنات فلا تسمو بعواطف الفرد إلى الدرجة التى تصل إليها التربية المنزلية . وقد تنشأ بين المملوك وهو فى خدمة سيده وبين أقرانه صداقة ولكن هناك ما يضعف هذه الصداقة أو ما يضيع بها وهو التنازع على طيبات الحياة من مراكز الجاه والنفوذ فإذا رأى انه لا يصل إلى ما تشتهيه نفسه إلا بالغدر بزميله فإنه لا يتردد فى الأقدام على هذا الأجراء. يضاف إلى ذلك أن المملوك لا ينظر إلا للساعة التى يعيش فيها فيستحوذ على كل ما يستطيع أن تصل إليه يداه ولا يدبر للمستقبل القريب أو البعيد شيئاً ذا بال لأنه رأى أن سلفه قد اغتاله زملاؤه فيقول فى نفسه لماذا أدبر؟ ولمن أدبر؟ وربما يغتالنى أحد من زملائى فنظر إلى الملذات يأخذ منها بأوفى نصيب وأهمل القيام بمشروع للرى مثلاً لأن مثل هذا المشروع يعود بالنفع على أفراد آخرين فكانت النتيجة أن كان هذا العهد خالياً من مشروع جدى نافع قام به أحد المماليك لأن ذلك لا يتمشى مع نفسية المملوك. وكل ما تم فى ذلك العهد كان اعمالاً مؤقتة .

تتمثل المسائل التى تكلمنا عنها تمثيلاً سياسياً فى حركة على بك الكبير الذى كان فى مهده طفلاً مسيحياً يانعاً اسمه يوسف اختطفه تجار الرقيق من أبيه القسيس الأرثوذكسى – داود وباعوه فى سوق الرقيق فى القسطنطينية إلى كرد أحمد من كبار تجار الرقيق وجئ به سنة ١٧٤٣ إلى الإسكندرية حيث بيع بثمن بخس، دراهم معدودة إلى مديرى جمركى الأخوين اليهوديين اسحق ويوسف وهذان تقربا به هدية إلى أحد أصحاب النفوذ فى مصر ثم دارت الأيام وغدا حاكماً بأمره فى مصر يفتح بلاد الحجاز والشام ويقود جموع – الحجاج إلى بيت الله الحرام بعد أن كان أبوه يعده ليشغل منصباً دينياً فى الكنيسة اليونانية .

أولاً : ظهور على بك الكبير واستئثاره بالحكم فى مصر سنة ١٧٦٨ يوضح ضعف الدولة العثمانية توضيحاً تاماً .

ثانياً : فشل على بك فى حركته للإنفراد بالحكم فى مصر يوضح عجز المماليك مع حكمهم للبلاد فعلاً عن تحقيق أغراضهم .

ثالثاً : لم يكن فشل على بك راجعاً إلى الدولة العثمانية ولا إلى الحامية العثمانية بل إلى قيام أحد الأمراء المماليك ضده وهو محمد بك أبو الذهب الذى غدر به وأسقطه بل وتسبب فى موته. **وعلى ذلك يمكن القول بأن على بك قد نجح فى أول الأمر بفضل ضعف الدولة العثمانية وفشل فى آخر الأمر بسبب انقسام المماليك على أنفسهم .**

ولن نتعرض فى هذه الدراسة لحركة على بك الكبير وتطوراتها ولكن توجد ظاهرة جديدة فى سياسة المماليك جديرة بالستجيل ونعنى بها ظاهرة اتصال على بك بالأعداء الأوربيين للدولة العثمانية وطلب المعونة العسكرية منهم. فقد اتصل على بك أول الأمر بناء على اقتراح كارلو دى روستى قنصل النمسا العام فى مصر بجمهورية البندقية وكان لها صراع مرير مع الدولة العثمانية التى انتزعت من جمهورية البندقية جزيرة كريت ثم المورة. وقد أرسل على بك رسالة حملها أحد معاونيه وهو يعقوب الأرمنى اقترح فيها عقد محالفة تقدم مصر بموجبها مساعدتها لجمهورية البندقية لاسترجاع جزر البحر المتوسط من الدولة العثمانية ولكنها اعتذرت عن ابرام محالفة كما عجزت عن تقديم أية مساعدة عملية لعلى بك إذا كانت قد هبطت من عهد عيد إلى دولة فى المقام الثانى أو الثالث بين دول أوربا بعد أن تساقطت تباعاً ممتلكاتها وشهد القرن الثامن عشر نهاية هذه الجمهورية .

وعلى أثر ذلك اتجه على بك إلى روسيا وكانت الحرب وقتئذ قائمة بينها وبين

الدولة العثمانية ووصلت بعض وحدات من الأسطول الروسى إلى مياة البحر المتوسط لإثارة الشعوب البلقانية وتحريضها على القيام فى وجة السلطان وأراد على بك أن يتصل بروسيا فكتب إلى قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وهو الكونت الكسيس أرلوف Count Alexis Otlow

وأبدى رغبته فى عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا فتزود روسيا مصر بالذخائر والأسلحة والمهندسين والضباط ومن إليهم من الخبراء العسكريين وأن تزود مصر الأسطول والجيش الروسيين بالمؤن والمال. وقد رحب القائد أرلوف بهذا التقارب المصرى الروسى ووعد بعرض الموضوع على

---

(١) بعد وفاة زوجها على بك الكبير انتقلت إلى حريم أبى الذهب بك ثم تزوجت من مراد بك وعرفت باسم نفيسة المرادية وتعتبر أعظم شخصية نسائية ظهرت بين سيدات مصر فى تلك العصر وعاصرت الحملة الفرنسية وشطرا من حكم محمد على. وكانت تسمى أحياناً أم المماليك وأحياناً أخرى السلطانة. وقد جمعت إلى جانب جمالها الباهر سمواً فى الأخلاق وسعة فى الأفق العقلى وبراً بالفقراء ونالت مكانة مرموقة عند العلماء والأمراء والشعب وكانت تخفف من شطط زوجها مراد بك فى فرض المغارم على التجار الفرنسيين وعرفت الحكومة الفرنسية هذا الموقف فأهدتها ساعة ذهبية مرصعة بالماس قبل مجئ الحملة الفرنسية وبسطت رعايتها على كثير من نساء المماليك وغيرهن من الفقراء الذين نكبوا فى حرب الفرنسيين ودفعت مغارم كثيرة من مالها فرضها الفرنسيون على المصريين ولم يستطيعوا دفعها وقدمت فى إحدى المرات الساعة التى أهدتها لها الحكومة الفرنسية لقدرت بأربعة وعشرين ألف فرنك وأهداها بونابرت إلى إحدى صديقاته الفرنسيات. واتهمها الفرنسيون بتبادل الرسل مع زوجها مراد بك فى الصعيد وبأنها كانت تبعث إليه مع هؤلاء الرسل أموالاً، وبعد وفاة زوجها مراد وجلاء الفرنسيين لقيت شراً كثيراً من الولاة العثمانيين وبخاصة خورشيد باشا ثم لقيت أشد المحن والكوارث على يد محمد على وصادر ما بقى عندها من مال وعقار. ولما قدمت زوجة محمد على من قوله أمر كرائم السيدات باستقبالها فى بولاق ولكنها رفضت معتذرة بمرضها ولكن محمد على أرغمها على الذهاب وعاشت نفيسة بقية حياتها ضعيفة الحول مبددة الثروة لم تفارقها مرونتها وظلت على الرغم من فقرها ترعى فى حدود امكانياتها الأسر الكريمة التى اختفى عليها الدهر. وقد ماتت سنة ١٨١٦بعد وفاة زوجها الثانى مراد بك بحوالى خمسة عشر عاماً وحزن عليها الناس حزناً شديداً ودفنت كزوجها على بك فى القرافة الصغرى بجوار الأمام الشافعى. وأخذ محمد على بيتها الذى كان قد شيده لها زوجها الأول على بك الكبير على بركة الأزبكية وأسكنه بعض قومه .

القيصرة كاترين. واستمر الاتصال قائماً بين على بك والروس الذين أرسلوا إليه أثناء حصاره ليافا فى فلسطين ضابطين روسيين وبعض الأسلحة من مدافع وبنادق. وقامت وحدات من الأسطول الروسى بمظاهرة بحرية ضربت خلالها بيروت ويافا ثم أرسلت روسيا حملة بحرية برية كبيرة لنجدة على بك وكانت تتكون من إحدى عشرة سفينة وتوابعها وتحمل قوة برية قوامها ألف ومائتا جندى مجهزين بكامل اسلحتهم عدا ضباط المدفعية ولكن هذه الحملة وصلت متأخرة، إذا كان على بك قد منى بهزيمة فى الصالحية على يد مملوكه محمد بك أبى الذهب ومراد بك الذى قاد جيش أبى الذهب بعد أن وعده بمستولدة على بك واسمها نفيسة وكانت على حظ موفور من الجمال وشغف بها مراد بك شغفاً عظيماً(١). ومات على بك متأثراً بجراحه فى مايو سنة ١٧٧٣م .

وكانت لحركة على بك الكبير آثارها بالنسبة لمصر فقد أصبحت لمصر فى العهد العثمانى شخصية ممتازة واتصلت مباشرة بالسياسة الخارجية وحاولت عقد معاهدات سياسية مع جمهورية البندقية ومع روسيا. وتهافت الأنجليز والفرنسيون على عقد معاهدات تجارية مع الامراء المماليك لاحياء الطريق البرى من جديد وقد لفتت هذه العوامل مجتمعة انظار الدولة إلى اهمية مركز مصر بين الشرق والغرب وبدأت أطماع الدول الأوربية فى مصر .

وقد فكرت النمسا على عهد الامبراطورة مارى تريزا - فى السيطرة على تجارة الشرق وتحويلها إلى الطريق البرى عبر مصر تحت اشرافها وكان من مؤيدى هذه الفكرة فى سنة ١٧٨٢ كارلو دى روستى قنصل النمسا العام فى مصر .

أما روسيا فقد ندمت لأنها لم تستغل الفرصة التي أتيحت لها على عهد علي بك الكبير وزاد اهتمامها بمصر بعد وفاته وعينت قنصلاً لها بالإسكندرية هو البارون دي ثونيه Baron de Thonus وعهدت إليه أن يعرض المساعدات الروسية على إبراهيم بك ومراد بك وأن يوضح لهما أن روسيا على استعداد لتأييد مصر في أية حركة تروم بها الاستقلال عن الدولة العثمانية. ويلوح أن الاضطراب الداخلي في مصر وقتئذ لم يساعد إبراهيم بك ومراد بك على الدخول في تفاصيل سياسية من هذا القبيل مع روسيا ولكن إبراهيم بك استقدم عدداً وافراً من المماليك الروس وشعر بذلك ماجالون Magallon قنصل فرنسا العام في مصر فأرسل تقريراً مؤرخاً في (٢٧ أكتوبر سنة ١٧٨٨م) إلى حكومته قرر فيه أن الروس يرنون بأبصارهم إلى مصر وأنه إذا استمر سلطان تركيا عاجزاً عن كسر شوكة المماليك وبقى المماليك مستأثرين بالنفوذ الأول في مصر فإن الروس سينجحون في عقد تحالف مع المماليك كخطوة أولى لبسط السيطرة الروسية على مصر. ولما قتل قنصل الروسيا في حادث أعتبر قنصل فرنسا موت زميله حادثاً سعيداً لأنه كان يرى أن القنصل الروسي القتيل رجل نشيط خطير . أما اطماع فرنسا وانجلترا في مصر فستبين في خلال هذه الدراسة .

أما آثار حركة علي بك الكبير في مصر فقد اطاحت بنفوذ الدولة العثمانية في هذه الولاية حيناً من الزمن على عهد علي بك الكبير إذ نجح في عزل الوالي العثماني وطرده ولم يسمح للولاة العثمانيين بدخول مصر وضعفت الاوجاقات العثمانية ما عدا اوجاق المستحفظان الذي كان يقوم بعمل الشرطة .

ولم يؤد فشل حركة علي بك الكبير ووفاته إلى استعادة الدولة العثمانية نفوذها المفقود في مصر بل ازداد الامراء المماليك اعتزازاً بقوتهم وتجاهلوا الوالي العثماني ولم تعد قوة مصر الحربية تتمثل إلا في المماليك فإن محمد بك أبا

الذهب(١) الذى خلف على بك اعترف بولائه للسلطان وأرسل إليه الخزينة "كما بعث معتادات الآستانة وأموال الحرمين . ولكنه سار على نهج الأمراء السابقين وشل نفوذ خليل باشا الوالى العثمانى . وفى هذا يقول الجبرتى "أن سنة ١١٨٨هـ(١٧٧٣) استهلت ووالى مصر خليل باشا محجوز عليه ليس له فى الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب" ثم لم يلبث أن عزل أبو الذهب فى مدة حكمه القصير خليل باشا الوالى العثمانى ووضع مكانه النابلسى باشا واضطر السلطان أن يرسل فرماناً يقر فيه هذا التغيير .

وبدأت تجيش فى نفس محمد أبى الذهب أطماع تستهدف التوسع الاقليمى ومد نفوذه إلى فلسطين فعرض على الحكومة العثمانية أن يحارب الشيخ ظاهر العمر حليف على بك الكبير وكان قد غدا حاكماً على فلسطين . واذنت له الحكومة العثمانية وخرج أبو الذهب فى مارس ١٧٧٥ بجيش يتكون من ستين ألف جندى مزودين بشتى الاسلحة واستولى على غزة والرملة ويافا وعكا التى فرمنها ظاهر العمر. وكان السلطان قد أصدر

---

(١) محمد أبو الذهب من مماليك على بك الكبير اشتراه على بك فى سنة ١١٧٥ وعينه خازن دار وصحب سيده على بك إلى الحجاز فى سنة ١١٧٧ لأداء فريضة الحج وهناك اعتقه على بك واطلق لحيته عند بئر زمزم. وكان المماليك يرخون لحاهم عند اعتقاهم ولما عاد إلى القاهرة رقى إلى رتبة أمير صنجق فى نفس العام واقيم له الحفل التقليدى الذى يقام للامراء الصناجق وارتدى الخلعة الخاصة بهذه الرتبة ووزع عملات ذهبية بمثابة اكراميات (بقشيش) وبعد الحفل أخذ ينثر الذهب على الفقراء وهو فى طريقه من القلعة حتى بلغ منزله فعرف بأبى الذهب واشتهر عنه هذا اللقب وطابت نفسه لهذه التسمية "فكان لا يضع فى جيبه إلا الذهب ولا يعطى إلا الذهب ويقول أنا أبو الذهب فلا أمسك إلا الذهب.

وكان هو قائد الحملات العكسرية التى وجهها على بك الكبير إلى الحجاز والشام وله عدة منشآت أهمها مسجده المجاور للجامع الأزهر ومدرسته الملحقة بجامعه ولكن اسمه يظل مقروناً فى التاريخ بالغدر والخيانة لسيده وولى نعمته على بك الكبير .

فرماناً بتأمير أبى الذهب على الشام ومصر ولكن سرعان ما أصيب أبوالذهب بالحمى وجاز إلى ربه فى سنة ١٧٧٥ووقفت مشروعاته التوسعية بهذا المـــوت الفجائى وعاد جيشه يحمل جثته إلى القاهرة حيث دفن فى مسجده المعروف بجوار جامع الأزهر .

وبوفاة أبى الذهب تنازع الحكم فى مصر حزبان من المماليك تزعم الحزب الأول إبراهيم بك ومراد بك وتزعم الحزب الثانى إسماعيل بك وتاريخ مصر من وفاة أبى الذهب حتى بدء الغزو الفرنسى هو فى الحقيقة صورة دامية للنزاع على السلطة والنفوذ بين المماليك والسعى لاغتصاب أموال المصريين والمغالاة فى الظلم والقسوة وما صحب ذلك من اضطراب الامن وانتشار الاوبئة والمجاعات على الرغم من توفر الحبوب فى البلاد ولكن المماليك كانوا يحتفظون بها لانفسهم وقواتهم المسلحة فحسب .

استمرت الحرب سجالاً بين حزبى المماليك وتبادل الحزبان الهزيمة والانتصار فقد تغلب اسماعيل بك أول الأمر وطرد إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد ولكن لم يلبث أن استرجع هذان الأميران مركزهما فى القاهرة فى سنة ١٧٧٩ ويهمنا هنا أن نذكر أن إبراهيم ومراد أستوليا على موارد البلاد ثم انتهى بهما الأمر إلى الامتناع عن ارسال الجزية بحجة أن ايرادات الحكومة لا تكاد تفى بنفقات الإدارة. وترامت الانباء إلى الدولة العثمانية أن هذين الأميرين يجدان تشجيعاً من روسيا فى سياستهما تمهيداً لفصل مصر عن الدولة العثمانية. وازاء ذلك قرر السلطان عبد الحميد الأول ارسال حملة إلى مصر لكسر شوكة المماليك واسترجاع نفوذ الدولة فى مصر.وكانت الحرب التركية الروسية قد وضعت أوزارها بعقد معاهدة كينارجى سنة ١٧٧٤ وبدأت تتفرغ الدولة العثمانية لتصفية حسابها مع الخارجين عليها وكانت قد اعادت تنظيم السلاح البحرى التركى فتمكنت من النضال بنجاح

-٢٧٤-

.. د الشيخ ظاهر العمر ومحاصرة عكا حتى قتل الشيخ ظاهر. ثم التفتت سلطان إلى مصر فأرسل فى ابريل سنة ١٧٨٦ رسلاً إلى مصر يطلب من مماليك دفع الجزية المتأخرة وارسال مرتبات الحرمين من الغلال والأموال . حيث أن وفوجئ المماليك بوصول حملة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا جزائرلى إلى الإسكندرية فى أواخر شهر يونيو سنة ١٧٨٦ ونجح حسن باشا مؤقتاً فى إبعاد مراد بك وابراهيم بك عن الحكم إذ هربا إلى الصعيد وفشل حسن باشا فى اخضاع الصعيد ولكن مما يدل على ضعف الدولة العثمانية أن هذا النجاح المؤقت لم يتم إلا بموازرة بعض الأمراء المماليك له، كما أنه لما نجح فى اقصاء إبراهيم بك ومراد بك عن حكم مصر لم يعط السلطة للوالى العثمانى بل وضعها فى يد أمير مملوكى هو إسماعيل بك يضاف إلى ذلك أن هذا النجاح كان نجاحاً جزئياً لأن حسن باشا الجزائرلى عاد واتفق مع إبراهيم بك ومراد بك على أن يحكما المنطقة من برديس على مقربة من جرجا حتى شلال أسوان. وعين إسماعيل بك شيخاً للبلد وحسن بك الجداوى أميراً للحج .

واستباح حسن باشا الجزائرلى أموال إبراهيم بك ومراد بك واخذ نساءهم وأولادهم أسرى واعتبرهم أرقاء لبيت المال وذهب إليه وفد من علماء الأزهر وقال له الشيخ السادات هل أتيت إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ..... ؟ فقال له القبطان : هؤلاء ارقاء بيت المال فقال الشيخ : "هذا لا يجوز ولم يقل به أحد فثارت ثائرة حسن باشا الجزائرلى واستدعى كاتب الديوان ليكتب له اسماء اولئك العلماء واتهمهم بأنهم خارجون على السلطان ولكن لم يجد هذا التهديد إذ قال له أحد العلماء أنهم مستعدون لكتابة اسمائهم بأيديهم. واضطر الجزائرلى باشا أن يترك بيع نساء المماليك واطفالهم ولما علم حسن باشا

الجزائرلى أن مراد بك قد ترك وديعة عند الشيخ السادات طلبها منه ولكنه امتنع وقال أن صاحبها لم يمت ولا اسلفها لغيره ما دام حياً .

وفكرت الحكومة العثمانية فى طريقة أخرى لإضعاف المماليك تمهيداً للقضاء عليهم وذلك بمنع وصول مماليك جدد إلى مصر عن طريق البوسفور ولكن هذه الفكرة لم تنفذ وتبين عدم جدواها إذ كان فى استطاعة الامراء المماليك استقدام مماليك عن غير طريق البوسفور .

ولم يطل المقام بحسن باشا فى مصر إذا استدعته الحكومة العثمانية بسبب قيام الحرب ضد روسيا فى سبتمبر سنة ١٧٨٧ ولم تستمر حالة الاستقرار التى أوجدها حسن باشا فقد توفى إسماعيل بك فى وباء الطاعون وعاد الحال إلى ما كان عليه من قبل من تنازع الامراء على الحكم. وعاد إبراهيم بك ومراد بك من الصعيد إلى القاهرة فى يوليو ١٧٩١ وخضعت مصر لحكم ثنائى تولاه إبراهيم بك مراد بك. وكان أولهما رجلاً سياسياً ذا دهاء وكان الآخر رجلاً عسكرياً فاتفقا على أن يختص إبراهيم بك بالمسائل الإدارية والسياسية بينما ينفرد مراد بك بالمسائل الحربية فكان الرجلان يكملان بعضهما بعضا واقتسما حكم مصر على هذا النحو : إبراهيم بك شيخاً للبلد ومراد بك أميراً للحج إلى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر فى صيف عام ١٧٩٨ وظهرت اخلاق الرجلين بوضوح عند قدوم هذه الحملة فإبراهيم هرب إلى الشام ووقف مراد فى وجة القوات الفرنسية .

من أهم مراجع هذه الدراسة

١ - ابن اياس : بدائع الزهورفى وقائع الدهور - جـ٣ مصر سنة ١٣١٢هـ.

٢ - ابن زنبل : تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى سلطان مصر واعمالها - مصر ١٢٨٧هـ.

٣ - عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٤ أجزاء (الجزء الأول)

٤ - عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جزءان - القاهرة ١٩٢٩. الجزء الأول.

٥ - محمد رفعت رمضان : على بك الكبير .

٦ - إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة.

٧ - حسن عثمان : مصر العثمانية فصل فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ألفه بعض اعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب القاهرة : ١٩٤٢ .

٨ - كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ترجمة نبية أمين فارس ومنير البعلبكى (مطبعة بيروت) .

٩ - شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر .

١٠ - محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر .

11 - Etienne combe .

L' Egypte ottomane, de la conquete par Selim (1517) a l' arrivee de Bonaparte 1798 .

preeis de - l' Histoire d' Egypte .
Tome Troisieme . Premiere partie .

المحتـــويـــات

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الايداع ٩٥/١٠٢٧٦
الترقيم الدولي 5 - 089 - 245 - 977







